



آفاق
عالية

19



يقظة امرأة

(رواية)



ترجمة
أحمد الشيمي

آفاق عالمية

يناير ٢٠٠٣

١٩



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

يقظة امرأة

تأليف : كيت شويبان

ترجمة : د. أحمد الشيمي

- تصميم الغلاف : محمد بغدادى
- لوحة الغلاف : للفنان چاكسون پولوك
- (١٩٥٦ - ١٩١٢)
- التدقيق اللغوى : شريف حسين

آفاق عالمية : سلسلة شهرية تُعنى بنشر ترجمات مختارة

رئيس مجلس الإدارة
أنس الفقى

أمين عام النشر
محمد السيد عيد

رئيس التحرير
طلعت الشايب

المشرف العام
فكرى النقاش

مدير التحرير التنفيذي
تفريد كامل إمام

المشرف الفنى
غريب نـدا

المرسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالى :
١٦ ش أمين سامى - القصر العينى - رقم بريدى : ١١٥٦١

رقم الإيداع ٣٥٩٨ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى 6 - 380 - 305 - 977 : I.S.B.N

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : ☎

e-mail : pic@6oct.ie-eg.com

مُقَدِّمَةٌ

ظلت هذه الرواية منسية ما يزيد عن نصف قرن منذ نشرها فى عام ١٨٩٩ إلى أن لفت إليها الأنظار الناقد : « كينيث إلبى » فى عام ١٩٥٦ وسماها « الرواية المنسية » . ولم تلبث بعد ذلك أن أصبحت من مقررات الدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا جنبًا إلى جنب مع الأعمال الأدبية الكبيرة فى الأدب الإنجليزى والأمريكى مثل : « حكايات كانتربرى » لتشوسر ، و « الفردوس المفقود » لميلتون ، و « موبى دك » لمفل . لم تلق هذه الرواية الرواج الذى تستحقه حتى تغير المشهد النقدى فى الولايات المتحدة ، ولم يعد العمل الأدبى ، والروائى - على وجه الخصوص - يستمد قيمته من خلال الرسالة الأخلاقية التى يضطلع بها فحسب ، وإنما بدأ يستمدّها من قيمته الفنية كذلك . ومما ساعد على رواج هذه الرواية أيضًا ذبوع النقد الأدبى النسائى ، وما استتبعه من : « انتصار للمرأة » ، وحققها فى أن تقرّر حياتها بعيدًا عن سلطان الرجل ، وأن تقاوم نظرة الرجل إليها بوصفها مصدرًا للمتعة لا غير .

كان المجتمع الأمريكى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يشبه - فى كثير من الوجوه - المجتمع الفيكتورى فى

إنجلترا : مجتمعًا بيورثانيًا يشتط في الحفاظ على القيم والأخلاق التي يراها من وجهة نظره ، ويشتط مع ذلك في تكريس قيم التعصب والتمييز . ولم يكن للمرأة مستقبل يمكن أن تتصوره غير الزواج والإنجاب ، وفيما عدا ذلك فإنها مذعنة لسلطان الرجل إذعائًا ظنت - في البداية - أنه من طبائع الأمور . فقد كان الرجل هو رب الأسرة وحاميها ، وكانت الأسرة من المقدسات الاجتماعية دون أن تكون المرأة في ذاتها شيئًا مقدسًا .

ولكن الأمور لا تقف عند نقطة واحدة ؛ فقد هبت عواصف التغيير من كل صوب : « ازدادت الديمقراطية رسوخًا في الحياة النيابية ، وأصبح للجميع الحق في الانتخاب ما خلا أصحاب العاهات العقلية ، ولعب الفلاسفة دورًا في تدمير القيم الراسخة وتغيير نمط التفكير القديم ، وانطلقت الصيحات التي تنادى بتحرير المرأة من أغلالها الاجتماعية ، وإفساح المجال أمامها لتحقيق توازنها النفسى والروحى ككائن لا يختلف عن الرجل إلا في هيئته الجسمية كما يختلف عنها الرجل في هيئته الجسمية » .

وكانت رواية « شوبان » واحدة من تلك الأعمال الأدبية التي تناولت وضع المرأة في المجتمع الأمريكى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى انطلقت فيها الدعوات لتحرير المرأة من أغلال القيود الاجتماعية . فبطلة الرواية - شأنها فى ذلك شأن مدام : « بوفارى » فى رواية « فلوير » الشهيرة - تسعى للفكاك من

أسر تقاليد مجتمعتها فى محاولة منها لتحقيق ذاتها . إن أكثر ما يضايق « إدنا پونتلييه » ذلك الإحساس بأنها من ممتلكات زوجها الخاصة ، شأنها فى ذلك شأن قطع الأثاث والحديقة . جاء ذلك صريحاً على لسانها فى بداية الرواية . إن علاقة « إدنا » بـ : « أرويين ، و « روبرت » ، وحتى انتحارها فى نهاية الرواية ما هى إلا رموز استخدمتها الكاتبة للإشارة إلى تخطيط البطلة بسبب صدامها مع مجتمع محافظ ، لا يقر سعيها لاكتشاف ذاتها ، والوعى بالذات هو ما يتصدى له المجتمع من خلال قيمه التى وضعها وتقاليدہ التى يثير غضبه مجرد محاولة التمرد عليها . إن البطلة تطرح الأسئلة وتجبب عنها فى مجتمع يحدد المفاهيم ويقر القوانين ولا يقبل بغير ما يقربه ويحدده . وعلى بساطة أحداثها تمتلئ الرواية بالرموز المحيرة والأسئلة التى تحتاج إلى من يبحث عن إجابات ، وبذلك تصبح الرواية أشبه بالقطعة الموسيقية التى يجد فيها القارئ متعة عند قراءتها ، وحتى بعد أن يعود إلى قراءتها من جديد . إنها رواية بحث عن ذات أسيرة عند قوى لا تفهمها تحدد مصيرها وتضطرها إلى حياة لا تريدها ، وهى ذات تواقة إلى أن تشغل مكانها فى عالم تريد أن تشارك فيه مشاركة فاعلة . وهى لا تستطيع أن تشارك فى هذا العالم ؛ لأن القيود والأعراف تقف حائلاً دونها ، وتضطرها إلى التسليم والرضى بذلك الدور الثانوى الذى لا تستطيع البيئة الاجتماعية أن تتيح لها غيره .

ولدت « كاثرين توماس أوفلاهارتى » المعروفة « بكيث شويان » لأسرة تنتمى للطبقة التى تسمى فوق المتوسطة ، فى الثامن من فبراير من عام ١٨٥٠ فى « سانت لويس » إحدى ولايات الجنوب الأمريكى . نزح أبوها من « أيرلندا » وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وكانت أمها : « إليزا فارس أوفلاهارتى » - وهى زوجة « توماس » الثانية تنحدر من أصول فرنسية وتصغر توماس بأكثر من ثلاث وعشرين سنة . ماتت عنه زوجته الأولى وهى تلد طفلها الثانى بعد خمس سنين من الزواج . تعلمت « كيث شويان » الفرنسية على يد جدتها « مدام فكتوار فردون تشارلوفيل » التى كانت تحكى لها القصص التى تعلّى من قيمة المرأة وتقدر الدور الذى كان يجب أن تلعبه فى محيطها ، وهو الدور الذى لم يسمح المجتمع المحافظ فى ذلك الوقت للمرأة بأن تلعبه . اشتغل الأب بالتجارة وحقق ثروة كبيرة ومات فى حادثة سقوط جسر « كاسكونيد » الذى شيدهته الدولة فى غرب « سانت لويس » عندما دعت بعض وجهاء المدينة للاحتفال بعبور أول قطار سكة حديد على الجسر فى الأول من نوفمبر من عام ١٨٥٥ لم تكن « كيث » قد تخطت السادسة بعد . تخرجت فى أكاديمية القلب المقدس فى عام ١٨٦٨ . لم تكن رواية « اليقظة » هى كل ما كتبت « كيث شويان » ، فقد سبقتها برواية تحت عنوان « الواقع فى الخطأ » ، كما كتبت مجموعة من القصص القصير

قامت بنشرها « دار هوتن مغلن » الشهيرة فى عام ١٨٩٤ . توفيت « كيت شوپان » فى أغسطس من عام ١٩٠٤ عن عمر يناهز الرابعة والخمسين . لقد أصبحت « كيت شوپان » فى نظر النقاد اليوم ، وبفضل هذه الرواية ، واحدة من أعلام الأدب فى القرن التاسع عشر ؛ وذلك بسبب : أسلوبها الأدبى الرفيع ، وتناولها الجرىء لمشاكل المرأة ، وسعيها للوصول إلى الوعى بذاتها ، وهو سعى لم تتخل عنه حتى أواخر أيامها .

ببغاء أخضر مائل إلى الصفرة يتململ فى قفصه المعلق خارج الباب ، كان يردد بالفرنسية :

- اذهب من هنا ! اذهب . . عليك اللعنة !

كان بوسعه ترديد كلمات من الإسبانية ومن لغة أخرى لا يفهمها أحد ، أو لعلها كانت تصدر من الطائر المحاكى الآخر الذى علق على الجانب الآخر من الباب ، ومضى يرسل ألعانته العذبة عبر النسيم بإصرار غريب .

نهض السيد پونتليه الذى اكتسب وجهه بعلامات السخط والاستغراب ، بعد أن عجز عن التركيز فى قراءة صحيفته ، ونزل إلى الشرفة حيث كان يرى من موقفه المعديات الضيقة التى تصل بعض منازل لبرن الصغيرة ببعضها الآخر . كان يجلس أمام المنزل الرئيس ، وكان الطائران ملكًا لمدام لبرن ولهما الحق فى إصدار ما يحلو لهما من الجلبة وللسيد پونتليه الحق فى مغادرة المكان إذا رأى أنهما يقلقانه . توقف أمام منزله الذى كان الرابع من ناحية المنزل الكبير ومجاورًا للأخير . جلس على مقعد هزاز كان هناك وكرس اهتمامه من جديد فى قراءة الجريدة . كان اليوم : الأحد ، وكانت الجريدة التى بين يديه جريدة السبت ؛ فجرائد الأحد لم تكن قد وصلت إلى جراند آيل بعد . مر بعينه على

صفحة المال والاقتصاد ، وألقى نظرة سريعة على عناوين الأخبار التى لم يتح له قراءتها قبل أن يغادر نيو أورليانز أمس الأول .

كان السيد پونتليه فى الأربعين من عمره لا تغادر النظارة عينيه ، متوسط الطول ضامر الجسم ، ذا انحناء خفيفة عند منكبيه . أما شعره فقد كان بنيًا سبطًا ، ومفروقًا عند جانب من رأسه ، وكانت لحيته منسقة متقنة التهذيب . غادرت عيناه الجريدة بغتة وألقى نظرة على ما حوله . كانت الضوضاء أكثر من المعتاد ، وكان المنزل الرئيس يدعى المنزل تميزًا بينه وبين الشاليهات الصغيرة التى تنتشر فى المكان . لم يغادره الطائران ، وإنما كانا يملآنه ثرثرة وصفيرًا . كان الصغيران توءما فاريفال يعزفان لحنًا ثنائيًا من أوبريت زامبا على البيانو ، فى حين كانت مدام لبرن تروح وتجىء فى نشاط صاحب دون أن تمل من إصدار الأوامر للخادم بصوت متميز كلما دخلت ، ولا تمل من إعطاء توجيهاتها بنبرة حادة عالية للطباخة كلما خرجت . كانت سيدة طلقة الوجه مفعمة بالنشاط أنيقة الملبس ، ترتدى فستانًا أبيض على الدوام بأكمام تغطى مرفقيها ، تتغضن تنورتها المنشية فى غدوها ورواحها . ثمة سيدة أخرى تمشى متاثالة أمام أحد تلك الشاليهات الصغيرة ، مشغولة فى إحصاء حبات مسبحتها فى طمأنينة واضحة . لقد قدم عدد لا بأس به من سكان البنسيون إلى تشنير كامينادا فى مركب شراعى لحضور القداس ، بينما كان

بعض الشباب مشغولين بلعب الكروكى تحت أشجار البلوط المائى . كان طفلا السيد پونتلييه هناك أيضًا مفعمين بالحيوية والنشاط ، أحدهما فى الرابعة من عمره والآخر فى الخامسة ، ومربية نصف زنجية تتبعهما أينما ذهبا بترفع حالم وطبع متأمل . أشعل السيد پونتلييه سيجارة وشرع يدخن تاركًا الصحيفة تغادر يده دون اكتراث بعد أن تحولت عيناه إلى مظلة تمشى الهوينى قادمة من جهة الشاطئ . استطاع أن يراها بوضوح من خلال جذوع أشجار بلوط الماء المتباعدة وعبر نباتات البابونج الصفراء . بدا البحر بعيدًا وذابت زرقة فى زرقة الأفق على نحو غامض . اقتربت المظلة ببطء وعرف أن ظلها القرمزى كان يحتوى زوجته مدام پونتلييه والشاب روبرت لبرن ، وعندما وصلا إلى المنزل جلس الاثنان على آخر درجة من درجات سلم المدخل كل فى مواجهة الآخر يتكئ إلى عمود وقد بدا عليهما الإعياء الشديد . قال السيد پونتلييه :

- من الحمق أن ننزل البحر فى ساعة كهذه ودرجة حرارة كتلك ! !

لقد قام هو نفسه بجولة فى أول النهار ولهذا بدا له الصباح طويلًا . أضاف وهو يحدق فى زوجته كمن يمعن النظر إلى قطعة ثمينة من ممتلكاته أصابها عطب :

- لقد لسعتك الشمس كثيرًا !

رفعت يديها الجميلتين القويتين وتفحصتهما وهي تشد أكمامها الشاسية حتى رسغها ، عندئذ تذكرت خواتمها التي أعطتها لزوجها قبل أن تذهب إلى الشاطئ ، وعندما اقتربت منه فى صمت فهم ما كانت تريده ، وأدخل يده فى جيب صدرته ، وأخرج الخواتم ووضعها فى راحة يدها المفتوحة ، وأعادتها إلى أصابعها . التفتت إليه وهي تتحسس ساقها وراحت تضحك . كانت الخواتم تلمع فى أصابعها ، أما هو فقد رد عليها بابتسامة مهذبة ، وسألها وهو ينظر بفتور وبهجة مفتعلة إلى أصابعها :
- ما هذا ؟

لم يهتم عندما أرادت أن تقص له مغامراتها فى مياه البحر . لقد كانت لديه حكاية مماثلة . وبدا لهما أن مثل هذه الحكايات لا تستحق الاهتمام . ثئاب السيد پونتليه وتمطع ثم نهض وهو يقول إنه لم يكن فى كامل عقله حين عرج إلى فندق كلن ولعب البلياردو . عرض على روبرت أن يذهب معه إلى لبرن ! ولكن روبرت قال إنه يفضل المكوث فى مكانه والتحدث مع مدام پونتليه . قال لإدنا وهو يهم بالذهاب :

- حسناً ! دعيه وشأنه عندما تملينه يا إدنا !

- عندئذ هتفت به إدنا وهي تمد يدها :

- خذ الشمسية معك !

تناول الشمسية وأرسلها فوق رأسه وشرع يخطو درجات

السلم . . وذهب . قالت زوجته فى إثره :

- هل ستعود للعشاء ؟

توقف لحظة وهز منكبيه وتحسس جيب قميصه ليتأكد من وجود الدولارات العشرة . ربما يعود وربما لا يعود ، يرجع ذلك لعدد الأصدقاء الذى سيجده هناك فى فندق كلن وطبيعة اللعبة . لم يقل ذلك ولكنها فهمت وضحكت وهى تلوح له بـتحية الوداع . تشبث الطفلان بالأب عندما هم بالذهاب ولكنه قبلهما ووعدهما بالبونبون والفول السودانى .

- ٢ -

كانت عينا مدام بونتليه قلقتين تشعان سحرًا ، يغلب عليهما اللون البنى الضارب إلى الأصفر القريب من لون شعرها . كانتا تتحركان فى وجهها حركات سريعة ثم لا تلبثا أن تثبتا على شىء ما وكأن مدام بونتليه قد غابت عن الوعى فى نوبة من التأمل والتفكير العميق .

أما حاجباها فقد كانا أكثر سوادًا من شعرها . كانا كثيفين ومشرعين مما يزيد من عمق عينيها . كانت بادية الأناقة يقطر وجهها بالجازبية بفضل تعبيراته الصريحة وملامحه التى يشوبها تناقض فتان . كانت ساحرة .

كان روبرت مشغولاً فى إعداد سيجارته؛ فهو يدخن السجائر ، لأنه لم يكن فى وسعه الإنفاق على السيجار كما قال .

كان لديه سيجار أهده له السيد پونتليه ، يدخره لما بعد وجبات العشاء . لم يكن يبدى امتعاضاً من ذلك ولا ضيقاً . لم يكن فى مظهره مختلفاً عن صاحبه : وجه نظيف باش ، وذقن محلوقة ، وعينان تنطقان بالسعادة ، ولا يبدو أنّهما يستولى عليه . تستجمع عيناه قوتهما لتعكس حرارة الصيف وكسله .

تناولت مدام پونتليه مروحة مصنوعة من سعف النخل ، كانت هناك فى الشرفة ، وشرعت تذب بها الذباب بينما راح روبرت يرسل سحب الدخان المتقطعة من سيجارته . بدأ يبادل إدنا أطراف الحديث حول مشكلات الحياة . حكّت له عن غوصها فى الماء وعن الريح والأشجار والناس الذين ذهبوا إلى تشنير ، وعن الصبية الذين كانوا يلعبون الكروكى تحت أشجار البلوط المائى ، وعن توءمى فاريفال اللذين يقدمان أوبرت « الشاعر والفلاح » . تحدث روبرت كثيراً عن نفسه . كان شاباً غراً يفتقر إلى خبرة السنين . تحدثت مدام پونتليه عن نفسها قليلاً . كان كل منهما ينصت لما يقوله الآخر . كشف روبرت لها عن نيته فى الذهاب إلى المكسيك فى الخريف القادم حيث الثروة فى انتظاره . كثيراً ما أفصح عن نيته فى الذهاب إلى المكسيك ولكنه لم يذهب قط . ظل متمسكاً بوظيفته المتواضعة فى مؤسسة تجارية فى نيو أورليانز ، ولم يشفع له حسن اطلاعه على الإنجليزية والفرنسية والإسبانية فى أن يحسن مركزه الوظيفى .

كان روبرت يقضى إجازة الصيف ، كما اعتاد دائماً ، مع

والدته فى جراند آيل . وفى أيام سابقة لا يتذكرها ، كان المكان بمنزلة المصيف لعائلة لبرن . الآن وقد أحيط بدسته من الأكواخ تمتلئ على الدوام بزوار معروفين من الحى الفرنسى ، فإن البيت لم يزل قائماً يؤكد على حق مدام لبرن فى ملكية المكان الذى ولدت فيه . تحدثت مدام پونتليه عن مزرعة والدها فى الميسيسى ، والدار القديمة التى نشأت فيها كفتاة فى ريف كنتكى الذى يغطيه العشب الأزرق على الدوام . كانت سيدة أمريكية تجرى فى عروقها دماء فرنسية بدت ضائعة فى غمرة الاختلاط وتعاقب السنين . قرأت خطاباً من أختها التى كانت فى رحلة سياحية فى الشرق وعرفت منه أنها تشغل نفسها الآن بالإعداد للزواج . كان روبرت مهتماً بمعرفة الفتاتين وطبيعة أبيهما وأخبار الأم قبل رحيلها . وعندما طوت مدام پونتليه خطاب أختها كان الوقت قد حان لتناول العشاء . قالت وهى تنفحص الاتجاه الذى اختفى منه زوجها :

– أرى أن ليونس لن يعود !

وقال روبرت إنه لن يعود لأنه سيجد الكثير من أصحابه فى نادى نيو أورليانز فى كلن . وعندما غادرته مدام پونتليه ، ودخلت حجرتها نزل الدرج واتجه صوب لاعبى الكروكى ، حيث راح يسلى نفسه خلال نصف الساعة التى سبقت العشاء بطفلى پونتليه اللذين كلفا به وأحياه .

كانت الساعة الحادية عشرة عندما عاد السيد پونتليه من فندق كلن فى تلك الليلة . كان يحس بنشوة عالية وثقة مهيمنة ويكثر من الكلام إلى حد الثرثرة . أيقظ زوجته التى كانت فى سريرها تغط فى نوم عميق . بدأ يتحدث معها وهو يتخفف من ملابسه . حكى لها عن نوادره وأخباره وما جمعه خلال يومه وما وقع بين الناس من القيل والقال . ثم أخرج من جيب بنطاله حفنة من أوراق العملة المتغضنة وعدداً من العملات الفضية التى اختلطت فى جيبه مع المفاتيح والسكين والمنديل وكل ما تصادف وجوده فى جيبه يومئذ . أما هى فقد راحت تغالب النعاس وتجييه عن أسئلته بإجابات مقتضبة مبهمة مما ثبط همته وأفتر حماسه . فزوجته التى يعدها مصدر حماسه للوجود لا يأنس منها اهتماماً يذكر بالأمور التى تهمة ولا بحديثه كله .

لم يتذكر السيد پونتليه أن يحضر معه البونبون والفول السودانى للصبيين رغم الحب الجرم الذى يكنه لهما . وها هو ذا قد دلف إلى حجرة نومهما ليطمئن على حالهما ، فأذته الطريقة التى كانا ينامان بها على السرير فراح يعدل من وضعهما ، فى حين كان أحدهما يركل بساقيه ويهذى عن سلة مليئة بسرطان البحر أو شىء من هذا القبيل . عاد السيد پونتليه إلى حيث ترقد زوجته ليخبرها بأن راؤول يعانى من حمى شديدة ويحتاج عنايتها

الفائقة ، ثم أشعل سيجارة وجلس قريباً من الباب المفتوح وشرع يدخن .

كانت مدام پونتلييه تعلم أن راؤول لم يكن يعاني من الحمى ، فقد ذهب إلى فراشه وهو فى أحسن صحة ، ولم يعرض له شيء خلال يومه . وكان السيد پونتلييه يعرف أعراض الحمى ، وكان يعرف أن غناء الصبى أثناء النوم لا يعنى الإصابة بها . ولكنه راح يؤنب زوجته بسبب إهمالها وعدم اكتراثها المعتاد بالصبيين . فإذا لم تهتم الأم بأطفالها ، كما قال ، فمن يهتم بهم إذن ؟ إنه يأتى إلى البيت وقد جلب المال من مهنة السمسرة التى يعمل بها ، ولا يمكن أن يوجد نفسه فى مكانين فى وقت واحد : يكافح من أجل لقمة العيش خارج البيت ، ويمكث فى الوقت نفسه فى البيت ليعتنى بالصبيين . كان يتحدث بنبرة حادة حازمة . نهضت مدام پونتلييه من فراشها بسرعة وذهبت إلى حجرة الطفلين وما لبثت أن عادت لتجلس على حافة السرير وقد وضعت رأسها على الوسادة . لم تقل شيئاً ، ورفضت الإجابة عن أسئلة زوجها ، وعندما انتهى من سيجارته ذهب إلى فراشه ، وخلال نصف دقيقة كان قد غط فى نوم عميق .

لقد ذهب النوم من عيني مدام پونتلييه بعد هذا الفاصل من الشجار المفتعل . مسحت دموعاً انسابت على خديها بكم جلبابها . أطفأت شمعة تركها زوجها مشتعلة ، وأدخلت رجلها

العاريّتين في شبشب من قماش الستان عند حافة السرير وذهبت إلى حيث جلست على المقعد الهزاز وطفقت تتأرجح للخلف والأمام .

كان الليل قد تجاوز منتصفه . وكانت الشاليهات قد أطفأت أنوارها الزاهية ما خلا ضوء واحد ضعيف ينطلق من مداخل البيوت . لم يكن ثمة صوت في الخارج إلا نعيب بومة عجوز على شجرة بلوط قديمة يستجيب لصوت البحر السرمدي الذي لا تكاد تسمعه في ساعات هدوئه ، يخترق السكون مثل تهويده حزينة في جوف الليل .

امتلات عيني مدام بونتليه بالدموع حتى أن كم فستانها المبلل لم يعد يصلح لمسح الدمع المناسب . أمسكت مؤخرة المقعد بيد وقد انحسر كمها الواسع عن سمانة ذراعها المرفوعة ، وبحركة مفاجئة دست وجهها المتوتر المبتل في ثنية ذراعها واستمرت في النحيب دون أن تكثرث لتجفيف وجهها وعينيها وذراعها من الدمع الذي انهمر . لم تكن تعرف لماذا كانت تبكي ، فلم يكن ما حدث من زوجها منذ ساعة بالشئ النادر في حياتهما الزوجية . لم تكن هي ولا ولداها يقيمون وزنًا لعطف الأب وحنانه المفقود . امتلا كيانهما كله بهم لا سبيل إلى وصفه . أصبح الحزن مثل ظل ثقيل أو ضباب رقيق يجثو على روحها المعذبة . كان حزنًا غريبًا لم تألفه من قبل ، تمكن الآن منها حتى أصبح من

طبيعة حياتها . لم تجلس هناك لكى تلقى باللوم على زوجها فى قرارة نفسها ، وعلى القَدَر الذى قاد خطواتهما إلى الطريق الذى جمعهما . كانت تبكى لتخلص قلبها من هم طغى على مشاعرها المحبطة . راحت الحشرات تمرح من حولها ، وأخذ البعوض يعضها بقوة حول ذراعها ويقرص قدميها العاريتين .

استطاعت لسعات البعوض على ضآلة شأنها وأصوات الحشرات الهينة أن تخفف من الحالة التى كان يمكن أن تبقىها جالسة بقية الليل . وفى الصباح استيقظ السيد پونتليه مبكرًا لكى يذهب إلى الميناء فى الوقت المناسب . كان عائداً إلى المدينة لياشر تجارته ، ولن يروه فى الجزيرة مرة أخرى حتى السبت القادم . لقد استعاد الآن هدوءه الذى أفسده ما حدث فى الليلة المنصرمة . ازداد شوقه إلى الذهاب ؛ لأنه كان يتطلع لقضاء أسبوع مثير فى شارع كاروندلت .

أعطى السيد پونتليه زوجته نصف النقود التى جلبها من فندق كلن فى المساء المنصرم . أخذت النقود برضى لا ينكر . كانت تحب النقود شأنها فى ذلك شأن جميع النساء . قالت وهى تحصى الورقات وتحسبها واحدة واحدة .

- تكفى لشراء هدية أنيقة لجانيت أختى بمناسبة زواجها .

ولكنه ضحك وقال بينما كان يهم بتقيلها قبلة الوداع :

- أمل أن نتمكن من شراء هدية أكبر من هذه لجانيت

يا حبيبتي .

أسرع الطفلان يتعلقان بساقيه ويتوسلان إليه أن يحضر لهما الأشياء التى يريدانها . كان السيد پونتليه محبوبًا من الجميع ، من السيدات والرجال والأطفال وحتى الخادما كن يودعنه . وقفت زوجته تلوح وتبسم ، وأخذ الصبيان يصيحان بينما هو يختفى شيئًا فشيئًا على الطريق الصخرى العتيق المؤدى إلى الطريق الرملى .

وبعد أيام قليلة تلقت مدام پونتليه صندوقًا من نيو أورليانز . كان من زوجها ، وكان مليئًا بأشهى الطعام والحلوى اللذيذة والفطائر ، وزجاجة أو زجاجتين من شراب نادر ، وكمية كبيرة من البنبون . كانت مدام پونتليه كريمة دائمًا عندما تصل مثل هذه الصناديق التى اعتادت عليها من زوجها الغائب . وضعت الفطائر والفاكهة فى حجرة السفرة ، وقامت بتوزيع البنبون على السيدات اللاتى رحن يتتقين منها بأصابع رقيقة وشيء من الشره وهن يعلن أن السيد پونتليه أفضل زوج فى العالم ، واضطرت مدام پونتليه إلى أن تقول إنها لا تعرف رجلًا أفضل منه .

- ٤ -

لم يكن من اليسير على السيد پونتليه أن يثبت لنفسه أو لآى واحد آخر أن زوجته مقصرة فى واجبها تجاه زوجها وولديها . كان ذلك شيئًا يشعر به أكثر من أن يتلمسه بيديه وحواسه . لم يحدث أن عبر عن هذا الشعور دون ندم وكأنه اقترف ذنبًا . فإذا

وقع أحد الطفلين على الأرض وهو يلعب لا يندفع باكياً إلى صدر أمه الحنون ، كان ينهض واقفاً ويزيل دموعه التي تقفز إلى عينيه ، والرمل من فمه ويواصل اللعب . كانت المعارك تحتدم بينهما وبين الأطفال الآخرين ، فيصر كل على رأيه ، وترفع القبضات والأصوات فى الهواء مما كان يلقي الخوف فى نفوس أقرانهم . وكانت المربية نصف الزنجية عائناً كبيراً فى نظرهم ، فهى لا تجيد ترزير الصدرات والبنطالات وتمشيطة الشعر وفرقه حسب العرف السائد فى المجتمع .

باختصار لم تكن مدام پونتلييه أما وزوجة بما تحمله هاتان الكلمتان من معنى . الزوجات الأمهات هن من يأتين إلى جزيرة جراندى كل صيف . تعرفهن وهن يضربن على صدورهن حين يتهدد فلذات أكبادهن خطر حقيقى أو خيالى ، يهمن حباً بأطفالهن ويعبدن أزواجهن ويفسحن لهم مواقع مقدسة فى قلوبهن ، حتى إنهن يتحولن إلى أجنحة حانية أشبه بأجنحة الملائكة .

الكثيرات أحبين هذا الدور ووجدن فيه متعة ، منهن آديل راتجنول التى كانت آية فى الجمال والأنوثة الطاغية . لو لم يعشقها زوجها عشقاً لاستحق وصف وحش ينبغى أن يموت موتاً بطيئاً . لا توجد الكلمات التى يمكن أن تصفها إلا فى الروايات الرومانسية ، ولا توجد لها مثيلة إلا من بين بطلات الأحلام التى

هن من نسج الخيال . الحسن يقطن جسدها ، و الفتنة تشع من جوانبها . شعرها المنسوج من الذهب ترسله على ظهرها دون أن يرده دبوس أو يكبحه مشط . عيناها الزرقاوان أشبه بالياقوت الأزرق ، وشفاتها الناتنتان عليهما حمرة الكرز أو أية فاكهة أخرى لذيدة . تعلقو جسدها بعض السمنة دون أن تنقص ذرة من ملاحظتها التى تقطر منها فى كل خطوة ونأمة . لا يتمنى المرء أن تكون رقبته أكثر امتلاءً ولو بمثقال حبة من خردل ، ولا أن يكون ذراعها أكثر نحافة . لا توجد يدان أكثر إتقاناً من يديها . السعيد من يراها وهى تخطط بإبرتها أو حين تعدل من الكشبان المثبت على طرف خنصرها وهى تخطط قطعة من ملابسها التحتية أو تعدل من شأن صدارة فوقية .

كانت مدام راتجنول تحب مدام پونتليه حباً جماً ، وكثيراً ما كانت تشاركها فى الحياكة أو تذهب إليها لقضاء الأمسيات . كانت هناك فى مساء ذلك اليوم الذى وصل فيه الصندوق من نيو أورليانز . جلست على المقعد الهزاز وشغلت نفسها فى حياكة قطعتين صغيرتين من ملابس الليل التحتية . لقد أحضرت نموذج القطعتين لمدام پونتليه لقصهما لأنها معروفة بمهارتها فى القص . كانت الملابس قد أعدت لحماية جسم الوليد وقت الشتاء حين تدخل تيارات الهواء الغادرة من مداخل البيت ، أو تقتحم تيارات البرد الماكرة الحجرات من خلال الثقوب والفجوات .

كانت مدام پونتليه مطمئنة لتوافر الحاجات المادية لأسرتها ، ولم تر حاجة إلى صنع المزيد من ملابس الشتاء الليلية ، أو أن تشغل بذلك نفسها طوال الصيف . ولكنها لم ترد في ذات الوقت أن تظهر بمظهر غير المهتم ، ولذا فقد أحضرت الجرائد وبسطتها على أرض البهو ، وبناء على تعليمات مدام راتجنول شرعت تقص نموذج الرداء المنيع .

كان روبرت هناك يجلس على المقعد نفسه الذى كان يجلس عليه الأسبوع الماضى ، فى حين جلست مدام پونتليه على درجة السلم نفسها التى كانت تجلس عليها فى المرة الماضية ، تتكىء على العمود فاترة الهمة ويجوارها صندوق البنون تمده بين الفينة والفينة للمدام راتجنول ، وفى كل مرة تقع مدام فى حيرة عند الاختيار ثم تستقر على قصة من حلوى النوغة ، وتتساءل عن مقدار الدسم فى الحلوى ومدى الضرر الذى سوف يصيبها منه . لقد مضت سبع سنوات الآن على زواج مدام راتجنول ، وهى تضع مولودًا كل عامين . لديها الآن ثلاثة أطفال وتفكر فى الرابع . إنها تتحدث دائمًا عن حالتها الصحية دون سبب واضح لذلك .

راح روبرت يطمئنها ويؤكد لها أنه يعرف سيدة عاشت على حلوى النوغة طويلًا . . ولكنه لم يكمل بعد أن نظر إلى وجه مدام پونتليه فكبح جماح نفسه وغير الموضوع تمامًا . ورغم أن مدام پونتليه تزوجت من كريولى^(١) إلا أنها لم تكن على وفاق

تام مع مجتمع الكريولين ، لم تشعر بالآلفة بينهم إلا بعد أن أصبحت واحدة منهم . إنهم يترددون على منزل لبرن هذه الأيام . إن الكريولين يعرفون بعضهم بعضًا مثل أفراد الأسرة الواحدة ، بينهم أشد أواصر المحبة ، وتميزهم ميزة تعجب بها مدام پونتليه أشد الإعجاب وهى الغياب الواضح للاحتشام المتكلف بينهم . لم تكن حريتهم فى التعبير مفهومة بالنسبة لها فى البداية ، ولكنها لم تكن تجد صعوبة فى عَزْوِهَا إلى البساطة المختلطة بالكبرياء التى كانت تبدو من طبيعة المرأة الكريولية .

تَمَلَّك إدنا العجب حين حكّت مدام راتجنول للسيد فاريقال القصة الفظيعة لإحدى ولاداتها دون أن تدخر أية تفاصيل . كانت قدرتها على استقبال الصدمات يزداد مع الأيام ولكنها لا تستطيع أن ترد لون الدم الأحمر المتصاعد إلى وجنتيها . غير مرة كان يقطع دخولها قصة كان روبرت يسلى بها بعض النسوة المتزوجات ممن كن يشدن التسلية .

ثمة كتاب كان ينتقل فى الفندق من حجرة إلى حجرة . وعندما جاء دورها لتقرأه قرأته وهى مندهشة . قرأته فى خلوة بعيدًا عن أعين الناس رغم أن أحدًا لم يفعل مثلها . كانت تخفيه عندما تسمع وقع أقدام قادمة . أما الكريوليون فقد كانوا يقرؤونه فى العلن ويتناقشون حوله دون حرج أو تحفظ مما جعل مدام پونتليه تتوقف عن الدهشة وتعلم أن عجائب هذه الدنيا لا تنفد أبدًا .

كان الجميع فى جراند آيل يعرفون بعضهم بعضًا حق المعرفة ، مدام راتجنول تمارس الخياطة فى أوقات فراغها ، تتوقف بين الحين والآخر لتروى قصة أو حادثة طريفة بتعبيرات معبرة من يديها . أما روبرت و مدام پونتليه فكانا يجلسان دون عمل ، يتبادلان كلمات أو نظرات أو ابتسامات بين الحين والآخر تدل على مرحلة متقدمة من الحميمية وطيب الصحبة ، توطدت بينهما طوال الشهر المنصرم دون أن يلتفت إلى ذلك أحد . كان الكثيرون يظنون أن روبرت سوف يخلص فى خدمة مدام پونتليه عندما يصل . فمذ كان فى الخامسة عشرة أى منذ أحد عشر عامًا وروبرت يكرس نفسه خادمًا لسيدة من سيدات المجتمع البارزات أو حسناء شابة أو أرملة فاتنة أو حتى متزوجة جميلة فى كل صيف عندما يصل إلى جراند آيل . فى الصيفين الماضيين كان يقوم بخدمة الآنسة دوفچين . ولكن الآنسة دوفچين قضت نحبها بين الصيفين ، وحزن روبرت بعض الوقت . إنه الآن يجلس عند أقدام مدام راتجنول لعلها تمن عليه بعزاء أو تعاطف .

كانت مدام پونتليه تحب الجلوس والتطلع إلى صاحبها الوسيم وكأنها تطالع وجه مريم العذراء . قال روبرت لنفسه :
إن وراء هذا المظهر الجميل قسوة كامنة ! هل تعرف أننى عشقتها حقًا ذات يوم ؟ كانت تقول : روبرت ، تعال هنا ، اذهب

هناك ، توقف ، اجلس ، افعل هذا ولا تفعل ذاك ، انظر إلى الوليد هل ينام ؟ أعطنى كئيبانى من فضلك ، نسيت أين تركته ، تعالَ واقرا هذه الجريدة وأنا أخيط هذه الملابس .

- حقًا ! لم أتوقف لأسأل نفسى ، لقد كنت دائماً تحت

قدمى مثل القط المزعج !

- تعنين مثل الكلب الولهان ، وعندما ظهر مدام راتجنول

أصبحت مثل الكلب فقط .

ابتعد ، اذهب ، غادر المكان فى الحال ، مع السلامة .

قالت بسذاجة مفرطة جعلت الجميع يضحك .

- ربما خفت من غيرة ألفونس . اليد اليمنى تغار من اليد

اليسرى ! والقلب يغار من الروح ! ولكن فى هذه

الأمر لا يغار الزوج الكريولى أبداً ؛ لأن عاطفته

تضمحل بسبب البعد .

استمر السيد روبرت يحدث مدام پونتليه عن عاطفة مقهورة

شعر بها ناحية مدام راتجنول ، والليالى التى ظل فيها مؤرقاً ،

والأوقات التى كان يظل فيها شاردًا يفكر وهو على شاطئ البحر

أو يعوم فى الماء ، فى تلك الأثناء علقت المدام المنكبة على

الإبرة تعليقاً مقتضباً مفعماً بالضيق :

- مهرج ، منك ، دجال . . ابتعد عن هنا !

لم يكن يحب استخدام هذه اللغة التى تخلط الجد بالهزل

عندما يكون وحده فى معية مدام پونتلييه . ولم تكن هى تعرف بالضبط ماذا كانت ستفعل حيال هذه اللغة . عندئذ كانت ستجد صعوبة فى أن تفرق بين جده وهزله . كان أحيانًا يحدث مدام راتجنول حديث العشاق دون أن يأخذه أحد مأخذ الجد . كانت مدام پونتلييه سعيدة لأنه لم يتبن هذا الدور فى علاقتهما . وإلا لكان الأمر ثقيل الوطأة على نفسها .

أحضرت مدام پونتلييه أدوات القص والرسم التى كانت تتسلى بها على سبيل الهواية لا الحرفة . بيد أنها كانت تهوى الرسم حقًا . كانت تحس برضى وهى مشغولة بالحياكة لم تتحها لها هواية أخرى . لقد كانت تود لو تشتد الروابط بينها وبين مدام راتجنول التى لم تبدُ قبل اليوم أكثر جاذبية وحضورًا ؛ جالسة هناك أشبه بالعدراء مريم وقد تألق وجهها بآخر أضواء النهار الذهبية .

رقى روبرت الدرج وأجلس نفسه على درجة السلم عند أقدام مدام پونتلييه فاستطاع أن يرى ما تفعل . تناولت فرشها بأريحية وحرية اكتسبتها ليست من طول العشرة بقدر ما هى من استعداد فطرى جبلت عليه . راح روبرت يراقبها باهتمام بالغ بدا من عبارة هتف بها بالفرنسية يخاطب بها مدام راتجنول :

- لا بأس بما تفعله لأنها تتقنه ، فهى تحبه ولديها موهبة حقيقية فيه .

وفى غمرة اهتمامه أسند رأسه دون تفكير على ذراع مدام پونتليه فردته فى رفق ، ولكنه كرر فعلته مرة أخرى وعزت ذلك إلى كثرة نسيانه دون أن تقنع نفسها بهذا السبب . لم تحتج ولكنها ردت أيضاً دون رقة بل بحزم واضح . ولم يقدم لها اعتذاراً .

ولم تكن الصورة المكتملة تشبه مدام راتجنول التى أبدت خيبة أملها عندما أحست بأن الصورة لا تشبهها ، بيد أنها قطعة من الفن الجميل على أية حال . ولكن مدام پونتليه ألقت نظرة ناقدة على الرسم وألقت بكمية من اللون على سطحها وأخذت تغضن الورقة بين يديها فى غيظ .

أقبل الصغار يتسقلبون على السلم تتبعهم المربية الزنجية على مسافة متفق عليها بينها وبين الصبية . دعتهم مدام پونتليه لحمل ألوانها وأشياؤها إلى البيت بعد أن فكرت فى أن تستوقفهم لحديث قصير وبعض من مزاح ، ولكنهم كانوا فى شغل من أمرهم . لقد كان مجيئهم من أجل إلقاء نظرة فاحصة على صندوق البنون . قبلًا دون اعتراض ما اختارته لهما وكل منهما يمد يدين ريانتين بكفين تشبهان الملاعق الكبيرة طمعاً فى الامتلاء .

كانت الشمس تميل إلى الغروب ، وكان النسيم عليلًا قادمًا من الجنوب ، ضعيفًا محملاً بعبق البحر الفتان . كان الصبية يحتشدون استعدادًا لألعابهم تحت أشجار البلوط . سوف تعلق أصواتهم وتخترق الآذان بعد قليل .

نشرت مدام راتجنول أدوات الخياطة ووضعت الكشبان بين إصبعيها والمقصات والخيط بدقة وعناية فى الأوراق التى ربطتها بدبايس باهتمام فائق . أحست فجأة بدوار فأسرعت مدام پونتليه إلى ماء الكولونيا ورشت بعضًا منه على وجهها بينما هرع روبرت لإحضار المروحة بحماس لا داعى له . ولم تلبث أن ذهبت النوبة ، ولكن مدام پونتليه تساءلت عن أصلها وأرجعت ذلك إلى نوبة من الخيال الجامح استحوذت على صاحبها؛ فوجهها لم يفارقه لونه الوردى .

وقفت تراقب المرأة الفاتنة وهى تقطع الصف الطويل من الشرفات فى خفة وجلال خليقين بالملكات . هرع صغارها لمقابلتها ، وتعلق اثنان منهم فى جونلتها البيضاء ، وتناولت الثالث من مربيته وحملته عند صدرها بعد أن أشبعته بالقبلات والملاطفات رغم أن الطبيب حذرها من رفع ما يرقى إلى وزن الدبوس . سألها روبرت كأنه يريد أن يذكرها :

- هل ستذهين للاستحمام فى مياه الشاطئ؟

فأجابته فى نبرة مترددة :

- أوه ، لا ، أنا متعبة جدًا ، لا أعتقد أنى سأذهب .

وتعلقت عيناها بمياه الخليج وقد سمعت همس مياهه تناديهما وتذكرها بعهد الحب الذى بينهما . عندئذ قال روبرت :

- أوه ، هلمى : لا يجب أن تفوتك الفرصة ، الماء لذيذ ،
لن يؤذيكَ ، تعالى .

تناول قبعته المصنوعة من القش المعلقة على مشجب خارج
الباب ووضعها على رأسها ونزلا الدرج وقد تعلقَت أنظارهما
بالشاطئ . كانت الشمس تميل إلى الغروب وكان النسيم رقيقاً
والدفع يشيع فى كل مكان .

- ٦ -

لم تعرف إدنا پونتليه لماذا كانت تريد أن تذهب إلى الشاطئ
مع روبرت . ولم تعرف لماذا تراجعت فى البداية ثم أذعنت
لدوافع متناقضة لم تعرف لها كنهها . ثمة ضوء خافت لاح فى
داخلها؛ ضوء يهذى إلى الطريق ويضع المحاذير فى الوقت
نفسه . كان ضوءاً مربكاً يحركها نحو الأحلام ، نحو التفكير
الكثير ، نحو الحزن المبهم الذى سيطر عليها عند منتصف الليل
عندما تركت نفسها نهياً للدموع .

باختصار بدأت مدام پونتليه تشعر بموقعها فى هذا الكون
كإنسان . بدأت تدرك العلاقة بينها وبين العالم ، فى داخلها ومن
حولها . تحول ذلك الإدراك إلى عبء ثقيل أكثر مما تحتمله روح
امرأة فى ريعان شبابها ، امرأة لم تتعد الثامنة والعشرين من
عمرها . حكمة أكثر مما تطيقها روحها الغضة ؛ حكمة فوق
ما تمنحه الروح القدس لأية امرأة فى سنها .

ولكن هكذا تكون البدايات ، بدايات الإحساس بالعالم ،
غامضة ومعقدة ، مشوشة ومربكة غاية الإرباك . القليل من نجا
عندما داهمتهم لحظة الإدراك ، أرواح كثيرة تلاشت فى غمرة
الاضطراب ! إن صوت البحر لساحر ! لا يتوقف عن الهمس ،
لا يتوقف عن التصفيق ! لا يتوقف عن الهمهمة ! يدعو الروح
للبحث عن سحر فى مهاوى الوحدة ، يدعوها للتيه فى مفازات
التأمل الباطنى ! صوته يخاطب الروح ، ملمسه يدغدغ الحواس
وهو يطوى الجسد فى عناقه الطرى الحميم .

- ٧ -

كانت مدام بونتييه سيدة انطوائية لا تحب إفشاء أسرارها
للآخرين . حتى وهى طفلة كانت تغلق ذاتها على حياتها الصغيرة
الخاصة . ولم تعد طور الطفولة حتى أدركت بالفطرة كنه حياتها
المزدوجة - ذلك الوجود الخارجى الذى كانت تحياه فى الواقع ،
وتلك الحياة الباطنة التى كانت تسأل عن كنهها .

وكان ذلك الصيف فى جراندى أيل فرصة لأن تتحرر قليلاً من
عباءة التحفظ التى ارتدتها دائماً . أية دوافع خفية أو ظاهرة تلك
التى تعتمل داخلها وتدفعها إلى التفكير فى هذا الأمر ؟ أظهر
ما نراه هو تأثير آديل راتجنول . وقعت فى البداية تحت تأثير فتنتها
الكريولية الطاغية ؛ أذعنت لها إدناً إذعاناً بفضل ما لديها من
شغف فطرى بالجمال يفوق شغف الآخرين . ثم تلك الصراحة

التي تكتنف وجود تلك المرأة وموقعها من الحياة الذي يصحح أن يكون موضع تأمل الجميع ، ذلك الوجود الذي ناقض تحفظ إدنا المعتاد هو الذي وطد أسباب علاقتها مع الكريولية الفاتنة . من يعرف من أى معدن صاغ الآلهة فى قديم الزمان ذلك القيد الدقيق الذى نسميه عطفًا تارة وحبًا تارة أخرى .

ذهبت السيدتان إلى الشاطئ ذات صباح معًا وقد شبكا ذراعيهما تحت شمسية بيضاء كبيرة . أقنعت إدنا مدام راتجنول بأن تترك الأطفال فى البيت رغم أنها لم تستطع إقناعها بأن تتخلى عن حزمة صغيرة من شغل الإبرة . رجتها أديل أن تضعها فى قاع جيها . لقد هربا من روبرت بطريقة لا يجد لها المرء مسوغًا .

لم يكن المشى إلى الشاطئ بالأمر الهين ، فالطريق رملى طويل تحفه النباتات المتشابكة التي تنتشر على جانبيه وتعترض العابر أحيانًا فيضطر إلى أن يغير وجهته . على جانبي الطريق ترى مساحات شاسعة من البابونج الأصفر ، وعلى البعد تكثر المزارع الخضراء وجنات البرتقال والليمون المتداخلة . كانت أشعة الشمس تلامس ذوابات الأشجار الكثيفة وتستقر عند النباتات الخضراء الملتصقة بالأرض .

كانت السيدتان طويلتى القامة بشكل واضح ، أما مدام راتجنول فكانت أكثر أنوثة ووقارًا فى الوقت نفسه . وأما إدنا بونتليه فكانت تمتلك فتنة الجسد التي تسلل إلى قلب الناظر

إليها . جسد مفعم بالعافية وأناقة كاملة وأداء حركى رائع يفرض الإعجاب ويسلب الألباب . ليس هناك من علامة على أن هيئتها الأنيقة نتيجة تكلف أو تعمد مقصود؛ فالناظر إليها لا يذهب دون أن يلقي نظرة ثانية على ذلك الجمال النموذجى والاتزان الجميل فى الحركة والسكون ، وهى أمور جعلت إدنا يونتليه تختلف عن سائر النساء .

كانت ترتدى ثوباً من نسيج قطنى رقيق ذلك الصباح - أبيض بخط رأسى متموج مشوب باللون البنى ، وياقة بيضاء من الكتان ، وقبعة كبيرة مصنوعة من القش كانت معلقة على المشجب خارج الباب . كانت القبعة الثقيلة تستقر أينما وضعتها على شعرها الجميل الأصفر الضارب إلى البنى .

كانت مدام راتجنول أكثر حرصاً على بشرتها ؛ لأنها لفت حجاباً من الشاش على رأسها وارتدت قفازين من جلد الكلب يصلان إلى رصغيها ، وثوباً من قماش أبيض بريش متجعد . وكانت الملابس المصنوعة من الجوخ الحريرى الرقيق التى كانت ترتديها تناسب جمالها المنمق الذى لم تنل منه بعض القسوة فى معالم جسدها .

قامت على طول الشاطئ عدد من الحمامات المفتوحة للجمهور ذات أبنية قوية رغم تجهمها ، تلحق بها بعض الشرفات الواقية المظلة على المياه . كان كل حمام يتألف من مقصورتين

تعود ملكيتهما إلى أسر ليرن ؛ كل أسرة تمتلك مقصورة خاصة بها مؤثثة بجميع لوازم السباحة وغير ذلك من لوازم الترفيه والترفيه التي يرغب فيها المصطافون . لم تكن لدى السيدتين رغبة في النزول إلى البحر . اقتصرت رغبتهما في المشي على الشاطئ وتبادل الحديث على مقربة من المياه الساحرة غير البعيدة عن مقصورتى العائلتين اللتين كانتا في بناية واحدة وتحت سقف واحد .

لقد أحضرت مدام پونتليه مفتاحها كالعادة ، وعندما فتحت باب الحمام ودلفت إلى الداخل ظهرت مرة أخرى وفي يدها قطعة من البساط فرشتها على أرضية الشرفة ثم أحضرت وسادتين من الشعر وقد غطتهما بقماش خشن كانت تضعه أمام المبنى . جلسا هناك في حماية ظل الشرفة دون مسافة كبيرة تفصل بينهما . أزاحت مدام راتجنول الحجاب ومسحت وجهها بمنديل ناعم وشرعت تجلب الهواء إلى وجهها بمروحة كانت تحملها على الدوام معلقة تحت إبطها بوشاح طويل . أزال إدنا ياقعتها وفتحت فستانها عند حنجرتها وتناولت المروحة من مدام راتجنول وشرعت تروح عن نفسها ورفيقتها . كان الطقس يميل إلى الحرارة فمكثا برهة يتبادلان الملاحظات حول حرارة الجو ووهج الشمس ، في حين كان نسيم عليل يداعب وجهيهما بين الحين والآخر ، تعكر صفوه ريح قوية تحرك المياه للأمام بعنف

واضح ، ويدفع المرأتين إلى أن يعدلا من شأن قبعتيهما كلما تجاوزتا رأسيهما بفعل الريح . على البعد كان هناك عدد من الأشخاص الذين كانوا يربضون فى المياه ، وكان الشاطئ لم يزل يفتقر إلى الحركة البشرية التى تملؤه فى العادة . فى الشرفة المجاورة كانت هناك سيدة ترتدى السواد تقرأ من كتاب صلوات الصباح ، وعاشقان يتطارحان الغرام تحت خيمة مخصصة للأطفال وجداها خالية .

كانت إدنا پونتليه تجول ببصرها فيما حولها من أشياء وفى النهاية ركزت النظرات على صفحة البحر . كانت السماء خالية من الغيوم مما جعل عيني إدنا تستشرف الأفق . رأت سحبات بيضاء معلقة على البعد تكاد تسقط . رأت شراعًا يسير فى اتجاه كات - أيلاند وأشرعة أخرى فى اتجاه الجنوب بدت ساكنة على مسافة بعيدة . سألت آديل رفيقتها التى تراقب نظراتها باهتمام بالغ وقد حارت فى تعبيرات وجهها الساكنة قرية الشبه بالتمثال .

- فىمن كنت تفكرين ؟

وردت مدام پونتليه بأنها لم تكن تفكر فى شىء ثم أردفت :

- يا للحمق ، لكن يبدو لى أنها الإجابة التى تصدر عنا دون

وعى منا على سؤال كهذا . دعيني أرى .

ثم مالت برأسها للوراء وضيقّت عينيها الرائعتين حتى

لمعتا كنقطتين قويتين من ضوء ، واستمرت تقول :

- دعيني أرى ، حقيقة لم أكن واعية بشيء ؛ ربما كان فى وسعى أن استعيد أفكارى .

وضحكت مدام راتجنول وهى تقول :

- أوه ، لا يهملك ! سوف أسامحك الليلة ، الجو حار وغير مناسب لتفكير كهذا خاصة التفكير فى التفكير ذاته .

ولكن إدنا قالت بالبحاح :

- ولكن مصدر المتعة موجود ، التطلع إلى الماء وامتداده فى البعيد ، وتلك الأشعة الساكنة على خلفية السماء الزرقاء ، لوحة فائنة لا أمل من تأملها . إن الرياح الساخنة تصافح وجهى ، تدفعنى للتفكير فى يوم صيفى جميل قضيته فى كنتكى ، وفى المروج التى بدت فى حجم المحيط لفتاة مثلى صغيرة كانت تدوس أقدامها العشب الغض الذى كان يغازل خصرها ، تمد ذراعيها فى الهواء كما لو كانت تسبح وهى تمشى ، تضرب العشب الطويل أحيانا بكلتا يديها كالسباح فى الماء . إنى أتذكر الآن كل شيء وكأنه أمامى .

- وأين كنت ذاهبة ذلك اليوم فى كنتكى ، وأنت تسيرين وسط العشب ؟

- لا أتذكر الآن . كل ما أتذكره أنى كنت أسير مائلة عبر العشب الناعم ، أتأمل المشهد الأخضر أمامى ، يتابنى إحساس

بأننى أريد أن أمشى إلى الأبد ، بلا نهاية . لا أتذكر هل كنت خائفة أو سعيدة ، لابد من أنى كنت أتسلى (أو أسرى عن نفسى) .

ثم ضحكت وقالت :

- أظن أنه كان يوم أحد ، لا أتذكر حقًا ، ولعلى كنت هاربة من الصلاة ، من هذا الطقس الدينى المشيخى ، أقرأ بشيء من الحزن باسم الأب الذى يقشعر له بدنى كلما فكرت فيه .

سألته مدام راتجنول بشيء من الترقب :

- وهل ما زلت تهربين من الصلاة منذ ذلك الحين يا حبيبتى ؟

قالت إدنا بسرعة :

- كلا ، أوه ، كلا : كنت طفلة صغيرة قليلة العقل فى تلك الأيام ، كنت منقادة لهاجس خادع داخلى دون أن أسأل نفسى . بالعكس ، فى فترة من فترات حياتى كنت متدينة جدًا . وعندما وصلت إلى الثانية عشرة من عمري ، وحتى الآن ، توقفت عن التفكير كثيرًا فى الدين ؛ أصبح عندى عادة أكثر من أى شيء آخر .

ثم توقفت إدنا عن الكلام وأمعنت النظر فى مدام راتجنول بعينين حائرتين وقد مالت إلى الأمام قليلًا لكى يقترب وجهها من وجه صاحبتهما وقالت :

- تعلمين أن شعورًا يعتورنى بأنى أخطو فوق المروج

الخضراء مثلما كنت أفعل ذلك الصيف ، دون عمل أو هدف ،
ودون تفكير أو غاية .

وضعت مدام راتجنول يدها على يد مدام إدنا بونتليه التي
كانت قرية منها . ولما لم تأنس من إدنا اعتراضاً يذكر صفعت
يدها مرة أخرى بقوة حانية وشرعت تلاطفها قليلاً بيدها الأخرى
وهى تهمس بصوت منخفض :
- يا حبيبتى المسكينة .

أحست إدنا فى البداية بخجل شديد ، ثم لم تلبث أن تركت
نفسها هدفاً سهلاً لملاطفة كريولية كريمة . لم تعد عبارات الحب
الشفهية الصريحة ، أن تقال لها أو تقولها لغيرها . كانت كثيرة
الشجار مع أختها الصغرى ، چانيت ، عادة سيئة نشأ عليها منذ
الصغر . أما أختها الكبرى ، مارجريت فقد كانت وقورة مبدلة ،
ربما لأنها اضطلعت بمسئوليات جسام كربة بيت ومشرفة على
أختها منذ صغرها ، فقد رحلت الأم وهى لم تزل فى شرح
الشباب . كانت مارجريت عملية لا تسرف فى التعبير عن عواطفها .
ولكن إدنا كانت تختار صديقاتها من الفتيات المتحفظات أيضاً ، ربما
المصادفة وحدها هى التى كانت تقودها إلى ذلك النوع من
الصديقات ، أو لعله الحظ وحده . إحدى صديقاتها كانت تتمتع
بمواهب ذهنية خارقة؛ تدبج المقالات الرائعة التى أعجبت بها إدنا
أيما إعجاب ! وحاولت تقليدها والإكثار من الحديث معها فى كل

شيء ، أكثر من دراسة عيون الأدب القديم ، ورتبا لندوات دينية وسياسية كانت موضع إعجاب هيئة التدريس .

كانت إدنا تعجب أحياناً من نزعة تستبد بها ويضطرب لها كيانه الداخلي كله دون أن يظهر على هيئتها الخارجية شيئاً من ذلك الاضطراب . ففي سن مبكرة - ربما كان ذلك قبل أن تخطو على العشب الغض - كانت مفتونة بضابط في سلاح الفرسان محترم المظهر يلمع في عينيه بريق . كان هذا الضابط يزور أباه في كنتكي . لم تكن تغادر مجلسه عندما يكون هناك ، تحديق طوال الوقت في وجهه الذي كان يشبه وجه نابليون ، بخصلة من الشعر الأسود تتدلى على جبهته . ولكن ضابط الفرسان اختفى من وجودها دون أن تدرك لذلك سبباً .

وفي وقت آخر اتجهت عواطفها إلى شاب مهذب كان يزور سيدة في مزرعة مجاورة . كان ذلك بعد أن ذهبوا إلى المسيسيبي للإقامة هناك . تزوج الشاب المهذب تلك مدام التي كان يزورها ، وكانا يزوران مارجريت في بعض الأماسي ، يذهبون في بوجيه فخمة ^(٢) كانت إدنا آنذاك فتاة صغيرة في طور المراهقة يؤلمها إدراكها أنها لم تكن شيئاً بالنسبة للشباب المرتبط بالسيدة ، أحزنها أنه لم يكن يعرها انتباهاً . ولكنه هو أيضاً أصبح مجرد ذكرى واهية .

ولكنها كانت شابة يافعة في ميعة الصبا عندما غازل أحلامها

أحد ممثلى التراجيديا الكبار ، تحولت المتيمة الحزينة إلى محبة حقيقية . كانت عاطفة جادة حقًا أخذت طابعًا نبيلًا مجللاً بالحزن الخفيف . لم تفارق صورة الممثل خيالها ، وظلت تحتفظ بصورة كبيرة له فى مكتبها مدة طويلة . وفى حضور الناس كانت تعبر دائمًا عن إعجابها به وبمواهبه الاستثنائية . وعندما تكون وحدها كانت لا تتردد فى أن ترفع الصورة إليها وتطبع قبلة حارة على جبين الرجل فتحس شفتاها برودة زجاج الإطار .

كان زواجها من ليونس پونتليه مصادفة من المصادفات العارضة ، مثل زيجات كثيرة تبدو فى ظروفها أشبه بترتيب الأقدار . قابلته فى غمرة تأجج حبها السرى العظيم . ووقع هو فى غرامها كما يفعل سائر الرجال ، وألح فى طلب يدها إلحاحًا لم تجد معه قدرة على الرفض . ولم يترك لها شيئًا ترغب فيه إلا أحضره . إخلاصه الذى لاحد له أرضى غرورها وسوغ كبرياءها . بيد أنها انتظرت أن يشاركها ذوقها الفنى وحبها التفكير فلم يحدث . أضف إلى ذلك الرفض العنيف من جانب والدها وأختها مارجريت لزواجها من كاثوليكي ، ولا نجد داعيًا لأن نذكر الدوافع الأخرى التى دفعت بها إلى الزواج من السيد پونتليه .

الزواج من الممثل التراجيدى ، حلمها الذى لم يتحقق ، قمة النعيم التى لم تدخرها لها الأقدار ، ظل يغازل أحلامها فترة بعد الزواج . ولكنها أخلصت للرجل الذى كان يعبدها من دون الله .

إخلاصه جعلها تتطلع للعيش فى عالم الواقع الذى يحفظ كرامتها مع رجل يحبها ويعجب بها ، فقررت أن توصل خلفها وإلى الأبد أبواب الرومانسية والأحلام .

ولم يمض وقت طويل حتى كان الشاب والممثل و ضابط الفرسان وآخرون غيرهم فى ذمة التاريخ ، ووجدت إدنا نفسها وجهًا لوجه أمام واقع الحياة . أغرمت بزوجها وأدركت ببعض الرضى الذى لم تكن تتوقعه أن آثار الحب القديم والعواطف الزائدة الخيالية لن تنال من حبها لزوجها وأولادها ولن تهدد أسرتها .

أحبت طفليها حبًا جمًّا تارة وفاترًا تارة أخرى ، تضمهما إلى صدرها أحيانًا وأحيانًا أخرى تنساها تمامًا . قضيا جزءًا من الصيف عند جدتهما فى أبرفيل دون أن تحس بحاجتهما لرؤيتهما ماعدا نوبات من الحنين العارض كانت تتابها بين الحين والآخر . لعلها كانت تحس أنهما سعيدان عند الجدة ، وكان غيابهما لوثًا من الراحة التى تنشدها دون أن تقر بذلك فى قرارة نفسها ، يحررها من مسئولية أصبحت تضطلع بها دون أن تدري ، ودون أن يعدها القدر لها إعدادًا حسنًا .

فى ذلك اليوم الصيفى الجميل ، عندما كانتا جالستين على الشاطئ ووجهيهما يصافحان البحر ، لم تخبر إدنا مدام راتجنول بكل شيء . لم تتذكر كل شيء فى الواقع . وعندما أسندت رأسها

على عاتق مدام راتجنول تورد وجهها بحمرة خجل ، تملكنتها نشوة مع سماع صوت نفسها ، وطعم الصدق فى حديثها هز كيانهما كما تفعل الخمر أو كما تفعل أولى نسيمات الحرية .

هناك أصوات تقترب منهما . كان روبرت قادمًا تحيط به فرقة من الأطفال يبحثون عنهما . كان هو فى صحبة طفلى پونتليه ، ويحمل بين ذراعيه ابنة مدام راتجنول . أطفال آخرون يحوطون به ومريتان تسيران خلفهم يظهر الضيق على وجهيهما ولكنهما مستسلمتان . نهضت السيدتان فى الحال وشرعتا تتأبعا وتنفضا ما علق بثيابهما من تراب . ألقت مدام پونتليه بالوسادة وقطعة البساط فى حمام الشاطئ وراح الطفلان يعدوان إلى مظلة النافذة ويحدثان فى عاشقين لم يزالا هناك يتواعدان ويتأوهان . نهض العاشقان فى احتجاج صامت ومضيا ببطء بعيدًا عن المكان . سيطر الطفلان على الخيمة وذهبت مدام پونتليه لكى تلحق بهما .

طلبت مدام راتجنول من روبرت أن يصحبها إلى البيت ، كانت تشكو من تشنج فى أطرافها وتيس فى مفاصلها . اتكأت على ذراعه وكاد يجرها جرًا وهما يمشيان .

- ٨ -

قالت له وهى تخطو معه نحو البيت :

- اعمل فى معروفاً يا روبرت .

كانت خطواتهما بطيئة . وكانت تحديق في وجهه وهى تتكىء على ذراعه تحت ظل الشمسية الذى احتواهما معاً والتى أرسلها فوق رأسيهما . قال لها وهو ينظر فى عينيها اللتين امتلأتا بالتفكير والأسئلة .

- تحت أمرك ، معروف واحد لا يكفى ، مستعد لأكثر من معروف .

- لا ، معروف واحد فحسب هو أن تدع مدام پونتليه وشأنها .

هتف وهو يغالب ضحكة صبيانية مفاجئة :

- أوه ، يبدو أن مدام راتجنول غيورة !

- هراء ! أنا أعنى ما أقول فعلاً : دع مدام پونتليه وشأنها .

سألها بعد أن بدأ يأخذ الأمر مأخذ الجد أمام إلحاح صاحبه .
- لماذا ؟

- لأنها ليست مثلنا ، قد ترتكب الخطأ الفادح وتأخذ تصرفاتك مأخذ الجد .

تورد وجهه ضيقاً ، ويعد أن خلع قبعته الناعمة أخذ يضربها بصبر نافذ على ركبتيه أثناء المشى ، ثم قال لها بحدة :

- ولماذا لا ينبغى أن تأخذ تصرفاتى مأخذ الجد ؟ أترينى ممثلاً كوميدياً أو مهرجاً ، أو عفريت علبة ، أو شيئاً من هذا القليل ؟! لماذا لا يجب أن تأخذنى مأخذ الجد ؟! أنتم معشر

الكرولين لا يحسن الصبر عليكم ! لماذا تنظرون إلى كمشهد في برنامج مسل ؟! أتمنى أن تأخذ مدام بونتليه تصرفاتي مأخذ الجد . أتمنى أن يكون لديها من الذكاء ما يجعلها تجد في شيئاً بجانب التهريج . لو كنت أعتقد أن هناك أدنى شك . . .

ولكنها صاحت به ردًا على غضبته العنيفة :

- أوه ، كفى يا روبرت : أنت لا تفكر فيما تقول . إنك تطلق نفسك في الحديث مثلما يفعل الأطفال الذين يلعبون على رمال الشاطئ . لو كان اهتمامك بأية من النسوة المتزوجات هنا محل شك منا لما كنت الآن ذلك الرجل المهذب الذي نعرفه جميعًا ، ولما كنت موضع ثقة بنات ونساء الناس هنا .

تحدثت مدام راتجنول بما تعتقد أنه الحق والمنطق . وهز الشاب منكبيه بنفاد صبر ، وقال وهو يضع قبعته على رأسه من جديد :

- أوه ، حسنًا ! ليس الأمر كما تظنين ، عليك أن تعرفي أن مثل هذه الأمور لا يقال للأصدقاء .

- وهل تعتقد أن علاقتنا يجب أن تقتصر على تبادل التحيات فحسب ؟ عجبًا !

واستمر يقول دون اكتراث :

- لا يحسن أن تخبرني به امرأة .

ولكنه توقف فجأة ثم قال :

- ثم إنى لست مثل أرويين ، هل تذكرين ألسى أرويين وقصته مع زوجة المستشار فى ييلوكسى ؟

وقص عليها قصة السيد أرويين وزوجة المستشار؛ وقصة أخرى عن مغنى الأوبرا الفرنسية الذى تلقى رسائل لم تكتب؛ وقصص أخرى جادة ومضحكة حتى نسيت مدام پونتليه واحتمال أن تأخذ حديث الشباب مأخذ الجد . وعندما وصلا إلى كوخها دخلت مدام راتجنول لتخلد إلى الراحة ، وقبل أن يغادرها طلب روبرت منها العفو لحدثه ، أو كما أسماها وقاحته التى قابل بها نصيحتها التى جاءت بسبب حسن نيتها . قال لها وهو يدارى ابتسامة خفيفة :

- لقد ارتكبت خطأ واحدًا يا أديل ، وهو أن مدام پونتليه لن تأخذ تصرفاتى مأخذ الجد أبدًا . كان يجب أن تحذرينى من أن آخذ نفسى مأخذ الجد ، كانت نصيحتك حيثئذ مستحق التأمل والتفكير . إلى اللقاء ، ولكنك تبدين مرهقة .
ثم أضاف :

- هل تريدن كأسًا من المرق ؟ هل أعد لك بعض عصير النخيل ؟ دعينى أخلط عصير النخيل مع قطرة من لحاء الشجر . ووافقت على اقتراح المرق الذى كانت تحبه . وذهب إلى المطبخ الذى كان يقع وراء الحمام بعيدًا عن الشاليهات . أحضر لها المرق فى كأس من الخزف الفرنسى الأنيق مع رقائق من

البسكويت الناشف الهش . دفعت بذراعها الأبيض من خلف الستارة التي كانت تحمى بابها المفتوح ، وتلقت الكأس من يديه وأخبرته بالفرنسية أنه كان مهذبًا . وكانت تعنى ما تقول . وشكرها روبرت وقفل راجعًا إلى بيته .

كان العاشقان يهمان بدخول البنسيون يتكئ كل منهما على الآخر مثل أشجار البلوط المائي التي تلامس فروعها الشاطئ . لم يشعرأ بخطواتهما من نشوة العشق التي مالت برأسيهما وكأنهما يدوسان بأقدامهما على السماء الزرقاء . بدت السيدة التي كانت ترتدى الملابس السوداء وتزحف خلفهما شاحبة متعبة . لا علامة على وجود مدام پونتلييه والطفلين . قدر روبرت المسافة التي يمكن أن تفصل بينه وبينهم . سيقيان بعيدًا حتى ساعة العشاء على أحسن تقدير . صعد الشاب إلى حجرة أمه على قمة البيت ، حجرة مبنية من زوايا غريبة وسقف منحدر على نحو شاذ . لها نافذتان واسعتان ناتئتان تطلان على الخليج . كانت قطع الأثاث فى الحجرة بعيدة عن الترتيب ولكنها عملية . كانت مدام لبرن مكبة على آلة الخياطة التي جلست أسفلها زنجية تدير يديها مدوس الآلة . كانت الكريولية مهتمة بالحفاظ على صحتها .

وسار روبرت حتى أجلس نفسه على عتبة نافذة السقف المائل . أخرج من جيبه كتابًا وشرع يقرأ بحماس ، عرفنا ذلك من الدقة والسرعة التي كان يقلب بها الصفحات . أحدثت ماكينة

الخيطة قعقة مدوية فى الحجرة ، كانت من طراز قديم ثقيل .
وبين اللحظات التى تتوقف أثناءها الآلة كان روبرت وأمه يتبادلان
نقماً من محادثة متقطعة .

- أين مدام پونتلييه ؟

- هناك ، على الشاطئ ، مع الطفلين .

- وعدتها بأن أسلفها رواية لچوننورت . لا تنس أن تأخذها
معك عندما تذهب ، إنها هناك على رف الكتب على المنضدة
الصغيرة . (عندئذ علا صوت قعقة الماكينة لخمس دقائق
أخرى) .

- إلى أين ذهب فكتور بالعربة ؟

- العربة ؟ فكتور ؟

- نعم ، رأيته هناك أمام البيت يستعد على ما يبدو للذهاب
إلى مكان ما ؟

- ناد عليه . (قعقة الماكينة مرة أخرى ، ولكن روبرت
صاح بأعلى صوته صيحة حادة أشبه بالصفير لابد من أنها وصلت
الجالسين على الشاطئ) .

- لن ينظر نحونا .

هرعت مدام لبرن إلى النافذة وهتفت بأعلى صوتها على
فكتور مرتين وهى تلوح بمنديلها . ولكن الشاب كان قد ركب
العربة وحث حصانه على الانطلاق . عادت مدام لبرن إلى

الماينة وقد احمر وجهها من شدة الضيق . كان فكتور هو ابنها الأصغر وأخا روبرت . شاب متهور يميل إلى العنف مع إرادة لا يشيها الفأس .

حينما تقولين شيئاً سوف أقنعه به بكل الحجج الممكنة .
- لو كان أبوك ما زال حيّاً بيننا ! (قعقة ، قعقة ، قعقة ،
ثم توقف) .

كانت مدام لبرن تعتقد اعتقاداً راسخاً أن شأن الكون كله وكل ما يتصل به كانت ستصبح أكثر دقة ونظاماً لو لم يغادر السيد لبرن الدنيا إلى عوالم أخرى فى السنوات الأولى من حياتهما الزوجية .
- ماذا سمعت من مونتل ؟

كان مونتل رجلاً نبيلًا فى منتصف العمر ، كل طموحه فى هذه الحياة خلال السنوات العشرين الماضية هو أن يملأ الفراغ الذى تركه رحيل السيد لبرن . (قعقة ، قعقة ، ضربة مدوية ، قعقة !) .

- عندى خطاب هنا .

ويحث فى درج الماينة وأخرجت الخطاب من قاع سلة أدوات الخياطة . يقول إنه يريد أن يخبرك بأنه سيكون فى فيراكروز فى بداية الشهر القادم . (قعقة ، قعقة) إذا كنت تنوى للحاق به . (ضربة مدوية ! قعقة ، قعقة ، ضربة !) .

- ولماذا لم تخبريني من قبل يا أمي ؟ أنت تعرفين أني أريد .. (قعقة ، قعقة ا)

- هل ترى مدام بوتليه ومعها الطفلين ؟ سوف تتأخر على الغداء ثانية ، إنها لا تجهز نفسها للغداء إلا في اللحظة الأخيرة (قعقة ، قعقة) إلى أين أنت ذاهب ؟
- أين الجونكورت ؟

- ٩ -

كانت الأضواء تحيل الصالة إلى نهار ، اصطفت المصابيح على الحائط كل على مسافة من الآخر حول الحجرة ؛ أضىء كل مصباح إلى أقصى طاقته دون ظهور لدخان أو خوف من انفجار ، ازدادت المسافات بينها بأفرع جميلة قدت من أغصان أشجار البرتقال والليمون ، يتلألأ اخضرارها الغامق على نسيم الستائر البيضاء التي تحجب الشمس والتي تتجدد وتتدلى برفق مع هبوب النسمات العفية القادمة من الخليج .

كانت الليلة ليلة السبت بعد بضعة أسابيع من تلك المحادثة الحميمية التي دارت بين روبرت و مدام راتجنول عند عودتهما من الشاطئ . حشد من الأزواج والآباء والأصحاب جاءوا لقضاء عطلة الأحد ، سعداء بعائلاتهم معهم ، لا تفضن عليهم مدام لبرن بالمساعدة المادية . وُضعت الموائد في ركن واحد من الحجرة ، ورُصت المقاعد في صفوف وحلقات . استقرت كل أسرة على

مقاعدھا المخصصة ، وشرع أفرادھا يتبادلون أطراف القيل والقال ولم يزل المساء فى مستهله . استعد الجميع للاسترخاء والتحرر من كل توتر . اتسعت دائرة الإفضاءات واتسمت الحوارات بطابع شامل . أذن للصغار بالسهر إلى ما بعد الوقت المحدد لنومهم . منهم من كان يرقد على بطنه على أرضية الحجرة ويتطلع إلى الصفحات الملونة فى جريدة هازلة فى يد السيد پونتليه . كان ذلك تحت سمع وبصر طفلى پونتليه اللذين راحا يلوحان بسلطانهما عن كذب .

كان الضرب على الآلات الموسيقية والرقص وتلاوة الأشعار مرة أو مرتين هى كل مصادر التسلية فى تلك الليلة ، لم يكن هناك تنظيم مقصود أو علامة على ترتيب سابق أو تفكير فى ذلك . فى بداية السهرة ألح القوم على توءمى فاريقال بالضرب على البيانو . كانتا أختين فى الرابعة من عمرهما ترتديان ملابس العذراء على الدوام ، اللون الأزرق بجوار اللون الأبيض ؛ لأنهما عقدتا العزم على خدمة العذراء منذ يوم عمادهما . ضربتا لحناً ثنائياً من الزامبا وتحت إلحاح الحضور أعقبته بمقدمة أوبرا «الشاعر والفلاح» .

« ابتعد عن هنا بالله عليك ! » صاح الطائر المحاكى الذى كان يمتلك من الصراحة ما يجعله يقول إن هذه الألحان العذبة قد سمعها قبل ذلك كثيراً خلال الصيف . استشاط السيد فاريقال - جد التوءمين - غضباً من صياح الطائر وأصر على إقصائه عن

المكان بعيداً فى ركن مظلم . كان فكتور هو المعترض الوحيد وهو الوحيد الذى كانت أوامره تنفذ وكأنها الأقدار . ولحسن الحظ لم تصدر من الطائر أية مقاطعة أخرى خلال الحفل ؛ لقد نفذ جميع حنقه الذى حمله فى صدره حين صب غضبه على التوأمين فى ثورته العنيفة الماضية .

وبعد ذلك ألقى شاب وأخته أشعاراً كان الحضور قد سمعوها أيضاً مرات كثيرة فى أماسى الشتاء فى المدينة .

ثم قامت فتاة صغيرة ترقص رقصة شرقية وسط الحضور بينما راحت الأم تعينها على ذلك بالعزف وتراقب ابتها بإعجاب شديد وخوف مشوب بقلق دون سبب معلوم . كانت الفتاة سيدة الموقف ، ارتدت أحسن الملابس للمناسبة ، ثوباً حريراً ضيقاً من التول الأسود الرقيق الذى انحسر عن رقبتها الصغيرة وذراعيها الجميلتين وشعرها الذى يقف أشبه بزغب أسود فوق رأسها . كانت حركات جسدها الرشيق تقطر ملاحه ، وكانت مقدمة حذائها الأسود تنتقلان فى حركات رشيقة إلى أمام وفوق بسرعة مباغته تذهب العقول .

لم يكن هناك ما يدعو لأن يمتنع الجميع عن الرقص . لم تستطع مدام راتجنول أن ترقص ، لكنها وافقت بكل سرور على العزف . كان عزفها رائعاً لا سيما فى تقديرها للمسافات الزمنية للفالس . كانت توحى للأوتار بالحن عذبة وتملاً البيت بالآلات

الموسيقية من أجل الأطفال كما تقول و كانت هي وزوجها يقولان
إن الآلات الموسيقية تضيف على البيت جمالاً وتجعله جذاباً .

رقص الجميع تقريباً فيما عدا التوأمين ، لم يفرهما أحد بأن
ترك واحدة منهما الأخرى أثناء الوقفات القصيرة لتدور الحجرة
بين ذراعى رجل . كان يمكنهما أن يرقصا معاً أيضاً ولكنهما لم
يفعلا .

أرسل الأطفال بعد انقضاء الحفل إلى أسرهم ، ذهب
بعضهم دون مقاومة ، وذهب آخرون بعد صياح واحتجاج بينما
كانوا يُجرون جراً . لقد سمح الآباء بالسهر حتى بعد توزيع الآيس
كريم ، الذى كان علامة على انتهاء اللهو .

دار الخدم بالآيس كريم والكعك الذى أخذ لوناً ذهبياً ورُتب
على أطباق فى شرائح متعانقة . قامت على صنعه وتجميده
زنجيتان فى المطبخ ساعة العصر تحت إشراف فكتور . وكان
الرأى أنه ممتاز مع حاجته إلى بعض الفانيليا ومقدار قليل من
السكر ، وكذلك إلى بعض البرودة الإضافية وعدم وجود ضرورة
لإضافة الملح . ولكن فكتور كان تياهاً بما صنع ، وراح يحث
الناس على التهامه ويشرح المقادير لمن يريد أن يحذو حذوه .

وبعد أن رقصت مدام بونتليه مرتين مع زوجها ، ومرة مع
روبرت ، ومرة مع السيد راتجنول الذى كان طويل القامة نحيف
الجسم مما جعله يتمايل أثناء الرقص مثل عود من الخيزران تضربه

الرياح ، ذهبت إلى الشرفة وجلست على عتبة نافذتها حيث كان في وسعها أن ترى كل ما يحدث في الصالة وتتفرج في الوقت نفسه على مياه الخليج . كان الشرق متألقاً بقدوم القمر الذي نشر أشعته الذهبية على صفحة الخليج والكائنات ، مرسلأ أضواءه الساطعة على المياه البعيدة التي لا تمل الحركة .

لحق بها روبرت في الشرفة وسألها :

- هل تودين سماع الآنسة ريز وهي تعزف ؟

الحق أن إدنا كانت تحب سماع الآنسة ريز وهي تعزف ولكنها كانت تخشى أن تتوسل إليها دون جدوى . ولكن روبرت قال لها :

- سوف أطلب منها ، سوف أخبرها بأنك تريدين سماع عزفها ، إنها تحبك ولن ترفض .

واستدار وأسرع إلى أحد الشاليهات القريبة حيث كانت الآنسة ريز تروح وتجيء دون هدف على ما يبدو ، تمسك بمقعد تجره خارج حجرتها ، وتحتج بين الحين والآخر على صراخ طفل تحاول مربية في الشاليه المجاور أن ترسله إلى مخدعه . كانت امرأة سيئة الطبع قليلة الجسم غادرها الشباب منذ زمن ، ميالة إلى العراك لم يسلم من لسانها أحد ، ذات مزاج حاد أناني ونزعة عدوانية لا تأبه بحقوق الآخرين . أما روبرت فقد كان يغلبها على أمرها دون صعوبة تذكر .

دخلت معه الصلاة أثناء التوقف المؤقت للموسيقى والرقص .
انحنى لدى دخولها بطريقة متعالية وخاطفة أثارت سخط
الحضور . هيئتها بسيطة ووجهها شاحب صغير وجسمها نحيف
وعيناها لامعتان . لاحظ لها من ذوق فى اختيار ملابسها ، تضع
على عاتقها خليطاً فجاً من أشرطة الزينة عتيقة الطراز مع مجموعة
من نباتات البنفسج الاصطناعية ثبتت بدبوس على جانب من
شعرها .

سألت روبرت :

- لماذا لا تسأل مدام بونتلييه عما تحب أن أعزف لها ؟
وجلست إلى البيانو صامته دون حراك ودون أن تمتد أصابعها
إلى المفاتيح بينما حمل روبرت رسالتها إلى إدنا عند النافذة .
انتاب الجميع لدى دخول العازفة شعور بالدهشة والارتياح
الحقيقيين . ساد الهدوء وشاع جو من الترقب والحذر . أحست
إدنا بقليل من الارتباك لأن العازفة المتغطرة قد خصتها دون
غيرها بهذه المعاملة . ولم تجرؤ على أن تختار ، ورجت الآنسة
أن تختار ما ترى فذلك يرجع إلى ذوقها الطيب .

كانت إدنا تحب الموسيقى حباً جماً . أثارت الألحان فى
روحها خليطاً من الذكريات . كانت كثيراً ما تجلس فى الحجرة
كل صباح عندما كانت مدام راتجنول تعزف أو تتمرن على
العزف . أحد القطع الموسيقية التى كانت تعزفها المدام على

الدوام سميتها إدنا «العزلة» . كان لحنًا حزيناَ تعلوه كآبة . كان اسم اللحن شيئًا مختلفًا ولكن إدنا سمته «العزلة» . عندما سمعته تخيلت رجلًا يقف إلى جوار صخرة منعزلة على الشاطئ ، عاريًا تمامًا مستسلمًا بآسًا فيما كان ينظر إلى طائر بعيد يطير بعيدًا عنه .

لحن آخر كان يجعلها تستحضر صورة امرأة في أول الشباب ترتدى ثوبًا ملكيًا وتسير بخطوات راقصة رشيقة في شارع كبير بين سياج من شجيرات كثيفة . ومقطوعة أخرى كانت تذكرها بأطفال يلعبون ، وأخرى لا تذكرها بشيء غير سيدة رزينة تلاطف قطه .

وما إن جلست الآنسة ريز إلى البيانو ولامست مفاتيحه حتى سرت في جسد مدام بونتليه رعشة فرحة أحست بها في عمودها الفقرى . لم تكن المرة الأولى التى ترى فيها فنانًا يجلس إلى البيانو ويعزف عليه . ربما هى المرة الأولى التى كانت فيها مستعدة بكل وجدانها وآذانها لسماع الموسيقى ، ربما كانت تلك هى المرة الأولى التى تجد فيها كيانها كله مستعدًا للإذعان للحقيقة السرمدية . انتظرت قدوم الصور المادية التى ظنت أنها سوف تحتشد أمام عينيها مخضبة ببريق الخيال . انتظرت دون جدوى .

لم تر أية صور للعزلة أو للأمل ، للحنين أو لليأس . ولكن هذه العواطف جميعًا كانت تغازل روحها بنشوة مسكرة ملحة مثل أمواج تضرب جسدها الرائع دون هواده . ارتجفت ، اختنقت ببكاء النشوة ، تعلقت الدموع بعينيها وحجبت عنها الرؤية .

وعندما فرغت الآنسة من عزفها نهضت وانحنى على طريقتهما

المتشامخة وغادرت الصالة دون أن تأبه بتصفيق المعجبين وعبارات
الامتنان التي راح يطلقها الحضور . ولكنها وضعت يداً حانية على
عاتق إدنا عند مرورها بها وسألتها :

- حسناً ، هل أعجبك عزفى ؟

ولم تكن المدام الشابة قادرة على الإجابة ، فقد تعلقت
الكلمات بحلقها وأمسكت بيد الفنانة بيد متشنجة . ولاحظت
الآنسة حالتها ودموعها التي تعلقت بأهدابها فمدت لها يدها
الحانية مرة أخرى تربت على عاتقها وقالت :

- أنت من تستحقين العزف له هنا . هؤلاء الآخرون !

يا إلهي !

ومضت تراقب خطواتها وتتجنب الصدام ميممة شطر الصالة
إلى حجرتها .

ولكنها لم تكن على صواب في رأيها في الآخرين ، فقد
سرى سحر الألحان في وجدان الجميع الذين راحوا يهتفون :
« يا لها من عاطفة ! يا لها من عازفة ! » ومن يقول : « لقد قلت إنه
ما من أحد يستطيع أن يعزف موسيقا تشوبان مثل الآنسة ريز ! »
ومن يقول : « تلك المقدمة الموسيقية ! يا إلهي ! لقد هزت
كيانى كله ! » .

كان الليل قد قارب على الانتهاء ، وداعبت الحضور فكرة
الانصراف . ولكن ربما كان روبرت هو الذى فكر فى الذهاب إلى

المياه مرة أخرى فى تلك الساعة الساحرة وعلى مرأى من ضوء القمر الخلاب .

- ١٠ -

لقد اقترح روبرت هذا الاقتراح على أية حال ، ولم يسمع صوت احتجاج . لم يرفض أحد من بين الحاضرين أن يتبعه إلى الشاطئ . أرشد الناس إلى الطريق ولكنه لم يكن أمامهم ، تلكأ حتى أصبح خلفهم بين العشاق الذين أبدوا استعدادًا للتخلف . مشى بينهم دون أن يدرك أحد مقصده .

كانت أسرتا پونتليه وراتجنول يمشون فى الأمام؛ النساء يتكئتن على أذرع أزواجهن . كانت أذنا إدنا تلتقط صوت روبرت الذى يمشى خلفهم ، وأحيانًا كانت تسمع ما كان يقول . تساءلت لم لم يلحق بهم ؟ مثله لا يفعل ذلك . تذكرت حين كان يغيب عن ناظرها يومًا كاملاً ، ليزداد شوقه شوقًا ، حتى إذا ما تم اللقاء يجد حلاوة فى تعويض ما فات . تآقت إليه خلال الأيام التى غاب فيها لأمر ما مثلما يتوق المرء للشمس فى يوم غائم دون أن يفكر كثيرًا فى الشمس حين تسطع .

كان الناس يسرون فى جماعات صوب الشاطئ يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون ، وقليل منهم يرفع عقيرته بالغناء . ترامى إلى أسماعهم صوت الألحان الصادرة من فندق كلن؛ صوت فاتر يأتى من بعيد . وانتهت إلى أنوفهم رائحة غريبة قادمة

من الشاطئ ، رائحة أعشاب بحرية ورطوبية ، أو رائحة أرض
حديثة العهد بالحرث ، مختلطة بعبير غيطان الزهور البيضاء تحيط
بهم من كل جانب . وكان الليل قد بدأ يفقد سلطانه على البر
والبحر . وبدأت جحافل الظلام تتعلم أشلاءها الباقية من ظلال
واهنة . وبدأت أضواء القمر البيضاء تغزو العالم كأحلام الليل
ورقته .

وطئت أقدامهم المياه ، مشوا فوقها كأنهم يمشون على شيء
لا تمله الأقدام . البحر الآن في هدوئه العذب ، ترتفع أمواجه
في كسل تذبذب الواحدة في الأخرى بعيدًا قبل أن تصل إلى
الشاطئ على هيئة فقاعات رغوية تلوى راجعة أشبه بحبات بطيئة
بيضاء .

لقد حاولت إدنا مرارًا أن تتعلم العوم طوال الصيف .
استقبلت النصائح من الرجال والنساء على السواء ؛ وأحيانًا من
الأطفال . أما روبرت فقد ساعدها بعدد وافر من الدروس التي لم
تنفع وأسلمته في نهاية المطاف إلى ياس كامل من حالتها .
يستولى عليها فزع لا سبيل إلى رده حين تحملها المياه ، فزع يكاد
يقتلها حتى تحس بأن يدا تمتد إليها ، يداً قريّة تطمئننها .

لكن إدنا كانت تلك الليلة مثل طفل يترنح ويتعثر ويتشبث
عندما أحس فجأة بقواه العضلية تعينه على المشي لأول مرة في
حياته ، بثقة بنفسه ودون مساعدة من أحد . أحست بأنها تريد أن

تصرخ من شدة الفرح . لقد صرخت فعلاً من شدة الفرح ؛ فقد رفعت جسدها فوق المياه بحركة أو حركتين من ذراعيها .

استولى عليها إحساس غامر بالسعادة ، وكأنها أعطيت قوة هائلة ملكت بها جسدها وروحها . وازدادت جرأة وتهوراً ، وبدأت تغالى فى تقدير قوتها . أرادت أن تسبح إلى أبعد مما يطمح غيرها من النساء . كان إنجازها غير المتوقع سبب دهشة الجميع وتصفيقهم وإعجابهم . هناها الجميع ، وكل هنا نفسه ظناً منه أن دروسه هى التى أفضت إلى تلك النتيجة المرجوة .

قالت فى سرها : « ياله من أمر سهل ! إنه لا شئ » ثم قالت بصوت عال : « لم أكتشف قبل الآن أن الأمر سهل للغاية . إنى أفكر الآن فى الوقت الذى قضيته أرش الماء على نفسى كالأطفال ! » لن تشارك أصحابها الآن فى لعبهم ومبارياتهم ، أسكرتها نشوة النصر على المياه ، شرعت تسبح وحدها .

اتجهت بكل كيائها صوب البحر لتملاً ناظريها من الفراغ وتؤنس الروح بإحساس طارئ بالعزلة . يحمل إليها امتداد المياه اللانهائى خيلاً لذيذاً حين يلقي السماء التى أضاءها القمر ثم لا يلبث أن يذوب . بدت فى سباحتها على مقربة من المطلق الذى كان يهددها بالفقد . مرة واحدة نظرت خلفها وألقت نظرة على الشاطئ ، نحو الناس الذين تركتهم هناك . لم تقطع مسافة كبيرة - أى ما يمكن أن يعتبر مسافة كبيرة بالنسبة لسباحة خيرة -

ولكن المسافة كانت كبيرة فى نظرها ، هى التى لم تعد امتداد المياه خلفها دون معين . أحست بالموت قريباً منها ، أصابها رعب أذهل عقلها وأضعف تفكيرها ، ولكنها استجمعت قواها المضطربة واستطاعت أن تسترد اليأس من جديد .

لم تذكر لزوجها تفاصيل تلك التجربة وقربها من الموت والرعب الذى قابلته فى المياه ، لم تزد على أن قالت له : « ظننت أنى سأهلك هناك وحدى » . ولم يزد هو على أن أجابها باقتضاب : « لم تكونى بعيدة جداً يا عزيزتى » . وذهبت إدنا بعدها إلى حمام الشاطئ وارتدت ملابسها واستعدت للعودة إلى بيتها قبل أن يترك الآخرون المياه . وحين شرعت تمضى وحدها أسرع الجميع بالنداء عليها ولكنها لوحت لهم بيد محتجة ومضت فى طريقها لا تأبه بصياحهم المتكرر .

قالت مدام لبرن التى كانت تستمتع بالمياه وخشيت أن يكون رحيل مدام پونتليه المفاجئ سبباً فى التعجيل بنهاية هذه المتعة :
- أحياناً أظن أن مدام پونتليه سيدة متقلبة .

ووافقها السيد پونتليه قائلاً :

- أجل إنها كذلك ، أحياناً وليس كثيراً .

لم تكذب إدنا تتجاوز ربع المسافة إلى البيت حتى أدركها روبرت على حين غفلة . سأله دون أن تظهر ضيقاً أو تبرماً :
- أوظنت أنى كنت خائفة بالفعل ؟

- لا ؛ كنت أعرف أنك لم تكونى خائفة .
- إذن ما الذى جعلك تلحق بى ؟ لماذا لم تبق فى مكانك مع الآخرين ؟

- لم أفكر فى ذلك قط .

- لم تفكر فى ماذا ؟

- فى أى شىء . ما الفرق ؟

- أنا متعبة جدًا .

- أعرف أنك متعبة .

- أنت لا تعرف شيئًا . ولماذا تعرف ؟ لم أكن منهكة القوى فى حياتى كما أنا الآن . ولكن الأمر ليس بالسيئ كلية . ألف إحساس انتابنى الليلة . لم أفهم أغلب تلك الأحاسيس . لا تفكر فيما أقول ؛ أنا أفكر بصوت عال وحسب . إنى أسأل نفسى هل ستثيرنى أية موسيقا كما أثار شهجونى عزف الأنسة ريز الليلة ؟! هل ستمر ليلة أشبه بالليلة الفاتئة فى حياتى بعد ذلك ؟! إنها ليلة مرت كالحلم . كان الناس حولى غرباء ، كائنات نصف بشرية . لا بد من أن هناك أرواحًا كانت تهيم حولنا الليلة .

عندئذ همس روبرت :

- هناك أرواح ، ألا تعرفين أن اليوم هو الثامن والعشرون من أغسطس ؟

- الثامن والعشرون من أغسطس ؟

- أجل فى منتصف ليلة الثامن والعشرين من أغسطس ، حين يكون القمر بدرًا ينهض الشيخ ، الذى مكث فى هذه الشواطئ قرونًا ، ينهض من الخليج ، وبرؤيته الثابتة يبحث عن جسد فان ليسكنه بعض الوقت من أجساد الآدميين الذين يراهم يستحقون الارتفاع ساعات إلى عوالم السماء القريبة . لقد انتهى مسعاه بلا طائل وعاد مخيب الآمال إلى مياه البحر . ولكنه اليوم وجد مدام بونتلبيه وأقسم ألا ينجيها من سحره . وربما لن تعاني مرة أخرى من آدمى أن يظا ظل وجودها المقدس .

- لا تمزح الآن .

أحست بضيق لما ظنته عدم احترام من جانبه . لم يلحظ تضرعها ، ولكن طبقة صوتها الرقيق المغم بالشفقة كان أشبه باللوم . لم يستطع أن يفسر لها شيئًا ؛ لم يخبرها بأنه أحس بما تعانيه ، وأنه فهم كل شيء . لم يتفوه بكلمة غير أنه مد لها ذراعه ، ولم يترك لها الإرهاق فرصة للتراجع . لقد كانت تسير بمفردها بذراعيها المتدليتين إلى جنبيها فى تعب واضح ، تاركة تنورتها البيضاء تلامس الطريق الندى . أخذت ذراعه ولكنها لم تتكى عليها . تركت يدها ترقد فى كسل فى يده وكأن أفكارها كانت هناك فى مكان آخر تسبق جسدها ، وتجاهد فى أن تلتحق بها .

أعانها روبرت على الصعود إلى الأرجوحة الشبكية التى كانت

تتدلى بين عمود وجزع شجرة أمام الباب . سألها :

- هل ستنتظرين السيد پونتليه هنا ؟

- أجل سوف أنتظره هنا . تصبح على خير .

- هل أحضر لك وسادة ؟

أجابت وهي تبحث عن الوسادة فى الظلام الجزئى :

- توجد واحدة هنا .

- ربما اتسخت من التراب ، فالأطفال يلقونها على الأرض .

- لا يهم .

وعندما وجدت الوسادة وضعتها تحت رأسها ، وتمددت على المقعد الهزاز وهي تأخذ نفسًا عميقًا . لم تكن إدنا سيدة متعالية أو صعبة الإرضاء . لم تكن ميالة إلى أن تضطجع على المقعد الهزاز ، وعندما فعلت ذلك لم يكن سعيًا للراحة الحسية ولكن ترضية لحاجة للاسترخاء بدت أنها تغزو جسدها كله . سألها روبرت وقد أجلس نفسه على حافة درجة من درجات السلم وأمسك بأحد حبال الأرجوحة الذى كان يثبت بالعمود :

- هل انتظر معك حتى يأتى السيد پونتليه ؟

- إذا كانت هذه رغبتك . لا تحرك المقعد الهزاز . هل

تتكرم وتحضر لى الشال الأبيض الذى تركته على عتبة النافذة فى البيت ؟

- هل تحسین بالبرد ؟

- لا ؛ ولكنى سأحس بالبرد قريباً .

قال وهو يضحك :

- قريباً ؟ أتعرفين كم الساعة الآن ؟ كم من الوقت سوف

تنتظرين هنا خارج البيت ؟

- لا أعرف . هل تحضر لى الشال إذا تكرمت ؟

- طبعاً سأحضره .

ونهض روبرت من مكانه ومضى إلى البيت ليحضر لها الشال وهو يطأ العشب بقدميه وهى تراقب شبحه بينما يجتاز قطع الظلام تارة ويقع الأرض التى أضاءها القمر تارة أخرى . كان الوقت قد جاوز منتصف الليل ، وكان الهدوء قد بسط سلطانه على الكائنات .

وعندما عاد بالشال أخذته وأبقته فى يدها . لم تضعه حول جسدها .

- هل قلت إنه يمكننى أن أبقى حتى يعود السيد پونتلييه ؟

- قلت إنك تستطيع إذا كانت هذه رغبتك .

أجلس نفسه مرة أخرة ولف سيجارة وشرع يدخلها فى هدوء شديد . لم تتحدث مدام پونتلييه معه فى شىء . كان الصمت أبلغ من الكلمات ولو كثرت ، لم تكن الكلمات مهما كثرت تعبر عن إحساسها الأول بالرغبة أكثر من الصمت الذى لفهما فى جوف الليل . وعندما اقتربت أصوات المصطافين حياها روبرت

وانصرف . لم تجبه . وظن أنها نامت . ولكنها راحت من جديد
ترقب شبحة وهو يتقل بين ضوء القمر وعتمة الليل ذاهباً إلى
بيته .

- ١١ -

قال لها زوجها بعد أن فوجئ بها ترقد على المقعد الهزاز .
- ماذا تفعلين هنا يا إدنا ؟ ظننتك ذهبت إلى فراشك .
- ولكن زوجته لم تجبه ، وعندئذ سألها وهو يقترب من
وجهها :

- هل أنت نائمة ؟

- قالت له بينما كانت عيناها تلمع ببريق قوى دون أن تحمل
علامة على نوم وهما تنظران إليه :
- لا .

- هل تعرفين أن الساعة تجاوزت الواحدة ؟! تعالى .
- صعد الدرج ودخل حجرتها . ولكنه ناداها بعد ذلك من
داخل البيت بعد لحظات :

- إدنا !

- أجابته :

- لا تنتظرني .

قال لها بصوت مشوب بغضب :

- ستصاين بالبرد ، ما الذى يحمك على هذا ؟ لماذا لا تدخلين ؟

- ليس بالبرد الذى يخيف . ومعى شالى .

- الحشرات سوف تبتلعك .

- لا توجد حشرات .

سمعت وقع أقدامه وهو يتحرك داخل الحجرة . كانت حركاته تشى بنفاد صبر وغضب . فى الماضى كانت تدعن لرغبته بسرعة مدفوعة فى ذلك بعادة تأصلت فى طبعها ، لا بحكم الخضوع أو الطاعة لرغباته التى لا ترد ، بل لأن الاستجابة لرغباته أصبحت شيئاً تفعله دون أن تفكر فيه كالمشى والحركة والجلوس وأداء روتين الحياة اليومية المقسومة لكل حى منا . أعاد عليها السؤال بنبرة مشوبة بالحنان مفعمة بالتوسل :

- إدنا ، حبيبتى ، هل ستطول إقامتك خارج البيت ؟

ثم لم يلبث أن قال :

- لا تكونى حمقاء إلى هذا الحد لن أسمح لك بالمكث

خارج البيت هكذا طوال الليل ، تعالى هنا فوراً .

اعتذلت فى جلستها على المقعد الهزاز ، أحست بأنها ازدادت تصميمًا على تصميم ، وعنادًا على عناد ، وجنوحًا للمقاومة لا يرده شيء . رجعت بذاكرتها لتذكر هل كان زوجها يخاطبها فى الماضى بهذه اللهجة الآمرة ، وهل كانت تدعن

لأوامره؟! الحق أنه كان يخاطبها بهذه اللهجة وكانت هى تدعن دون اعتراض ، إنها تذكر ذلك جيدًا ، ولكنها لا تذكر الأسباب التى دعتهإلى أن تدعن لرغبات زوجها إذعائًا ، ولم تكن تذكر كيف كان إحساسها فى تلك الأيام التى خلت . أجابته بنبرة مسيطرة :

- ليونس اذهب أنت ونم ، فأنا أنوى أن أجلس هنا بعض الوقت ، لا أرغب فى الذهاب إلى النوم الآن ، ولا أنوى ذلك ، ولا تتحدث معى بهذه اللهجة مرة أخرى ، فلن أرد عليك .

استعد السيد پونتليه للنوم ، ولكنه فضل أن يجلس بعض الوقت ويشرب كأسًا من زجاجة يحتفظ بها فى الصوان الخاص به فى السفرة . فرغ من كأسه وحمل كأسًا آخر وذهب به إلى الشرفة وقدمه لزوجته التى لم تأبه به . رفع قدميه من فوق السور وعاد إلى الحجرة وشرع يدخن سيجارة . دخن سيجارتين ؛ ثم غاب داخل الحجرة وشرع يحتسى كأسًا آخر من النبيذ . رفضت مدام پونتليه مرة أخرى أن تقبل كأسًا آخر قدمه لها . أجلس السيد پونتليه نفسه مرة أخرى على مقعده وبعد مدة ليست بالقصيرة شرع يدخن مرة أخرى .

بدأت إدنا تحس كمن يستيقظ بالتدريج من حلم . حلم لذيق ، غريب ، مدهش ؛ لتحسس حقائق العالم المادى التى تأخذ بخناق روحها . وما لبثت الرغبة فى النوم أن غزت جسدها

كله ، وما لبثت أن اجتاحتها قوة روحية وافرة تركتها مفعمة بالسرور مستسلمة لأحوالها الراهنة .

وحانت أكثر ساعات الليل سكوتًا ، الساعات التى تسبق الفجر ، عندما يبدو العالم وكأنه يحبس أنفاسه . كان القمر قريبًا من الأفق وقد تحول لونه من الفضى إلى النحاسى على صفحة السماء المستسلمة للكرى . أحجمت البومة العجوز عن النعيب ، وتوقفت أشجار البلوط المائى عن الأنين وهى ترسل أغصانها . نهضت إدنا وهى تشعر بغصة من طول الرقاد على المقعد الهزاز . صعدت الدرج مترنحة من كثرة الإعياء ، عبثت بعمود وهى تكاد تنهار قبل أن تدلف إلى البيت . تحولت بوجهها إلى زوجها وقالت :

- هل تأتى الآن يا ليونس ؟

- نعم يا حبيبتى . بعد أن أنتهى من السجارة .

كان يجيب من خلال سحب الدخان التى تخرج من فمه .

- ١٢ -

لم تستطع النوم إلا لسوياعات قلائل . سوياعات مليئة بالتعب مفعمة بالانفعال ، عكرت صفوها أحلام تعارض الواقع . استولت على جوارحها وأحاسيسها نصف المتيقظة هواجس مكتنفة بالغموض تركتها نهبًا لرغبة فى تحقيق غايات لا سبيل إلى تحقيقها . استقبلت أول ساعات الصباح الباردة بنشاط غير

معهود . قامت من سريرها وارتدت ملابسها . أشاعت برودة الصبح فى جسدها حماسًا لم تألفه ، ومنحتها قوة على قوة . على أنها لم تكن تبحث عن لحظات انتعاش أو تلتمس عونًا من أى مصدر للعون . كانت مذعنة لنداء داخلى ، لنوازع داخلية لا تعرف لها كنهًا ، وكأنها ألفت بنفسها بين أيدٍ غريبة تدير أحوالها المضطربة ، وكأنها نفضت يديها من كل مسئولية أو التزام .

كان الصبح فى أوله والناس ما فتؤا مذعنين لسلطان النوم . قلة منهم أفسد وقع أقدامهم صمت الفجر فى سعيهم إلى تشنير لحضور القداس . بعض العشاق الذين بيتوا النية للذهاب إلى الشاطئ تسمع الآن همهماتهم ومشيههم فى الشارع . سيدة ترتدى ملابس سوداء تمسك فى يدها بكتاب صلوات الأحد ذى الغلاف المخملى ، وتحصى حبات مسبحتها ، ليست بعيدة عنهم . استيقظ السيد فاريقال العجوز أيضًا فاتر الحماس . وضع قبعته المصنوعة من القش على رأسه وتناول مظلته من مشجبها فى الصالة وشرع يقتفى أثر السيدة التى ترتدى الأسود دون أن يلحق بها .

كانت الفتاة الزنجية التى تعتنى بماكينة خياطة مدام لبرن تكنس الشرفات شاردة الذهن . أرسلتها إدنا لإيقاظ روبرت . - قولى له إننى ذاهبة إلى تشنير ، قولى له أن يسرع .

ولم يلبث أن لحق بها . لم ترسل فى طلبه من قبل . لم يحدث أن سألت عنه من قبل . لم يحدث أن كانت فى حاجة إليه

قبل اليوم . أرسلت فى طلبه دون أن تظهر أنها أتت أمرًا جلا .
ولكن وجهه كان مخضبًا بوهج هادئ عند المقابلة .

عادا إلى المطبخ لكى يحتسبا كوبًا من القهوة . لم يكن هناك وقت يكفى لأن يعرض الواحد منهما خدماته على الآخر . توقفا خارج نافذة المطبخ وانتظرا النادل حتى أعطاهما كأسى القهوة وقطعة من الكيك ، راحا يشريان ويأكلان على عتبة النافذة . قالت إدنا إن طعم الكيك لذيد ، لم تكن تفكر فى القهوة ولا فى أى شيء . أخبرها بأنه قال لها قبل الآن إنها فى حاجة إلى الحذر .

قالت وهى تضحك :

- ألا يكفى أنى فكرت فى الذهاب إلى تشنير ، والاستيقاظ ، هل أنا مضطرة إلى التفكير فى كل شيء كما يقول ليونس عندما يكون معكر المزاج ؟ أنا لا ألومه ؛ فهو لا يخرج عن صوابه إلا من أجلى . لم يكونا يتبعان طريقًا مستقيمًا أثناء سيرهما على الرمال ، وعلى مسافة ليست بعيدة أبصرا الموكب اللافت الذى يمضى نحو الشاطئ - العاشقان يتداعى الواحد منهما على عاتق الآخر فى زحفهما نحو البحر ، والسيدة التى ترتدى الأسود تحاول اللحاق بهما ، والسيد فارىقال العجوز ، يمشى الهوينى ويحصى خطواته ، وفتاة إسبانية فى ميعة الصبا تمشى عارية القدمين وتضع على رأسها منديلا أحمر وسله تتدلى من يدها تتوقف بين الحين والآخر خلف القافلة .

كان روبرت يعرف الفتاة وكان قد تحدث إليها ذات يوم في قارب . لم يفهم أحد من الحاضرين ما كانا يقولانه . كان اسمها ماركويتا ، وكانت ماركويتا ذات وجه مستدير فاتن التقاطيع ، وعينين جميلتين سوداوين وكانت يداها صغيرتين وقد طوتهما طوال الوقت على سلتها ، وكانت قدماها عريضتين خشتين . لم تجهد نفسها في إخفائهما . نظرت إدنا إلى قدميها ولاحظت الطين الذي يملأ بين أصابعها البنية اللون .

تذمر بودليت لأنه رأى ماركويتا هناك تحتل حيزًا كبيرًا . والواقع أن الذي ضايقه هو رؤية السيد فاريقال العجوز الذي كان يعتبر نفسه بحارًا أفضل من بودليت . ولكنه لا يصح أن يتشاجر مع رجل مسن مثل فاريقال ، ولذا حول شجاره إلى ماركويتا . كانت الفتاة مثيرة للمشاكل من أول دقيقة وراحت تشكوه لروبرت ، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى الشتائم وهي ترفع رأسها وتخفضها وعينها على روبرت وفمها يسب بودليت .

كان العاشقان بمفردهما . لم يريا شيئًا ، لم يسمعا شيئًا . كانت السيدة التي ترتدى السواد تحصى حبات مسبحتها للمرة الثالثة . تحدث السيد فاريقال الهرم دون انقطاع عن خبرته في طريقة عمل القوارب ، ما يعرفه ولا يعرفه بودليت .

أعجب إدنا المشهد ، تفحصت ماركويتا بنظراتها ، مرت بعينيها على أصابعها القبيحة الملطخة بالطين ، ثم ألقت نظرة على

عينيها الجميلتين السوداوين . سألت الفتاة روبرت : لماذا تحديق
فني هكذا؟ فأجابها روبرت : لعلها معجبة بك ، دعيني
أسألها .

- لا ، هل هي حبيبتك ؟

- إنها سيدة متزوجة ، ولديها طفلان .

- أوه ، لقد هرب فرانثيسكو بزوجة سيلفانو التي كان لديها

أربعة أطفال . أخذوا كل أمواله وواحد من أطفاله وسرقا

قاربه .

- كفى عن الكلام !

- هل هي تفهم كلامنا ؟

- قلت لك اسكتي .

- هل العاشقان هناك متزوجان ؟ أراهما يتكئان كل على

الآخر .

قال روبرت وقد غلبه الضحك :

- لا ، طبعًا .

عندئذ قالت الفتاة وهي تقرع رأسها :

- لا ، طبعًا !

كانت الشمس قد اعتلت السماء وبدأت ترسل حرارتها إلى
كائنات الأرض أحست إدنا بلسعاتها تستقر في مسام وجهها
ويديها بفعل النسيم العليل . أرسل روبرت مظلته على رأسها

ليدفع عنها غائلة الحر . وأثناء سيرهما الموارد في المياه انتفضت
أشعة القارب بفعل الرياح التي ملأتها . وضحك السيد فاريغال
متهكمًا وهو ينظر إلى الأشعة . وكان بودليت يسب الرجل
المسن همسًا حتى لا يسمعه .

عندما كانت إدنا في القارب تعبر الخليج إلى تشنيركامينادا
أحست كأن يدا تحملها بعيدًا عن مرفأها الآمن الذي طالما
استقرت فيه . أحست بمن يطيح بحباله التي تشده إلى الشاطئ .
لم يتوقف روبرت عن الكلام ، لم يعد يأبه بماركوتا التي كانت
تحمل سلتها الخيزرانية المليئة بأسماك الروبيان التي غطتها
الطحالب الإسبانية . راحت تضرب الطحالب بنفاد صبر وتدنن
بصوت هامس في حزن . قال روبرت في صوت خفيض :

- لنذهب إلى جراندير غدًا ؟

- وماذا نفعل هناك ؟

- نتسلق التل إلى القلعة القديمة ونفترج على الشعبان التي
تتلوى على الرمال ، ونشاهد السحالي وهي تتشمس .

تحولت إدنا بنظرها إلى جراندير وفكرت في رغبتها في أن
تكون وحدها مع روبرت هناك تحتمي بالشمس وتصفى إلى خير
مياه المحيط وتشاهد السحالي بمنظرها المنفر وهي تتلوى
وتتصور جوعًا في دخولها وخروجها بين أطلال القلعة القديمة .
مضى روبرت يقول :

- وفى اليوم التالى أو الذى يليه قد نبحر إلى بايو بيرلو .
- وماذا نفعل هناك أيضًا ؟
- أى شىء ، نبحث عن طعم الأسماك .
- لا ، سوف نعود إلى جراندير ، دع السمك فى حاله .
- قال : سوف نذهب إلى المكان الذى تريدته ، سأستدعى
تونى لكى يصلح القارب ويجهزه . لن نحتاج إلى بودليت فى
شىء ولا إلى أى أحد . هل تخافين ركوب الزورق ؟
- أوه ، لا .
- إذن سأخذك مرة فى زورق ، فى ليلة يكون فيها القمر
ساطعًا . ربما همست لك الروح التى تسكن الخليج وتذلك على
الكنوز المخبأة فى تلك الجزر ، أو تذلك على المكان بالضبط ،
ربما .
- ضحكت وهى تقول :
- ونصبح أغنياء بين يوم وليلة ! سوف أعطى كل شىء لك ،
ذهب القراصنة وكل شىء من أى كنز نستطيع الوصول إليه . أظن
أنك تعرف كيف تنفقه . ذهب القراصنة ليس شيئًا عاديًا يمكن أن
تدخره أو تستغله . إنه شىء يجب أن تبدده وتلقى به فى وجه
الرياح الأربيع ، المتعة فى أن تشاهد حبات الكنز تطير فى الهواء .
- سوف نتقاسم كل شىء ، وننفق كل شىء معًا .
- توهج وجهه باحمرار طارئ جعل قسماته تمتلئ بالحياة .

خفا للذهاب إلى كنيسة قوطية صغيرة قديمة الطراز تدعى « سيدتنا سيدة لورديز » تتألق بلون بنى يختلط بالأصفر وطلاء يلمع فى ضوء الشمس .

تخلف عنهما بودليت الذى كان يشغل نفسه بإصلاح قاربه ، وكانت ماركويتا تمضى بسلتها الممتلئة بأسماء الروبيان ، ترمق روبرت بنظرة عتاب وحزن من طرف عينيها .

- ١٣ -

استحوذ على إدنا شعور بالحزن يختلط بميل إلى النعاس أثناء القداس . بدأت تحس بصداع فى الرأس سبب لها القلق ، وبدأت أضواء المذبح تتأرجح أمام عينيها . فى مثل هذه الحالات كانت تبذل الجهد لكى تستعيد سكينتها ، بيد أن الرغبة فى التخلص من جو الكنيسة الخانق والخروج إلى الهواء الطلق كان همها الأوحد . نهضت من مكانها واعتذرت له بعد أن داست على قدمه وهى تهم بالخروج . نهض السيد فاريقال من مكانه يهم أن يتبعها مدفوعاً بالفضول ، وعندما وجد أن روبرت قد سبقه عاد من حيث أتى ، وغاص فى مقعده من جديد . أراد أن يحدث السيدة التى كانت ترتدى السواد وتجلس إلى جواره ، ولكنها لم تعره انتباهاً ولم تجبه ، بيد أنها أبقت على عينيها مثبتتين على صفحات كتاب الصلوات ذى الغلاف المخملى .

رفعت إدنا يدها على نحو عفوى ووضعتها على رأسها

ودفعت بقبعتها المصنوعة من القش بعيدًا عن جبينها وقالت
لروبرت :

- شعرت بدوخة وكدت أسقط على الأرض . لم أستطع
الجلوس حتى نهاية الصلوات .

أصبحت خارج الكنيسة يحتميان بظلها بعيدًا عن أضواء
المكان . بدا روبرت وكأنه يحمل همًا مقيمًا . أمسك بذراع إدنا
ومضى بها وهو يجول في وجهها بنظرات قلقة متتابعة وهو يقول :
- كان الخطأ خطأك من البداية عندما ذهبت إلى هناك ،
ناهيك عن البقاء . تعالى نجلس عند مدام أنتوان ولسوف تشعرين
بالراحة هناك .

كان الصمت يشمل المكان ما خلا همسات المياه القادمة من
البحر ترسلها إلى عيدان القصب التي نمت في البرك القريبة التي
غمرتها المياه المالحة . صف طويل من المنازل التي ذهب
طلاؤها بسبب غلواء الطقس كان يستقر بسلام بين أحضان أشجار
البرتقال القائمة . قالت إدنا في نفسها إن هذا اليوم لا بد من أنه يوم
مشهود في حياة هذه الجزيرة النائية النائية . توقعًا برهة يستندان
على سور متهالك صنعه ركام البحر يطلبان ماءً رأيا شابًا أكاديًا^(٣)
منطلق الوجه كان يسحب الماء من صهريج صدئ مفتوح في أحد
جوانبه . لم يكن الماء البارد الذي أخذه من الشاب طيب
المذاق ، بل كانت برودته تكفي لدفع غائلة الحر وكفى ، وقد

كانت بالفعل سببًا فى إنعاشها وردها إلى الحياة من جديد .

كانت مدام أنتوان تقطن فى منزل صغير يقع على طرف من أطراف القرية . رحبت بهما جريًا على عادة الريفيين فى الترحاب وحسن الوفادة ، بينما تفتح باب بيتها لتسمح بدخول ضوء الشمس . كانت ضخمة الجسم ثقيلة الحركات بطيئة الخطوات . لم تكن تعرف الإنجليزية ولكن عندما أفهمها روبرت أن السيدة التى كانت فى معيته مريضة وتحتاج قسطًا من الراحة هبت لتهدئتها وطمأنتها وأوحت لها بأن تشعر وكأنها فى بيتها .

كان البيت نظيفًا إلى أبعد حد ، وكان السرير كبيرًا ذا أعمدة أربعة ثلجى اللون يقف فى طرف فى حجرة جانبية تطل على مرجة كثيفة العشب بجوار سقيفة . على تلك المرجة يرقد قارب تالف مقلوب على ظهره .

لم تذهب مدام أنتوان إلى الصلاة . ابنها تونك هو الذى ذهب ، وكانت تتوقع أن يعود مبكرًا ، دعت روبرت لانتظاره ، غير أن روبرت فضل الجلوس خارج البيت وتدخين سيجارة . غابت مدام أنتوان داخل المطبخ لتعد الغداء . كانت تسلق قطعًا من أسماك البورى على جمرات متقدات فى الموقد .

كانت إدنا پونتليه تجلس وحدها فى الحجرة الجانبية الصغيرة وقد تحررت من أغلب ملابسها . غسلت وجهها ورقبتها وذراعيها فى الحوض الملىء بالماء الذى كان يقع بين النافذتين . تخلصت

من حذائها وجوربها وتهافتت على السرير الأبيض المرتفع . ياله من نعيم أحست به حين أراحت جسدها المرهق على ذلك السرير الغريب وقد حمل النسيم بعطر أزهار الغار ليتردد رياه بين المرتبة والملاءات ! مدت ساقها الممتلئين وسعت بأصابعها بين جدائل شعرها المرسل فترة من الزمان . أمعنت النظر فى ذراعيها الناعمتين ، وهى ترفع وأحدا لتحك به الآخر ، وكأنها كانت تراهما لأول مرة فى حياتها . شغلت نفسها بنعومة جلدها وتاهت فى فرط جماله ولكن يديها لم تلبث أن استقرت على رأسها وأذعنت لسultan النوم الذى لا راد لسultanه . داعب النوم جفניה فى البداية فكانت تعى ما يحدث حولها . استطاعت أن تسمع وقع أقدام مدام أنتوان الثقيلة وهى تغدو وتروح على أرض المطبخ التى تكسوها الرمال .

واستطاعت أن تسمع قرقرة الدجاج القادمة من خارج النوافذ تفتش عن الحصباء بين الأعشاب . وكان صوت روبرت وهو يحدث تونك تحت السقيفة يغازل أذنيها فى المنطقة القائمة بين اليقظة والنام . ورغم ذلك لم تضطرب أو تنشط ، بل ثقل جفناها وأغمضت عينيها وبدا النوم يقهر تلك الأصوات شيئاً فشيئاً . صوت تونك البطيء وهو يتشدق بالكلام على الطريقة الأكادية ، وصوت روبرت وهو يرسل الألفاظ الفرنسية ناعمة متدفقة . لم تكن تفهم الفرنسية حق الفهم إلا إذا كانت واضحة

صريحة وبطيئة هادئة . لم تكن تلك الأصوات غير جزء من الأصوات الناعسة التي طفقت تدغدغ أحاسيسها وترسلها إلى نوم عميق .

وعندما استيقظت إدنا ظنت أنها لبثت في نومها يوماً أو بعض يوم . فقد سكنت الأصوات تحت السقيفة ، ولم تعد تسمع وقع أقدام مدام أنتوان في الحجرة المجاورة . وحتى الدجاجات عمدت إلى مكان آخر بعيد لتقرر فيه وتبحث عن الحب والحصى . لاحظت أن ستارة قد أرسلت عليها حتى تدفع عنها عدوان البعوض ، أرسلتها مدام أنتوان بعد أن تسللت إلى حجرتها وهي غارقة في نومها الثمين . نهضت إدنا من نومها متاقلة ، وغادرت الفراش في تودة لتتظر فيما بين الستائر المعلقة على النافذة . كان روبرت يقف هناك تحت السقيفة يتكئ على ظهر القارب المقلوب . كان يقرأ في كتاب ، ولم يكن تونك في صحبته . اختلست إليه النظر مرتين أو ثلاث بينما كانت تغسل وجهها ويديها في مياه الحوض الواقع بين النافذتين .

استعانت إدنا بمشقة من المناشف النظيفة التي كانت مدام أنتوان تضعها على مقعد قريب ، ووضعت لمسة من مسحوق الوجه ، الذي وجدته في علبة صغيرة في متناول يدها ، على أنفها ووجنتيها بينما كانت تحديق في وجهها في المرأة الصغيرة المحطمة التي علقتها مدام أنتوان على الحائط فوق الحوض .

كانت عيناها تشعان بالصفاء والبهجة وكان وجهها منطلقاً يتوهج بالعافية ، لقد اكتملت يقظتها .

وعندما فرغت من زيتنها دلفت إلى الحجرة المجاورة . كان الجوع قد قرصها وكان المنزل خالياً .

رأت منضدة مغطاة بقطعة من القماش مستندة إلى الحائط وعليها رغيف ناشف أسمر اللون وزجاجة من الخمرة إلى جانب الطبق . قطعت إدنا لقمة من الرغيف الأسمر بأسنانها القوية البيضاء . وصبت بعضاً من الخمرة فى كأسها واحتسته بسرعة وغادرت المكان فى هدوء . قطفت ثمرة برتقال ناضجة من فرع شجرة يتدلى قريباً من رأسها وقذفت به إلى حيث يجلس روبرت الذى لم يكن يعرف أنها استيقظت من نومها .

تطلق وجهه بالسرور عندما رآها وما لبث أن انضم إليها ليحتفى الاثنان بظل أشجار البرتقال الوارف . سأله :

- ترى كم عامًا لبثت فى النوم ؟ لقد اختلفت الجزيرة عما كانت عليه قبل نومى ، لا بد من أن مخلوقات جديدة حلت محل المخلوقات القديمة ولم يبق إلا أنا وأنت من آثار القدماء . ترى كم عصر مر على وفاة مدام أنتوان ؟ ومتى اختفى أهلنا فى جراندى أيل من على وجه البسيطة ؟

هز منكبيه قليلاً وقال :

- لقد نمت قرنًا كاملاً . لقد تركونى لكى أقوم على حراسة

مهجعك ؟ لبثت قرناً تحت السقيفة أقرأ فى كتاب . الشر الوحيد الذى لم أستطع منعه هو أن أمنع الدجاجة المشوية على النار من أن تجف تمامًا .

قالت إدنا وهى تصحبه إلى البيت :

- إذا لم تكن قد تحولت إلى حجر فسوف أكل منها على أية حال . ولكن أخبرنى ماذا حصل لمدام فاريثال والآخرين ؟
عندئذ قال :

- ذهبوا منذ ساعات . عندما وجدوك نائمة لم يرغبوا فى إيقاظك . على أية حال لم أكن لأسمح لهم . ما فائدة مكثى هنا إذن ؟

- قالت وهى تهتم بالجلوس إلى أحد المناضد :
- سوف يقلق ليونس حتمًا .

فرد روبرت قائلاً وهو يشق طريقه عبر الأوانى المعدنية والأطباق المغطاة التى تركوها حول الموقد :
- لن يقلق لأنه يعرف أنك معى .
عندئذ سأله :

- وأين مدام أنتوان وابنها ؟

- لعلهما ذهبا لصلاة المساء ولزيارة بعض الأصدقاء . أنا مستعد لإعادتك فى قارب تونى عندما ترغيبين .
حرك الجمرات المتقدة تحت الدجاجة حتى بدأت تنثر دهنها

من جديد . وقدم لها الطعام وصب لها كأسًا من القهوة ولنفسه
آخر ، وشرعا يحتسيان . كانت مدام أنتوان قد أعدت طعامًا أكثر
من ذلك ولكن روبرت أتى عليه كله . كان يريد أن يرى كيف تأكل
وكيف تذوق الطعام الذى أعده ولقى مشقة فى إعداده . قالت له
بعد أن فرغت من احتساء كأسها ومسحت كسر الخبز بيديها

- وهل سنذهب إلى هناك الآن ؟

- ولكن الشمس لم تنزل عما كانت عليه منذ ساعتين .

- ستغيب الشمس فى بحر ساعتين .

- دعيها تغب ، لا تهتمى !

لبثا برهة يلفهما الصمت تحت أشجار البرتقال حتى عادت
مدام أنتوان تهادى فى مشيها وتركض أحيانًا ولديها آلاف الأعداء
التي تسوغ غيابها . لم يجرؤ تونك على الرجوع ، كان خجلًا من
مواجهة روبرت وإدنا ، وكان تونك يخجل من مواجهة أية امرأة
ما خلا أمه .

كان الجلوس تحت أشجار البرتقال مصدر بهجتهم الحقيقية
عندما راحت الشمس تلملم أطراف النهار التي تحولت إلى قطع
من النحاس والذهب المتناثرة على صفحة الغروب . بدأت
جحافل الظلام تنشر خيوطها العملاقة بين الأشجار مثل وحوش
جبارة تتربص بالمكان . كانت إدنا ترقد على العشب الطرى ،
وكان روبرت يتمدد إلى جوارها ويتحرش بحاشية ثوبها القطنى
بين الحين والآخر .

تهافتت مدام أنتوان بجسمها الثقيل وكأنها سقطت من مكان مرتفع على أريكة بجوار الباب . لقد ظلت تتحدث منذ الظهر وهي الآن ترى أن تكف عن سرد القصص . يا لها من قصص تلك التي كانت تسردها ! حكّت لهما كيف اضطرت إلى ترك تشنير كامينادا ، وكيف مكثت في هذه الجزيرة تجمع الحكايات وأساطير العجم والبحر . دخلت جحافل الليل في صراع جديد مع الأضواء التي راح القمر يرسلها إلى الأرض . تناهى إلى مسمع إدنا همسات الموتى ورنين القطع الذهبية المكتومة .

وعندما دلفا إلى قارب تونك بشراعه المثلث الأحمر رأت إدنا الأرواح الهائمة على صفحة البحر تطوف بين خيوط متشابكة من الظلمة وبين عيدان القصب القائمة على الشاطئ والسفن الطيفية .

- ١٤ -

قالت مدام راتجنول وهي تسلم الطفل لأمه : إن الولد الصغير إتيان أصبح شقيًا جدًّا ، أصبح يمتنع عن الذهاب إلى فراشه ويسبب مشكلة كلما دعونه إلى ذلك ، في حين لم أقصر في مهادنته والعناية به قدر الطاقة . ولكن راؤول نام في الفراش ساعتين بكاملهما .

كان الصغير في ثوب نومه الأبيض الطويل الذي كان يتعثر فيه عندما كانت مدام راتجنول تمسك بيده لتوصله إلى أمه . راح يدعك بباطن يده الممتلئة عينيه اللتين كانتا مثقلتين بالنوم

والغضب . أخذته إدنا بين ذراعيها وجلست به على الأرجوحة وراحت تعانقه وتلاطفه وتناديه بأحلى الأسماء وأحسنها لكى تغريه بالنوم .

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة ، ولم يذهب أحد إلى الفراش ما خلا الأطفال . قالت مدام راتجنول إن ليونس كان قلقًا فى البداية وأراد أن يستعد فى التو للذهاب إلى تشنير . ولكن السيد فاريقال طمأنه بأن زوجته راحت فى النوم بعد أن نال منها الإعياء ، وأن تونى سوف يعيدها آخر النهار دون مشكلة ، وأنه لذلك ينصحه بالعدول عن رغبته فى عبور الخليج . قالت إنه ذهب إلى منزل كلن يبحث عن سمسار فى بيع الأقطان . كان يريد أن يراه فى شأن سندات ومقايضات وأسهم وعقود وأشياء من هذا القبيل لم تذكرها مدام راتجنول قال إن مكوته لن يطول وقالت إنها هى نفسها كانت تعاني من شدة الحر . لم تستطع البقاء مع إدنا لأن السيد راتجنول كان وحده ، ولم يكن يكره شيئًا كرهه البقاء وحده فى المنزل .

عندما استغرق إتيان فى النوم حملته إدنا إلى الحجرة الخلفية ، أما روبرت فقد حمل إليها ستارة البعوض لكى ترد عن الطفل عدوان البعوض الهائم . وعندما خرجا من البيت قال روبرت لإدنا تصبحين على خير . وقالت وهى تودعه :

- ألا تعلم أننا كنا منذ الصباح فيما عدا القرن الذى كنت فيه نائمة ؟

تصبحين على خير .

رشد على يدها وهو يهيم بالرحيل فى اتجاه الشاطئ . لم يكن أحد فى صحبته وهو يرنو ببصره صوب الخليج .

أما إدنا فقد انتظرت عودة زوجها من خارج البيت . لم يكن لديها رغبة فى النوم أو الراحة ، ولم تكن تشعر برغبة فى الانضمام إلى أسرة راتجنول أو مدام لبرن ولا إلى ذلك الجمع من الناس الذين يجلسون أمام البيت والذين تصادمت أصواتهم العالية مع مياه البحر والأشجار . لقد أطلقت العنان لخيالها يسترجع ما كان من أمر مكوثها فى جراندا أيل ؛ وسعت لاكتشاف وجه الاختلاف بين هذا الصيف وغيره من فصول الصيف الماضية التى مرت بها فى حياتها كلها . كل ما بدأت تدركه هو أنها- نفسها الحاضرة التى بين جنبيها - قد أصبحت مختلفة فى كثير من الوجوه عن السابق . وأنها ترى الأمور الآن بعين مختلفة ، وأنها عرفت أحوالاً جديدة عن ذاتها لونت حياتها بلون آخر .

تعجبت من أن روبرت غادر المكان وتركها . لم يكن يدر بخلدها أن التعب سيصيبه من صحبتها طوال اليوم . لم تحس بأى تعب . والحق أنها لم تكن متعبة بالفعل . ما أسفت له هو أنه تركها إلى مكان آخر . كان غريباً أن يتركها ، لم تطلب منه ذلك ولم يطلبه أحد أيضاً .

وبينما كانت إدنا تنتظر زوجها راحت تغنى بصوت خفيض

بأغنية كان روبرت يغنيها بينما كانا يهمان بعبور الخليج . كانت كلمات الأغنية تبدأ على النحو التالي : « آه لو كنت تعرف » وكان كل بيت من أبياتها ينتهى بتلك الكلمات نفسها . لم يكن صوت روبرت شجياً ولا مدعياً . كان صوتاً صادقاً وحسب ، وكان هذا الصوت ينسجم مع الموسيقى والألحان .

- ١٥ -

عندما دخلت إدنا حجرة الطعام متأخرة ذات مساء كعادتها سمعت وقع أصوات محادثة تجرى على مقربة منها . عدد كبير من الأشخاص يتحدثون دون أن يعطى أحدهم الفرصة لكى يسمع الآخر . ولكن صوت فكتور كان يهيمن حتى على صوت أمه . كانت إدنا قد عادت متأخرة بعد أن عامت فى مياه الخليج وارتدت ملابسها على عجل ، وكان وجهها لم يزل متوهجاً من حرارة الشمس . برز رأسها فوق ثوبها الأبيض أشبه بالزهرة التى لم تحقق نضجاً كاملاً . أخذت مقعدها لدى المائدة بين السيد فاريقال الهرم ومدام راتجنول .

وما إن جلست على مقعدها وشرعت فى تناول حسائنها الذى أعدوه لها لدى دخولها الحجرة حتى أخبرها أكثر من شخص فى صوت واحد بأن روبرت فى طريقه إلى المكسيك . وضعت ملعقتها على المنضدة وجالت ببصرها فيما حولها وقد استولى عليها ارتباك أقرب إلى الذهول . لقد كان معها طوال اليوم ، وكان

يقرأ لها من كتاب كان معه طوال الصباح ، ولم يذكر لها شيئاً عن سفره ، ولم يذكر لها شيئاً عن المكسيك بالذات . لم تره في الظهيرة ، سمعت من يقول إنه في المنزل ، في صحبة أمه في الطابق الثانى . كانت مستغربة لأنه لم يلحق بها بعد ذلك في الظهر وهى فى طريقها إلى الشاطئ .

خصته بنظرة فاحصة وهو على مقعده بجوار مدام لبرن التى كانت تؤم الجلوس . كان وجه إدنا يقطر دهنولاً وحيرة أخفقت قسماته فى إخفائها . رفع حاجبيه بحجة الابتسام بينما كان يرد على نظرتها . كان مرتبكاً وقلقاً . وجهت سؤالها للجالسين جميعاً وكأن روبرت لم يكن موجوداً ليجيب على سؤالها :

- ومتى ينوى الذهاب إلى المكسيك ؟

وجاءتها الإجابات متفرقة بالإنجليزية والفرنسية من الجميع أيضاً وفى وقت واحد .

قالت وقد تملكها العجب :

- مستحيل كيف يفكر شخص فى السفر من جراند أيل إلى

المكسيك فى لحظة وكأنه ذاهب إلى منزل أسرة كلن أو إلى

الميناء أو حتى إلى الشاطئ ؟

عندئذ قال روبرت موضعاً ولكن بنبرة عالية حادة وكأنه يرد

عن نفسه عدوان عدد كبير من الحشرات المهاجمة :

- لقد كنت أقول دائماً إننى ذاهب إلى المكسيك ، قلت

ذلك طوال سنين .

نقرت مدام لبرن على المائدة بمقبض سكينها . وقالت بصوت عال :

- إذا سمحتم دعوا روبرت يشرح لنا فيم ذهابه إلى المكسيك الليلة بالذات ، وإلا أصبحنا أشبه بمن يجلس فى مستشفى للأمراض العقلية ، كلكم تريدون الحديث فى وقت واحد ، أحياناً أتمنى ، وليسامحنى الله ، أن يفقد فكتور القدرة على النطق .

وضحك فكتور بنبرة متهكمة وهو يشكر أمه على هذا الدعاء الصادر عن نفس ورعة ، وقال لها إنه لم ير أثر هذه الرغبة على الحاضرين فيما عدا أنها أتاحت لها الفرصة للحديث عن نفسها برهة .

أما السيد فاريقال فقد قال إن فكتور كان يجب أن يؤخذ إلى منتصف المحيط فى صباه ويفرقونه هناك . ورد فكتور بأن الأفضل والأكثر منطقاً أن يتخلصوا من كبار السن الذين أثبتوا بما فيه الكفاية أنهم موضع نفور العالم . وزادت مدام لبرن حدة وعصبية ؛ أما روبرت فقد أثب أخاه وشمته وقال موجهاً كلامه إلى أمه :

- لا يوجد ما أشرحه على كل حال يا أمى .
ولكنه كان يوجه عينيه إلى إدنا ، وشرح مع ذلك لأمه كيف

أنه ينتظر من يصحبه إلى فيرا كروز لكى يستقل السفينة المبحرة من نيو أورليانز ، وأن بودلت كان سيخرج تلك الليلة بقاربه الملىء بالخضراوات ، الذى أعطاه فرصة للوصول إلى المدينة ويصل إلى سفينته فى الميعاد .

قال له السيد فاريقال مستغربًا :

- ولكن متى حزمت أمرك لكل هذا ؟

أجاب روبرت بنبرة ملؤها الضيق :

- حزمت أمرى بعد ظهر اليوم .

فسأله السيد فاريقال مرة أخرى بإلحاح وإصرار وكأنه يحقق

مع مجرم فى محكمة :

- وفى أى وقت بالضبط بعد ظهر اليوم حزمت أمرك ؟

وأجابه روبرت بصوت عال يشى باستعلاء طارئ ذكر إدنا

بممثل على المسرح يقوم بدور أحد النبلاء :

- فى الرابعة تمامًا بعد عصر اليوم يا سيد فاريقال .

أجبرت نفسها على تناول الحساء كله وشرعت تتناول

شرائح السمك الممزوج بالمرق بشوكة كانت فى يدها .

أما العاشقان فقد استثمرا اللغط حول المكسيك ليخوضا فى

حديث هامس عن أمور يعدانها من صميم خصوصياتهما ولا تهم

أحدًا غيرهما . قالت السيدة التى ترتدى الأسود إنها حصلت ذات

يوم على مسبحتين من المكسيك كانت الصنعة البارعة واضحة

فيهما ، مع صكين من صكوك الغفران التي كانت تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنها لم تستطع أن تعرف هل كان هذا الغفران يتعدى الحدود المكسيكية أم لا ؟ قالت إن الأب فوشيل في الكاتدرائية حاول توضيح هذا الأمر ولكنه لم يبلغ من ذلك ما كان يريده من إقناعها . وتوسلت إلى روبرت أن يشغل نفسه بهذا الأمر وهو في المكسيك ليطمئنها على أن الغفران الذي جلبته مع المسبختين قد شملها هنا أيضًا .

تمنت مدام راتجنول أن يحتاط روبرت في تعامله مع المكسيكيين غاية الحيلة ، فقد كانوا في نظرها خونة لا يؤمن جانبهم ، لا يراعون حرمة ولا يتورعون عن انتقام . وكانت تقول إنها لا تشعر بأنها تظلمهم حين تتهمهم بتلك التهم ، وإنها تعطيهم حقهم كسلالة خبيثة تستحق الازدراء . وقالت إنها عرفت واحدًا من المكسيكيين كان يصنع الأطعمة المكسيكية وبيعها ، ووضعت فيه ثقتها كلها لحلاوة حديثه وعذوبة حضوره وذات يوم قبضت عليه الشرطة لأنه طعن زوجته فأرداها ، وقالت إنها لا تعرف الآن إن كانوا شنقوه أو لم يزل على قيد الحياة .

وتطلق وجه فكتور بنشاط طارئ وشرع يحكى قصة نادرة عن فتاة مكسيكية كانت تقدم الشيكولاتة في أحد المطاعم في شارع دوفين . لم يكن أحد يستمع إليه غير السيد فاريغال الهرم الذي أغرب في الضحك لطرافة القصة وتعجبت إدنا كيف يتحدثون

ويصخبون فى الوقت نفسه . ولم يكن لديها ما تقوله عن المكسيك والمكسيكيين . وجهت سؤالها إلى روبرت :

- ومتى تذهب ؟

فقال لها على الفور :

- الساعة العاشرة ، كان بودليت يريد أن ينتظر حتى يرتفع القمر ويخف الظلام .

- وهل جهزت كل أغراضك ؟

- جاهز تمامًا ، لم يبق إلا أن آخذ حقيبة يدي أما الصندوق الذى أضع فيه ثيابى فسوف أجهزه فى المدينة .

تحول إلى أمه ليجيب عن سؤال سألته ، أما إدنا فقد غادرت المكان بعد أن فرغت من احتساء قهوتها ودخلت حجرتها على الفور . كان الهواء فى الداخل خائفًا بعد أن ترك الشاليه مغلقًا ساعات طوال . وبعد أن قارنت إدنا بينه وبين الهواء خارجه . ولكنها لم تأبه لذلك ؛ فلقد عنت لها عشرات الأمور التى تستحق انتباهها فى الداخل . شرعت تعدل من وضع مزيته بعد أن ابتعدت عن مكانها ، متذمرة من إهمال خادمتها التى كانت فى الحجرة المجاورة ترسل الطفلين إلى النوم . جمعت ثيابها المبعثرة فى أركان الحجرة وعلى ظهور المقاعد ، وضعت كل ثوب فى مكانه المخصص له فى الدولاب أو أحد الأدراج . استبدلت بفستانها إزارًا طويلًا فضفاضًا ومريحًا . أعادت ترتيب

شعرها بالمشط بحماس غير معتاد . ودخلت بعد ذلك حجرة الخادمة وساعدتها فى إرسال الطفلين إلى النوم .

كان الطفلان يتمازحان ويتأهبان للحديث معها . كانا مستعدين لفعل أى شىء ماعدا الذهاب إلى الفراش والاستغراق فى النوم . سمحت إدنا للخادمة بالذهاب لتناول العشاء وقالت لها إنها لا يجب أن تعود . جلست مع طفليها وحكت لهما قصة لعلهما يغبيان فى خيالها وتسلمهم إلى أرض غير الأرض وعالم غير هذا العالم . ولكن القصة أتت ثمارًا غير مرجوة ؟ فقد أيقظت حواسهما وزادت من يقظتهما وحب استطلاعهما لمعرفة النهاية التى قالت الأم إنها لن تخبرهما بها إلا إذا حل ليل الغد .

دخلت عليها الخادمة الصغيرة لكى تخبرها بأن مدام لبرن تريدها تأتى وتجلس معهم فى البيت حتى يرحل السيد روبرت . وقالت لها إذا إنها قد خلعت فستان الخروج وارتدت ملابس النوم ، وإنها لا تشعر بأنها على ما يرام ، ولكنها أخبرتها بأنها قد تذهب فيما بعد . وبدأت إدنا ترتدى لباس الخروج من جديد ، ووصلت إلى حد أن خلعت بنوارها الفضفاض ، ولكنها ما لبثت أن غيرت رأيها وأعادته إلى جسدها وخرجت لتجلس عند الباب . أصبح هياجها رهنا بإشارة من أى شخص ، وطفقت تدفع بالهواء إلى صفحة وجهها بعصبية فترة من الزمان . أقبلت عليها مدام راتجنول لتسألها عن سبب ضيقها .

قالت لها إدنا فى شىء من الضيق :

- لابد من أن المحادثة التى جرت على المنضدة كانت هى السبب فى ضيقى ، بالإضافة إلى أننى لا أحب المفاجآت والصددمات . فكرة رحيل روبرت المفاجئ بهذه الطريقة الدرامية السخيفة ! وكأن الأمر بالنسبة له مسألة حياة أو موت ! لم يقل كلمة واحدة قبل الآن عن هذا الموضوع ، كنا معًا طوال الصباح ولم يقل لى شيئًا .

ووافقتها مدام راتجنول قائلة :

أجل معك حق ، أعتقد أنه بدا وكأنه لم يعرفنا جميعًا أى اعتبار ، وخاصة أنت بالذات . لم يكن يدهشنى لو كان الأمر يخص أحدًا غير روبرت ؛ فأفراد عائلة لبرن مخلوقون للملاحم ولكنى فى الواقع لم أكن أظن أن روبرت يفعل ذلك . هل ستبقين هنا ؟ ألا تريدان الذهاب والجلوس معهم ؟ لا تضخمي الأمور ياعزيزتى ، فقد يتهمونا بأننا لا نحبههم .

قالت إدنا بشىء من الحزن :

- كلا ، لا أحب أن أعود لارتداء ملابسى مرة أخرى . لا أحب ذلك .

- لست فى حاجة إلى ارتداء أى شىء ، كل ما فى الأمر أن تشدى حزامًا على خاصرتك . افعلنى مثلى .
ولكن إدنا أصرت على ألا تذهب وقالت لها :

- لن أذهب ، ولكن اذهبي أنت فإن مدام لبرن قد تتضايق لعدم حضورنا نحن الاثنين .

قبلت مدام راتجنول إدنا وتمنت لها ليلة هائلة ، وتركتها . كانت إدنا تتمنى فى قرارة نفسها أن تشارك الجميع فى هذه المحادثة الودية عن المكسيك والمكسيكيين .
ويعد أن انفض المجلس أقبل روبرت على إدنا وسألها :

- هل تحسين بتعب أو شيء ؟

- لا ، أنا بخير ، هل سترحل الآن ؟

أشعل روبرت عود كبريت ونظر إلى ساعته وقال :

- فى بحر عشرين دقيقة .

ولكن النور المفاجئ الذى أنار المكان لحظة واحدة أكد الظلمة . تهافت على مقعد حمام كان الطفلان قد تركاه فى الشرفة . فقالت له إدنا :

- فلتجلب لك كرسيًا أفضل .

ولكنه قال لها :

- هذا المقعد يكفى .

ووضع قبعته الرقيقة وما لبث أن رفعها من جديد وهو يمسح وجهه بمنديله محتجًا على الحر الشديد وأسرع
إدنا بإحضار المروحة وطلبت منه أن يستخدمها ولكنه قال :

- لا ، أشكرك إنها لا تفيد شيئًا ؛ لأن المرء يتوقف بين لحظة وأخرى عن استخدامها ويعود الأمر كما كان .
- وهذا أمر آخر من الأمور السخيفة التى يتحدث عنها الرجال . لم أسمع من يعجبه استخدام المروحة .
كم ستطول رحلتك ؟
- ربما إلى الأبد ، لا أعرف . يعتمد ذلك على أمور كثيرة .
- يعنى فى حالة إذا لم تكن إلى الأبد ، كم ستطول ؟
- لست أدرى .
- هذا يبدو لى مجاف للعقل والفطرة ولا أقبله . لا أقبل هذا ولا أحبه . لا أفهم غرضك فى الصمت والغموض ، لِمَ لم تخبرنى بنيتك طوال الصباح ؟
- ولبت روبرت صامتًا ، لا يريد أن يدرأ عن نفسه تلك التهم . ولبت هنيهة ثم قال :
- لا أحب أن نفترق وأنت فى حالة غضب . لم أعتد على نفاد صبرك على هذا النحو .
- لا أريد طبعًا أن نفترق وأنا غاضبة منك ، ولكن ألا تفهم ؟ لقد اعتدت على رؤيتك ، على أن تكون بجوارى طوال الوقت ، ولكن تصرفك الآن يبدو بعيدًا عن الود ، إنه تصرف قاس بحق . وأنت لم تقدم لى اعتذارًا عنه على الأقل ، لماذا ؟ لقد كنت أنوى أن نكون معًا

أغلب الوقت ، كنت أقول فى نفسى إننى سوف أسعد
برؤيتك فى المدينة فى الشتاء القادم .
عندئذ قال بسرعة :

- وأنا كذلك ، ربما كان ذلك ما . . .

ولكنه توقف فجأة ونهض وبسط لها يده واستمر يقول :
- الوداع يا عزيزتى مدام بونتلييه ، الوداع . أتمنى - أتمنى
ألا تنسينى بالمرة .

وتشبثت بيده ، تحاول جهدها أن تبقئها فى يدها
وقالت متوسلة :

- أرسل لى عندما تصل إلى هناك . هل ستفعل يا روبرت ؟
- سأفعل . شكرًا لك . مع السلامة .
- أهذا كل ما أمكنك قوله يا روبرت ؟ إن المعارف الجدد
يقولون أشياء أروع من هذه العبارات التى قلتها .
- سأفعل . شكرًا لك . مع السلامة .

كان روبرت قد ودع الجميع الذين كانوا يجلسون معه على
المنضدة . غادر منزل إدنا إلى حيث كان بودليت ينتظره بالحقيبة
على القارب الذى كان مستعدًا للإبحار . مضيا فى الظلمة
الحالكة ، ولم يتناه إلى مسمعيهما إلا صوت بودليت ؛ فلم يتفوه
روبرت بكلمة يحيى بها صاحبه .

طفقت إدنا تعض على ناجذئها تارة ومنديلها تارة أخرى وهى

تحاول العودة إلى منزلها . كانت تحاول الاختفاء حتى عن نفسها
التي بين جنبئها من تلك العاطفة الجياشة التي ركبته واستحوذت
عليها . تعلقت الدموع بعينئها دون أن تنزل على صفحة وجهها .
كانت هذه هى المرة الأولى التي تجرب فيها إدنا عاطفة
الحب التي كانت تلم بها أيام طفولتها وصباها ومراهقتها ثم فيما
بعد وهى امرأة ناضجة . لم يغير ذلك الإحساس من الواقع شيئاً ،
واقع حياتها الحاضرة وما يندر به ذلك من زلزال لا راد له . لم
يكن ماضيها ذا أهمية تذكر ، لم يحمل إليها حكمة تتعلق بها
وتكون عونها عند الملمات . وكان المستقبل غامضاً ملتبساً لم
تحاول أن تسبر غوره أو تفك رموزه . أصبح الحاضر وحده هو
كل ما تملك ؛ يعذبها ذلك الإحساس الذى يملك عليها شعورها
بأنها خسرت ما ظنت أنها ملكته ، بأن القدر لم يمكنها مما كان
سبباً فى وجودها المتقد ، وجودها الذى استيقظ مؤخرًا فى حاجة
إليه .

- ١٦ -

اقتربت الأنسة ريز من إدنا ذات صباح وسألته :

- هل تشاقين كثيرًا لأصحابك الآن ؟

كانت إدنا خارجة لتوها من الشاليه فى طريقها إلى الشاطئ .
قضت جل وقتها فى الماء مبتهجة لتمكنها من فن السباحة الذى
اكتسبته فى النهاية . إن إقامتها فى جرانديل توشك على نهايتها ،

ويتابها الآن شعور بأنها لم تمنح وقتًا للاستمتاع بمصدر متعتها
الأوحد ، بما منحها أجمل لحظاتها . وعندما فاجأتها الأنسة ريز
بتريئة على عائقها وتحديث معها ، أحست إدنا أن الأنسة لم تكن
تشاركها أفكارها ومشاعرها وحسب وإنما كانت تشاركها ذلك
الإحساس الذى ظل يراودها ولا يفارقها .

لقد ذهب روبرت وذهبت معه الرغبة فى أية متعة . فقد كل
شئ لونه وبريقه بل ومعناه . صحيح أن أحوالها ظلت كما هى لم
يمسها تغيير ، ولكن قطعة ثقيلة من سحاب كثيف غشيت وجودها
كله فحجبته . أصبحت أشبه بثوب بهت لونه فلم يعد صالحًا
للارتداء . راحت تبحث عنه فى كل شئ . بحثت عنه فى وجوه
الذين سألهم عنه . كانت تدفعهم للحديث عنه حتى تراه فى
عيونهم وقسمات وجوههم . كانت تذهب كل صباح إلى حجرة
مدام لبرن رغم أنها لم تكن تحب أن تسمع قعقة آلة الخياطة
العتيقة . كانت تجلس بين يدى المدام وتجاذبها أطراف الحديث
عن روبرت بين توقف الآلة وعودتها إلى القعقة من جديد .
وكانت تحدد فى اللوحات والصور الفوتوغرافية المعلقة على
جدران الحجرة ، إلى أن صادفت عيناها ألبوم صور قديم للأسرة
راحت تحدد فيه بعينين فاحصتين وشوق شديد ، وتسأل مدام
لبرن عن تلك الوجوه التى رأتها بين الصفحات لمن تكون .

رأت صورة مدام لبرن مع روبرت وهو طفل رضيع ، كانت

تضعه فى حجرها بوجهه المستدير وقبضة يده التى يسد بها فمه .
لم يبق منه الآن غير عينيه . وتلك صورة أخرى له وهو فى عامه
الخامس ، يرتدى قطعة من القماش ملفوفة حول جسده لفات
عدة ، ويلوح بسوط فى يده مما جعل إدنا تغرق فى الضحك مثلما
ضحكت عندما رأت اللوحة التى رسمت له وهو يرتدى بنطالاً
طويلاً شدت انتباهها صورة أخرى أخذها وهو فى عامه الأول فى
الجامعة ، يبدو فيها جسمه ضامراً ووجهه مكتئباً ، وعيناه تمتلئان
بالتوقد والطموح والأمانى العظام . ولكنها لم تجد له صورة
حديثه . لم تعثر له على صورة تذكرها بالرجل الذى رحل منذ
خمسة أيام تاركاً عالمها خاوياً فقراً من كل شىء . ووجدت مدام
لبرن مبرراً :

- لقد توقف روبرت عن اتخاذ الصور منذ أن وجد أنه
سيدفع ثمنها من مصروفه !

وقالت إنه وجد سبباً آخر أكثر فائدة لإنفاق نقوده وكان لدى
المدام خطاباً من روبرت تركه لها قبل أن يرحل إلى نيو أورليانز
وأرادت إدنا أن ترى الخطاب وطلبت منها مدام لبرن أن تبحث إما
على المنضدة وإما فى دولابه أو ربما وضعه على رف الموقد .
كان الخطاب على رف الكتب . كانت إدنا متلهفة لقراءته ؛
تأملت كل شىء على الظرف ؛ حجمه وشكله ، طابع البريد وخط
اليد . فحصت كل كبيرة وصغيرة على الظرف قبل أن تشرع فى

فتحه . لم يكتب روبرت غير أسطر قليلة يقول فيها إنه سوف يغادر المدينة بعد ظهر اليوم ، وإنه حزم حاجياته بشكل ممتاز ، وإنه بخير ، وإنه يحبها كثيرًا . وطلب منها أن تسلم على الجميع . لم يترك رسالة خاصة لإدنا ، ولكنه قال لأمه فى ملحوظة منفصلة إذا كانت مدام پونتلييه تريد أن تكمل قراءة الكتاب الذى بدأه معها فسوف تجدينه فى حجرته بين كتب أخرى على المنضدة . وأحست إدنا بوخز الغيرة المفاجئ لأنه كتب ذلك لأمه ولم يكتب لها .

كان الجميع يعرفون أن إدنا تتحرق شوقًا لروبرت . حتى زوجها عرف ذلك لدى وصوله فى يوم الأحد الذى تلا سفر روبرت ، أبدى أسفه لها قائلاً :

- وكيف تطيقين الحياة بدونه ؟!

- الحياة كثيرة حقًا بدونه .

قال لها أيضًا إنه رآه فى المدينة ، وعندئذ أمطرته إدنا بوابل من الأسئلة : أين قابلته ؟ فى شارع كاروندليه فى الصباح . جلسنا معًا وشربنا ودخنا السيجار . وفى أى شىء تحدثتما ؟ تحدثنا عن مشروعاته فى المكسيك التى كانت مدام پونتلييه تعرف أنها سوف تنجح . وكيف كان شكله ؟ وكيف كان مزاجه ؟ متماسك أم مرح أم ماذا ؟ كان مرحًا جدًا ، ومهتمًا جدًا برحلته إلى المكسيك ، وهو ما اعتبرته إدنا أمرًا طبيعيًا عند شاب طموح يسعى للحصول على الثروة والمغامرة فى بلد غريب جديد .

طفقت إدنا تدق على الأرض بقدميها بعصبية ، وتساءلت لماذا يصبر الطفلان على اللعب فى الشمس فى حين أنه يجب أن يلعبا تحت الأشجار . ذهبت إليهما وأمرتهما بأن يتعدا عن الشمس ووجهت اللوم للخادمة لعدم اهتمامها وعنايتها بهما .

لم تتبه لغرابة مسلكها لحظة واحدة عندما جعلت من روبرت موضوعاً لحوار طويل مع زوجها الذى راح يحدثها عنه . لم يكن الحب الذى تحمله لروبرت يشبه تلك المودة التى تحملها لزوجها ، لم تحس بهذه العاطفة تجاه أحد من قبل ، ولم تتوقع أن تحملها لأحد فى يوم من الأيام . كانت طوال حياتها تخفى أفكارها وتحفظ بعواطفها ولا تطلع أحداً على سريرة نفسها . لم يحدث أن احتدم الصراع بينها وبين مشاعرها . كانت هذه المشاعر والعواطف ملكاً خالصاً لها تأمرها فتطيع ولا تخص أحداً غيرها . قالت إدنا ذات يوم لمدام راتجنول إن هناك شيئاً فى حياة المرء لا يمكن أن يمنحه حتى لأولاده ولا لأى أحد كائنًا من كان . ودخلت بعد ذلك فى مناقشة حادة مع مدام راتجنول انتهت إلى أن السيدتين عجزتا عن فهم إحداهما الأخرى ، وعجزتا عن أن يتحدثا لغة واحدة . وحاولت إدنا أن تهدئ من ثورة صاحبتها :

- كنت أقصد أننى لن أضحى بالجوهر ؛ سوف يأخذ أولادى كل شئ ، نقودى ، حياتى ، ولكنهم لن يأخذوا نفسى التى بين جنبي . ولا أستطيع أن أوضح أكثر من

ذلك ؟ إن ما أعنيه هو شىء بدأت أفهمه حديثًا ، شىء بدا
يتبدى لى من تلقاء نفسه .

- لا أفهم ماذا تقصدين بالجواهر واللاجوهر . ولكن المرأة
التي تهب حياتها لأبنائها لا تفعل أكثر من ذلك- هكذا
يخبرنا الكتاب المقدس الذى نقرأه كل يوم . حتى أنا لن
أفعل أكثر من ذلك من أجل أولادى .
ولكن إدنا قالت وهى تضحك :
- بل تستطيعين أن تفعلى أكثر من ذلك .

لم تستغرب سؤال الأنسة ريز فى الصباح وهى تربت
على منكبها وتسألها عن مدى شوقها لصاحبها الشاب .
- صباح الخير يا آنسة ريز ؟ أهو أنت ؟ بالطبع أفتقد روبرت
كثيرًا . هل ستنزلين البحر ؟
- ولماذا أنزل البحر فى نهاية الموسم فى حين لم أنزل فى
حر الصيف وفى غياب الأمواج العاتية .
- حسنًا ، أنا آسفة .

وأحست إدنا بالخجل من نفسها ، لأنها تذكرت أن الأنسة
ريز كانت تتجنب المياه لأسباب تخصها . سمعت من الناس أنها
لا تنزل البحر بسبب شعرها المستعار ، أو ضئًا يبشرتها البنفسجية
من أن تبللها المياه ، ولكن آخرين أرجعوا السبب إلى بغض
الفطرى الذى يكتنه الفنانون للمياه لأنها تعكر مزاجهم وتفسد

ملكاتهم الفنية . قدمت الأنسة قطعة من الشيكولاتة لإدنا فى كيس من الورق أخرجته من جيبيها . كانت تريد أن تظهر الود لصاحبتها . كانت تحب الشيكولاتة لقيمتها الغذائية - كما كانت تقول - رغم حجمها الصغير . وذلك يجنبها الموت جوعاً لأنها لم تكن تحب الطعام الذى كانت تقدمه مدام لبرن . لم تر سيدة أكثر جرأة من مدام لبرن ؛ تقدم الطعام للناس وتطلب منهم أن يدفعوا ثمنه . قالت إدنا سعيًا منها لتغيير الموضوع :

- لابد من أنها تشعر بالوحدة بعد سفر ابنها ولا سيما أنه ابنها المفضل لابد من أن الأمر كان صعبًا بالنسبة لها حين ودعها .

وضحكت الأنسة وهى تقول :

- ابنها المفضل ! يا إلهى ! من الذى أقنعتك بهذه القصة السخيفة ! ألين لبرن تعيش من أجل فكتور ، ومن أجل فكتور فحسب . لقد دلتته إلى أن أصبح لا يساوى شيئًا . إنها تعبدته وتعبد الأرض التى يمشى عليها . لقد كان روبرت طبيبًا حين كان يعطى كل ما يكسبه للأسرة ويحتفظ لنفسه بأقل القليل . إنه الابن الذى يجب أن تحبه فعلاً ، أنا نفسى افتقدت المسكين ، يا حبيبتى . كنت أحب أن أراه هنا وهناك - الفرد الوحيد من عائلة لبرن الذى يستحق حفنة ملح . كان يأتى لزيارتي كثيرًا فى المدينة ، وأحب أن

أشاركه اللعب على الدوام . أما فكتور هذا فالشئ أفضل
شئ بالنسبة له . وأنا أستغرب لماذا لم يقتله روبرت منذ
زمن بعيد ! عندئذ انبرت إدنا للدفاع عن روبرت وهى سعيدة
بحديث الأنسة عنه مهما كان ما تقول :
- أعتقد أنه يجب أن يصبر على أخيه .

عندئذ قالت الأنسة :

- أعتقد أنه ضربه بشدة منذ عام أو عامين . كان السبب فتاة
إسبانية كان فكتور يقول إنه يحبها . قابله روبرت ذات يوم
وهو يتحدث مع الفتاة أو يمشى معها أو يستحم معها
أو يحمل عنها سلتها- لا أذكر ماذا ؟ وكان وقحا وجريئا مما
جعل روبرت يضربه ضربة جعلته يعود إلى رشده فترة
طويلة .

سألها إدنا :

- وهل كان اسم الفتاة ماركويتا .
- نعم ماركويتا ، اسمها ماركويتا . لقد نسيت . آه ، لقد
كانت فتاة خبيثة حقًا ، وسيئة ، ماركويتا هذه !

حدثت إدنا الأنسة بنظرة ازدراء وقالت لنفسها إنها لن تستمر
فى الاستماع إلى حقدتها أكثر من ذلك . أحست بكآبة تستحوذ
عليها ، وأحست بأن السعادة تفارقها تمامًا . لم تكن تنوى
الذهاب إلى المياه ، ولكنها ارتدت بذلة السباحة وتركت الأنسة

وحدها جالسة فى ظل خيمة الطفلين . كان الماء يزداد برودة كلما مرت الأيام واقترب الصيف من نهايته . غطست إدنا فى الماء وطفقت تعوم بحماس زادها قوة وإثارة . مكثت فى المياه فترة طويلة ، لا يحدوها أمل كبير فى أن الأنسة ريز سوف تنتظرها إلى ما لا نهاية .

ولكن الأنسة ريز انتظرتها . كانت ودودة طوال رحلة العودة إلى البيت ، ولكن بذلة سباحة إدنا لم تكن تعجبها بالمرّة . تحدثت معها عن الموسيقى . وودت لو كان عند إدنا وقتًا كافيًا لرؤيتها فى المدينة ، وكتبت عنوانها بجزء صغير من قلم رصاص على قصاصة من بطاقة وجدتها فى جيبتها . سألتها إدنا :

- ومتى تسافرين إلى المدينة ؟

- الاثنين القادم ، وأنت ؟

- الأسبوع القادم .

ثم أضافت إدنا :

- لقد كان صيفًا رائعًا ، أليس كذلك يا آنسة ؟

قالت الأنسة ريز وهى تهز منكبيها :

- نعم ، كان يمكن أن يكون رائعًا لولا البعوض وتوؤما فاريقال .

- ١٧ -

كانت أسرة پونتليه تمتلك منزلاً جميلاً فى شارع إسبلاندى

فى نيو أورليانز . كان شاليهاً كبيراً ذا طابقين وشرفة فسيحة وأعمدة أنيقة تحمل سقفه المنحدر . كان المنزل مطلياً بطلاء أبيض يخلب الأبصار . أما المصارع وشيش « النوافذ » فقد طليت بلون أخضر جميل . وأما الفناء فقد كان نظيفاً على الدوام نثرت فى أرجائه الأزهار والنباتات من كل الألوان التى كانت تنبت فى لوزيانا . انتشرت قطع الأثاث فى حجراته دون نقص أو إهمال على الطريقة الكلاسيكية . وعلى الأرض كانت البسط وقطع السجاد ترقد ناعمة تدغدغ الأقدام ، وعلى النوافذ والأبواب انتشرت ستائر الجوخ ناعمة تسر الناظر بألوانها الخلابة . وعلى الجدران تناثرت اللوحات الثمينة التى اختيرت بعناية وذوق . كانت المائدة مزينة بتهاويل من قطع الزجاج المخروط والدمقس والفضة ، مما كان يثير حسد جميع النساء اللاتى كن يأتين لزيارة مدام پونتليه ولم يكن حظ أزواجهن مثل حظ زوجها .

وكان السيد پونتليه يحب أن يتمشى فى أرجاء منزله يتفحص قطع الأثاث وكل شىء ، حتى يتأكد من أن كل شىء على مايرام . كان يحب ممتلكاته ويحب النظر إليها بين الحين والآخر ؛ لأنها ممتلكاته التى لا يشاركه فيها أحد ، ولأنه كان يجترح سعادة فائقة من النظر فى لوحة أوفستان أو ستارة نادرة من الحرير بعد أن يشتريها ويضعها بين مقتنياته المنزلية العزيزة .

وفى أصائل أيام الثلاثاء - وكان يوم الثلاثاء بالذات هو يوم

استقبال مدام پونتلييه لحشد لا بأس به من الزائرين ؟ نساء يجثن فى عرباتهن أو فى الترام ، ومنهن من يأتين مشيًا وقد أغراهن بذلك النسيم العليل وقصر المسافة . و غلام قوقازى يرتدى معطفًا ويحمل صينية صغيرة من الفضة يستقبل فيها بطاقات الدعوة ويسمح للضيوف بالدخول . وخادمة تطوف بالضيوف ترتدى قبة محززة ، تقدم الشراب والقهوة وقطع الشيكولاتة لمن يرغب . و مدام پونتلييه ترتدى فستانًا أنيقًا مخصصًا للاستقبال تقف فى حجرة الصالون طوال الأصيل تستقبل الزوار . كان الرجال يأتون أحيانًا فى المساء مع زوجاتهم .

إنه البرنامج الذى دأبت عليه مدام پونتلييه بدقة مفرطة منذ زواجها منذ ست سنين مضت . فى أمسيات معينة من كل أسبوع كانت تذهب لمشاهدة عروض الأوبرا فى صحبة زوجها .

كان السيد پونتلييه يغادر منزله كل صباح بين التاسعة والعاشرة ، ونادرًا ما كان يعود قبل السادسة والنصف أو السابعة مساءً . كان العشاء يقدم فى السابعة والنصف . وفى إحدى أمسيات يوم من أيام الثلاثاء ، جلس هو وزوجته لدى المائدة ، بعد بضعة أسابيع من عودتهما من جراندى آيل ، ولم يكن على المائدة غيرهما ؛ فقد أمرا الخادمة بأن ترسل الطفلين إلى فراشهما ، فلم تكن تسمع غير وقع أقدامهما بين الحين والآخر وهما يراوغان الخادمة ، وصوت الخادمة الخفيض بين احتجاج وتضرع . لم تكن مدام پونتلييه ترتدى ثوب الاستقبال الذى

اعتادت أن ترتديه فى أيام الثلاثاء . كانت ترتدى ثوبًا عاديًا من هذه الثياب التى ترتديها النساء فى المنازل . لفت ذلك نظر السيد بونتليه وهو يعد الحساء ويسلمه للغلام المنتظر ، سألها :

- هل أنت متعبة يا إدنا ؟ من جاء اليوم ؟ ضيوف كثيرون ؟

أرتشف من حسائه رشفة وشرع يضع عليه بعض الفلفل والملح والثوم وزيت الخردل- كان كل شئ فى متناول يده . أجابته إدنا وهى تتناول حساءها برضى واضح :

- نعم زارنى كثيرون ، وجدت بطاقتهم لدى عودتى إلى المنزل ، كنت خارج البيت .

وهتف زوجها بصوت يشى بشئ من الذعر وهو يعيد إبريق الثوم إلى المائدة ونظر إليها من خلال نظارته :

- خارج البيت ! لماذا ، ما هذا الذى جعلك تخرجين من البيت فى يوم الثلاثاء بالذات ؟ ما هذا الذى اضطررك إلى أن تخرجى ؟

- لا شئ ، أحسبت أننى أريد أن أخرج وخرجت .

قال لها زوجها وهو يتظاهر بالهدوء ويضع بعض الفلفل الحار على حسائه :

- أتمنى أن تكونى قد تركت اعتذارًا معقولاً للناس .

- كلا ، لم أترك أية اعتذارات ، قلت لـجو أن يقول لهم إننى خارج البيت وحسب .

- لماذا يا حبيبتى ؟ أنا أعلم أنك تعرفين أن الناس فى هذه الظروف لا يفعلون ما فعلت ، ونحن نعرف الأصول ؛ فكان يجب أن تتركى للناس تفسيرًا مناسبًا لغيابك عندما أحسست أنك لست على ما يرام ، وأنت مضطرة إلى أن تتركى البيت .

- هذا الحساء غريب حقًا ، أمر غريب ألا تعرف هذه السيدة كيف تصنع حساءً لائقًا إلى الآن ! أى كشك فى المدينة يقدم حساءً أفضل من هذا . هل كانت مدام بلثروب هنا اليوم ؟

- هات الصينية بالبطاقات يا چو لا أتذكر من كان هنا .

وبعد لحظة جاء الغلام يحمل الصينية الفضية الصغيرة التى كانت ممثلة ببطاقات الزيارة وقدمها مدام پونتليه التى أمرته بأن يعطيها للسيد پونتليه . قدمها الغلام للسيد پونتليه وأخذ الحساء ، وراح السيد پونتليه يتفحص أسماء ضيوف زوجته وهو يقرأ بعضًا منها بصوت عال مع بعض التعليقات العارضة .

الآنسات دلسداس ، لقد أبرمت مع أيهم صفقات كثيرة هذا الصباح ، بنات جميلات ، كان يجب أن يتزوجن منذ زمن . مدام بلثروب ، كلمتك عنها الآن يا إدنا ، ولم يكن يجب أن تخذلها على ذلك النحو .

لماذا ؟ لأن بلثروب يمكن أن يبيع ويشترى معنا أكثر من عشر مرات . تجارته تساوى الكثير ، مبلغًا كبيرًا بالنسبة لى . كان

يجب أن تتركى لها اعتذارًا . مدام جيمس هاى كامب ، الأفضل
ألا تأبهى كثيرًا بتلك السيدة . . مدام لافورسيه ، تأتى كل هذه
المسافة من كارلتن ، مسكينة ، سيدة كبيرة فى السن . مدام
وجز ، مدام إلينور .

وعندما دفع بالصينية بعيدًا عنه قالت إدنا متعجبة وقد
استشاطت غضبًا :

- لماذا تأخذ هذا الأمر بكل هذه الجدية وتفتعل مشكلة
كبيرة ؟

- أنا لا أفتعل أية مشاكل . التفاهات فحسب هى التى
نأخذها مأخذ الجد ، هذه الأمور لها أهمية كبيرة .

عندما وضع السمك المشوى لم يمد السيد پونتليه يده
ليصيب منه ، وقالت إدنا إنها لا تحب السمك المشوى . أما
السيد پونتليه فلم تعجبه الطريقة التى قدمت بها الخضراوات
وقال :

- يبدو لى أننا ننفق النقود فى هذا البيت على وجبة واحدة
طوال اليوم ومع ذلك يأكلها المرء على مضض .

قالت إدنا بنبهة تشى بعدم المبالاة :

- كنت تقول دائمًا إن الطباخة كتر ثمين :

- ربما كانت كذلك عندما جاءت فى البداية ، ولكن
الطباخات بشر أيضًا ويحتجن لمن يتنبه إليهن مثل أية فئة

أخرى تستخدمينها . افرضى أننى لا أنتبه للموظفين فى
مكتبى ، وأتركهم يعملون ما يريدون ، سوف يشيعون
الفوضى الرهيبة فى كل شىء ويفسدون على تجارتى .
ولاحظت إدنا أن زوجها يهتم بمغادرة المائدة دون أن
يأكل لقمة واحدة ما خلا مقدار قليل من الحساء الذى
أسرف فى تتييله . قالت له :

- إلى أين ؟

- سأتناول عشائى فى النادى . تصبحين على خير .

وهم بالخروج بعد أن تناول قبعته وعصاه المعلقتين على
الرف . لم تكن مثل تلك المشاهد جديدة عليها . كانت سبباً فى
ضيقها وحرمانها من السعادة . وفى أكثر من مناسبة سابقة فقدت
أية رغبة فى تناول طعامها . وأحياناً كانت تدخل المطبخ لكى
تلقى باللوم على الطباخة . لقد حبست نفسها ذات يوم فى
حجرتها وراحت تقرأ فى كتاب الطبخ طوال مساء كامل ، وفى
النهاية دونت قائمة لطعام الأسبوع كله ، ولم يسبب لها ذلك غير
الضيق من إحساسها بأنها لم تفعل شيئاً ذا بال .

ولكن إدنا أعدت عشاءها بنفسها ذلك المساء بنية مبيتة .
توهج وجهها بالحيوية وتألفت عيناها بانفعال باطنى . بعد أن
فرغت من عشاءها دخلت حجرتها بعد أن أمرت الغلام بأن يخبر
أى ضيوف آخرين بأنها ليست على ما يرام .

كانت حجرة نومها واسعة تتألق بالجمال والأناقة ، وافرة
الاثاث رائعة الألوان تحت الضوء الخافت الذى خفت منه
الخادمة إلى أبعد حد . أقبلت على النافذة وألقت نظرة علوية على
الأشجار المتعانقة فى الحديقة . وقد حشد الليل سحره وفتنته
كلها هناك تحت الأشجار . وعلى مشهد من عطر الأوراق
والأزهار . بأشكالها المتموجة التى أخذت لون الغسق . كانت
إدنا تنشد ذاتها وتجدد نفسها فى هذه الظلمة الجزئية المحببة التى
تناسب حالاتها النفسية . ولكن أصواتاً أقبلت عليها من الظلمة
والسماء والنجوم لم تجلب لها هدوءاً ولا راحة . كانت أصوات
ساخرة هازئة تطلق أنغامها الحزينة خالية من الأمل لا تبشر بخير .
عادت أدراجها إلى حجرتها وراحت تزرع الحجرة جيئة وذهاباً
دون أن تتوقف . كانت تمسك فى يدها منديلاً مزقته وأخذت
تطويه حتى سقط من بين يديها . وعندما توقفت عن المشى
خلعت خاتم زواجها وألقت به على البساط وعندما رأته داسته
بباطن قدمها كأنها تريد أن تسحقه سحقاً ، ولكن كعب حذاءها
الصغير لم يكن فى مقدوره أن يحطم الخاتم ، ولا حتى أن يترك
علامة أو انبعاجاً فى تلك الدائرة الضيقة . وفى ثورة غضبتها
الجامحة أمسكت بأنيّة زجاجية كانت فوق المنضدة وقذفت بها
على أحجار المدفأة . كانت تريد أن تحطم شيئاً . كانت تريد أن
تسمع صوت ارتطام وصدام . دخلت إحدى الخادومات الحجرة
بعد أن سمعت صوت ارتطام الزجاج المكسور لكى تكتشف ماذا

كان الأمر . وقالت لها إدنا : إنها آنية من الزجاج وقعت على أحجار المدفأة ، لا تكثرني ، اتركها حتى الصباح .

- آه ، أخشى أن يدخل نفث الزجاج في قدميك يا سيدتي .

وراحت الخادمة الشابة تلتقط قطع الزجاج التي

تناثرت على السجاد . ثم أردفت :

- وها هو ذا خاتمك يا سيدتي كان على السجادة .

مدت إدنا يدها وأخذت خاتمها وزجت به في إصبعها

من جديد .

- ١٨ -

وفي الصباح التالي سأل السيد بونتليه زوجته وهو يهم بالخروج من البيت قاصداً مكتبه إذا ما كانت تريد أن تقابله في المدينة لكي يبحث عن مثبتات جديدة لأرفف المكتبة فقالت له :

- أظن أننا لا نريد هذه الأشياء الآن يا ليونس . لا نريد في

الواقع أية أشياء جديدة ، إنك مسرف أكثر من اللازم . أنا لا

أصدق أنك تفكر في توفير النقود أو ادخارها .

- أفضل طريق إلى الثراء هو كسب النقود لا توفيرها يا حبيتي .

وأسف لأنه لم يأنس منها رغبة في الذهاب معه إلى المدينة

لتختار الأرفف الجديدة . بادرها بقبلة سريعة ونبهها إلى أن

صحتها ليست على ما يرام وأخبرها بأن تهتم بنفسها . فقد كان

وجهها شاحباً وحركتها قليلة إلى حد لافت .

وعند خروجه من البيت وقفت فى الشرفة الأمامية ، وقطفت دون وعى منها بعض زهرات الياسمين النابتة على تعريشة قريبة . استنشقت عطر الأزهار وقذفت بها فى صدر ثوبها الصباحى الأبيض . كان الصبيان يجران عربة من عربات القطار السريع ويملأنها بالطوب والعصى ، والخادمة فى إثرهما تطاردهما بخطوات مفتعلة ، تتظاهر بحيوية زائفة ونشاط وهمى . وبائع فاكهة ينادى على فاكهته فى الشارع .

كانت إدنا تنظر فى الفراغ وقد علا وجهها تعبير الاستغراق فى التفكير . لم تكن تنتبه لشيء مما حولها . الشارع والأطفال وبائع الفاكهة والأزهار التى نمت على مرمى حجر منها ، جميع الأشياء جزء من العالم الذى أصبح بين يوم وليلة غريباً يقف ضدها .

عادت إلى الداخل وعنّ لها أن تحدث الطباخة فى شأن أخطاء الليلة المنصرمة ، ولكن السيد بونتليه كان قد كفاها هذه المهمة البغيضة التى لم تكن أهلاً لها . كانت طريقته فى الجدل مع مستخدميه أكثر إقناعاً . لقد ترك البيت يخامرهم إحساس بالثقة بأنه سوف يعود فى المساء وربما فى أمسيات كثيرة بعد ذلك ويجلس مع زوجته ويتناولوا العشاء العجيد بهذا الاسم .

لبثت إدنا ساعة أو ساعتين تتفحص بعضاً من رسوماتها القديمة . تستطيع الآن أن ترى عيوبها وأوجه النقص فيها بادية للعيان . همت بإصلاحها ولكن مزاجها لم يسعفها . جمعت بعضاً

من تلك الرسومات وقررت أن تأخذها معها عندما عنّ لها أن ترتدى ثياب الخروج ومغادرة البيت . بدت أنيقة فاتنة فى ملابس الخروج . عاد وجهها الذى لفحته الشمس إلى سيرته الأولى من التألق والإشراق ، وعاد جبينها ينضج بالياض والملاحة فى حضرة شعرها الأصفر الكثيف . لم يتبق على صفحة وجهها غير بقع قليلة من أثر شمس الصيف ، تزينه شامة تقع قريبة من شفتها السفلى وأخرى على الصدغ يغشاها الشعر فلا تكاد تراها العيون .

وفى الشارع كانت إدنا تفكر فى روبرت . كانت لم تزل فريسة لافتنائها الجديد . حاولت نسيانه ؛ لأن التذكر لا طائل من ورائه . ولكن التفكير أصبح هاجسها الذى يصحبها فى اليقظة والمنام . ليس لأنها راحت تجتر كل كبيرة وصغيرة جرت بينهما منذ تعارفا ، وليس لأنها تتذكر الآن كل حركة من حركاته ولكن ما ملك عليها قلبها هو شخصيته ، هى طريقته فى الحياة ، تخبو أحيانا كأنها تريد أن تضيع مع ما يغشاه النسيان ، ثم لا تلبث أن تعود بقوة تغمرها بحنين لا تعرف كنهه .

كانت إدنا فى طريقها إلى منزل مدام راتجنول . توطدت بينهما المودة فى جراند أيل ولم تخبُ .

دأبت كل منهما على رؤية صاحبتها بين الحين والآخر بعد رجوعهما إلى المدينة . لم تكن المسافة بعيدة بين منزل عائلة راتجنول ومنزل إدنا الذى يقع على ناصية شارع جانبي حيث

يملك السيد راتجنول متجرًا لبيع الأدوية التي كانت تجارة رائجة لا تهزها الأزمات . كان والده يشتغل قبله في التجارة نفسها ، وكان السيد راتجنول ذا مكانة عالية في مجتمعه ويتمتع بسمعة طيبة ، يحسده الناس على استقامته وذكائه . تعيش أسرته في شقة واسعة فوق المتجر ، لها مدخل على الجانب تحت مدخل العربات . كانت إدنا تقول : إن ثمة شيئًا فرنسيًا يميز هذه الأسرة عن غيرها من باقي الأسر ، شيء يميز حياتها ويجعلها غريبة عن بيئتنا . ففي الصالون الواسع التنظيف الذي يمتد بطول البيت كله كانت عائلة راتجنول تستقبل ضيوفها وأصدقاءها مرة كل أسبوعين يعزفون المقطوعات الموسيقية أو يلعبون الورق ؛ فصديق يضرب على الجيتار ، وآخر يضرب على العود ، وثالث يعزف على الكمان ، وآخرين يرفعون عقيرتهم بالغناء ، ومجموعة أخرى تعزف على البيانو قطعًا تتراوح بين النشاط والخمول . كانت أمسيات راتجنول الموسيقية معروفة للجميع ، وكان المدعو إليها يعد نفسه من ذوى الحظ العظيم .

وجدت إدنا صديقتها مشغولة في ترتيب الملابس التي عادت من آلة الغسيل ذلك الصباح . ولم تكذ ترى إدنا حتى نهضت تاركة عملها لترحب بضيفتها التي جات على غير ميعاد . قالت لها : « إن سيّتيه تستطيع أن تقوم بالمهمة نفسها ، فهو عملها على أية حال » . ولكن إدنا اعتذرت لها لهذه الزيارة المفاجئة . دعت

راتجنول الخادمة وأمرتها بلغة فرنسية بأن تعتنى بقائمة الملابس التى أعطتها إياها . أخبرتها بأن تبحث بينها عن منديل من الكتان للسيد راتجنول كان قد ضاع منه الأسبوع الفائت ، وأمرتها كذلك بأن تعزل قطع الثياب التى تحتاج إلى رتق أو إصلاح .

وضعت يدها على خاصرة إدنا ومضت بها إلى الصالون الذى كان يعبق بعطر الأزهار التى وضعت فى مزهريات ضخمة قامت إلى جوار المدفأة . كانت مدام راتجنول أكثر جمالاً من سابق عهدها بها ، ترتدى ثوباً منزلياً فضفاضاً انحسر عن ساقها البضيتين وعن رقبة بيضاء أظهرت ثنيات الغنية . ولدى جلوسهما قالت إدنا وقد افترغها عن ابتسامة : « ربما يكون فى وسعى أن أرسم لك صورة فى يوم من الأيام » ، وأخرجت لفة بها رسوماتها ونشرتها واستمرت تقول : « أعتقد أننى يجب أن أستمّر فى تنقيحها . أحس بأنى كنت أريد أن أضيف شيئاً . ما رأيك فيها ؟ هل تظنين أن الأمر يستحق أن أستمّر فى الدراسة والتنقيح ؟ قد يكون من الأفضل أن أواصل الدراسة فى لاديبور » .

كانت تعرف أن رأى مدام راتجنول فى مثل هذه الأمور لا قيمة له تقريباً ، وكانت تعرف أنها حزمت أمرها بنفسها وليست فى حاجة إلى مشورة ؟ ولكنها كانت فى حاجة إلى كلمة مديح أو تشجيع تعينها على مواصلة مشوارها الفنى . قالت لها مدام راتجنول :

- موهبتك عظيمة يا عزيزتى !

قالت إدنا معترضة وقد بدا السرور على صفحة وجهها .

- هراء !

ولكن مدام راتجنول قالت ملحمة وهى تفحص
الرسومات واحدة واحدة وتنشرها وتمعن فيها النظر وتميل
برأسها :

- موهبتك عظيمة قلت لك ، انظرى إلى هذه اللوحة للفلاح
البافارى ، إنها تستحق أن توضع فى إطار ؟ وهذه السلة من
التفاح ! لم أر فى حياتى لوحة حية كهذه ، إنها تغرى المرء
بأن يمد يده ويلتقط واحدة .

كانت إدنا ممتنة لتقريب صديقتها الذى تعرف أنها لم تكن
تستحقه . احتفظت بعدد من الرسومات وأعطت الباقي لمدام
راتجنول التى امتنت للهدية امتناناً يفوق قيمتها وعرضتها على
زوجها الذى عاد لتوه من متجره لتناول طعام الغداء .

كان السيد راتجنول من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم ملح
الأرض . ينطلق وجهه بالبشر أينما حل ، وتنم ابتسامته الدائمة
عن طيبة قلبه وحسن عشرته وحب الخير للجميع . كان هو
وزوجته يتحدثان الإنجليزية ولكنه ينم عنها النبر غير الشرعى الذى
يضعانه على بعض الحروف والحرص على نطق الألفاظ فى تودة
وتريث . كان زوج إدنا يتحدث الإنجليزية دون لكمة أو شائبة .

وهى تجلس على المائدة معهم ظنت أن الغداء يتضمن الخضراوات فحسب . ولكنها ما لبثت أن عرفت أن الغداء لم يكن يتكون من الخضراوات ، ولكنه كان غداءً متنوعاً بسيطاً ومشبعاً فى الوقت نفسه . كان السيد راتجنول مسروراً لرؤيتها ، رغم أنه لاحظ أنها لم تكن فى كامل صحتها التى كانت عليها فى جراندايل ، ونصحها بأن تأخذ بعض المقويات . تحدث فى أمور كثيرة ، وفى قليل من السياسة ، نقل بعض أخبار المدينة وإشاعات الجيران . كان يتحدث بنشاط وحماس مما أضفى مزيداً من الأهمية على كل حرف ينطق به . كانت زوجته تنصت إلى كل شيء يقوله بعد أن وضعت شوكتها حتى تتفرغ للاستماع إليه وتوافقه عليه وتشجعه على المزيد .

تركهم إدنا وهى أكثر حزناً وإحباطاً على غير المتوقع . لم يعجبها الانسجام العائلى بين السيد راتجنول وزوجته . لم يفرها التوافق بينهما بأى حنين أو مراجعة لشأنها مع زوجها . لم تكن هى الحياة التى تناسبها أو تصلح لها ، بل رأتها حياة مدعاة لممل وضجر مروعين . لم تترك منزل راتجنول وهى أكثر أسفاً على افتقار الانسجام فى بيتها ، ولا أكثر حنيناً لحياة كتلك الحياة ، وإنما تركتها وهى ترثى لحال صديقتها - وهى تشفق عليها من ذلك الوجود التعس الذى تحياه مدام راتجنول ، وهو وجود لا يرفع صاحبه إلى أبعد من القناعة التى تعمى العيون ، ولا تختبر

بها لحظة من لحظات الإخفاق ولا تجرب بها نوبة من نوبات
الأسى ، ولا يتيح لها أن تذوق حياة الإثارة . تساءلت إدنا بينها
وبين نفسها عن معنى حياة الإثارة . إنه تعبير غشى فكرها مثل
انطباع غريب لم تقصده .

- ١٩ -

لم تستطع إدنا أن تنس أنها كانت مخطئة وحمقاء وسخيفة
حين داست على خاتم زواجها وقذفت بأنية الكرستال على أحجار
المدفأة . عاهدت نفسها على ألا تفعل مثل هذه الأفعال التي لا
تنفع ولا تضر . بدأت تفعل ما تريد وتشعر بما تريد أن تشعر به .
توقفت عن استقبال الضيوف فى منزلها أيام الثلاثاء توقفاً تاماً ،
وقررت ألا ترد زيارات الذين زاروها من قبل . تضاءلت جهودها
فى إدارة بيتها كزوجة صالحة ، بدأت تخرج وتعود كما يحلو
لها ، وتركت نفسها عرضة لأية نزوة عابرة .

كان السيد پونتلييه زوجاً دمثاً لطيفاً طالما كان يأنس من زوجته
طاعة وخضوعاً ولكن تغيرها وأسلوبها الجديد سبب له اضطراباً
وحيرة وصلت إلى درجة الصدمة . أضف إلى ذلك أن إهمالها
التام لواجباتها الزوجية قد أثار حفيظته . وعندما كان يستشيط
غضباً من تصرفاتها ويقسو عليها فى الحديث كانت إدنا ترد عليه
بشئ من التعالى والغطرسة . لقد عقدت العزم على ألا تتراجع
للوراء خطوة واحدة .

- يبدو لى أن أقصى درجات الحماسة يمكن أن تصل إليها

امرأة مسئولة عن منزل وبيت وأولاد عندما تضع أيامها فى
مرسمها فى حين أن هذا الوقت من حق أطفالها وأسرتها .
- أشعر أنتى أحب الرسم ، وربما لم يتابنى هذا الشعور من
قبل .

- أنا لا أريدك تتخلين عن هوايتك فى الرسم ، ارسمى ،
ولكن بالله عليك لا تكونى سبباً فى انهيار أسرتك . عندك
مدام راتجنول مثلاً تحافظ على حفلاتها الموسيقية وبذلك
لا تجعل الفوضى تدب فى حياتها الأسرية . وهى تفهم فى
الموسيقى أكثر من فهمك أنت فى الرسم .

- لا هى تفهم فى الموسيقى ولا أنا أفهم فى الرسم . أنا
لا أفعل ذلك بسبب الرسم .

- بسبب ماذا إذن ؟

- لا أدرى . هل تتركنى وحدى ؟ إنك تضايقنى .

كان السيد پونتليه يظن فى كثير من الأحيان أن شيئاً قد خالط
عقل زوجته . إنه يرى بوضوح كم تغيرت . لم تعد كما عرفها .
أصبحت امرأة أخرى تختلف عن إدنا القديمة . كان الأمل يحدوه
كل يوم فى أن تعود إلى ما كانت عليه ، وأن تخلع عنها هذه
الشخصية الزائفة التى تلبستها وملكت عليها أمرها .

تركها زوجها وحدها كما طلبت وذهب إلى مكتبه . صعدت
إدنا إلى مرسمها فى حجرة أنيقة تقع على سطح المنزل . ظلت

تعمل بنشاط وحماس استثنائيين دون أن تنجز شيئاً يشبع طموحها ولو إلى الحد الأدنى . دفعت البيت كله إلى الاهتمام بأمور الفن . وقف الولدان فى وضع التصوير لكى ترسمهما . كانا يظنان الأمر نزهة فى البداية ، ولكن ما لبث الملل والضجر أن ركبهما بعد أن اكتشفا أن الأمر ليس جزءاً من لعبة مبتكرة لتسليتهما . لبثت الخادمة ساعات طوال أمام إدنا وألوانها وفرشاتها ، صابرة محتسبة ، بينما كانت الخادمة الثانية تعتنى بالطفلين ولم تجد الوقت لتنظيف حجرة الاستقبال . ولكن الخادمة أوفت بنصيحتها أيضاً كهدف لفرشاة إدنا وألوانها بعد أن اكتشفت إدنا أن ظهر الخادمة الشابة ومنكبيها ينسجمان مع الخطوط الكلاسيكية ، وأن شعرها الذى ترسله على ظهرها طويلاً مصدر إلهام خطير . كانت إدنا أحياناً تدندن بالغناء وهى مشغولة بالرسم ، بالأغنية التى تبدأ بـ « آه لو كنت تعرف ! » .

كانت الأغنية تثير ذكرياتها ، فى وسعها أن تسمع من جديد خرير المياه وخفقات الأشرعة . فى وسعها أن ترى أشعة القمر المنعكسة على صفحة الخليج ، وتحس بضربات رياح الجنوب الساخنة تتابع بين ضعف وشدة . تشيع فى جسدها تياراً من رغبة رقيقة ، فتضعف عندئذ قوتها على الإمساك بفرشاتها ، وتوهج عينها بضوء طارئ .

كانت تمر عليها أياماً وهى فى سعادة طاغية لا تعرف

مصدرها : سعيدة لأنها تعيش وتتنفس . عندما يتحد كيائها كله مع ضوء الشمس والألوان وعطر الأزهار والدفء الغني لأوقات النهار في الجنوب . عندئذ كانت تحب أن تسيح وحدها في أمكنة غريبة لا تعرفها . وتكتشف أركانها الهادئة التي تغمرها أشعة الشمس وتغرى بالأحلام . وجدت ضالتها في الحلم والوحدة والبعد عن مضايقات بنى الإنسان .

وكانت تمر عليها أيام آخر تشعر فيها بتعاسة لا تعرف مصدرها أيضًا وشقاء لا تعرف كنهه . تشعر عندئذ أن الحياة لا تستحق حزنًا ولا ابتهاجًا ، ويستوى عندها الموت بالحياة ، تحس بأن الحياة جحيم غريب قوامه الفوضى والاضطراب ، وأن الناس أشبه بالديدان التي تبذل ما في وسعها للوصول إلى العدم والزوال دون أن تدري . تتوقف عن العمل عندما تعتورها تلك المشاعر البغيضة ، وتتوقف عن نسج الآمال التي تثير رغبتها وتدفع دماءها .

- ٢٠ -

عندما تكون في مثل هذه الحال كانت إدنا تسعى لزيارة الأنسة ريز . لم تنس الانطباع السيئ الذي تركته الأنسة في آخر مقابلة بينهما ، ورغم ذلك كانت تحس برغبة في رؤيتها ، وأن تصغي إليها وهي تعزف على البيانو . وفي أول ساعات العصر حزمت أمرها على الذهاب إلى العازقة . وعندما لم تجد بطاقتها عدت ذلك من سوء الحظ وراحت تبحث عن عنوانها في دليل التليفون ،

ووجدت أن الأنسة تسكن فى شارع ييانفيل على مبعده من منزلها . ولكن الدليل الذى استقت منه العنوان كان قديماً ، فعندما اتصلت بالرقم الذى وجدته أخبروها بأن المنزل الذى تبحث عنه تسكنه أسرة من القوقازيين ويقومون بتأجير بعض حجراته المفروشة . سكنوا المنزل منذ ستة أشهر ولا يعرفون شيئاً عن الأنسة ريز ، ولا يعرفون شيئاً عن أى من جيرانهم . وأكدوا لإدنا أن سكان المنزل من ذوى الرتبة الممتازة فى المجتمع . ولم تصبر حتى تناقش أمور الطبقات الاجتماعية مع مدام بوبون ، ولكنها أسرعته إلى متجر بقالة مجاور وهى متأكدة من أن الأنسة ريز قد تركت عنوانها مع صاحبه .

كان يعرف الأنسة أكثر مما كان يريد . أجاب لها عن جميع الأسئلة التى سألتها . والحق أنه لم يكن يريد أن يعرف الأنسة على الإطلاق ، ولم يكن يريد أن يعرف شيئاً عنها من قريب أو بعيد . كان يرى أنها امرأة بغیضة منفرة لا يحبها أحد فى شارع ييانفيل . وقال إنه يشكر الله على أنها تركت هذا الحى ، ويشكر الله أيضاً على أنه لا يعرف إلى أين ذهبت .

وازدادت إدنا شوقاً إلى رؤية الأنسة ريز منذ أن اطلعت على هذه الألغاز المحيرة تذكرت فجأة أن مدام ليرن هى الوحيدة التى يمكن أن تدلها على مكانها . كانت تعلم أنه من العبث اللجوء إلى مدام راتجنول التى لم تكن تحب الأنسة ولا تحب أن تعرف عنها شيئاً ولن تخبرها بأكثر مما أخبرها به البقال .

كانت إدنا تعلم أن مدام لبرن قد عادت إلى المدينة، فقد كان الوقت منتصف نوفمبر . وهى تعلم أيضًا أين تسكن أسرة لبرن فى شارع كارترز . كان منزلهم يبدو من الخارج مثل سجن كبير من كثرة القضبان الحديدية التى ثبتت على أبوابه ونوافذه من آثار حكم الإسبان البائد، ولم يفكر أحد فى إزالتها . ضرب حول البيت سور عال يحتضن الحديقة . وله بوابة ضخمة على الشارع كانت مغلقة . دقت إدنا الجرس المعلق على هذه البوابة الخارجية، وجلست على أريكة خارج البيت تنتظر من يسمح لها بالدخول . كان فكتور هو الذى فتح لها الباب، فى أثره خادمة زنجية تسمح يديها على مريلتها . سمعتهما إدنا يتشاجران قبل أن يفتحا الباب، تقول الخادمة الزنجية إنها يجب أن تترك لها الفرصة لممارسة مهام عملها، ومن صميم عملها أن ترد على الطارق .

كان فكتور مندهشًا وسعيدًا لرؤية مدام پونتلييه، لم يستطع أن يخفى اندهاشه وسعاده حين رآها . كان شابًا فى التاسعة عشرة، حسن المظهر عابس الوجه يشبه أمه فى كثير من الوجوه ولا سيما فى تهوره وحدته . أمر الزنجية بأن تذهب إلى سيدتها على الفور لكى تخبرها بأن مدام پونتلييه تريد أن تراها . وأبدت الخادمة تدمرًا ورفضًا واستأنفت عملها الذى بدأته فى إزالة الأعشاب الضارة فى الحديقة . غضبت لأنها تدعى الآن للقيام بجزء من واجباتها وليس واجباتها كلها أما فكتور فقد أمطرها بوابل من

السبب والشتائم التي خرجت بسرعة من فمه مما جعلها لا تفقه منها شيئاً . ولكن الشتائم جعلتها تعدل عن قرارها وتلقى بفأسها وتسرع إلى الداخل وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة .

أبدت إدنا إحجاماً عن الدخول . أعجبها الجو في الحديقة حيث انتشرت المقاعد والأرائك الوثيرة حول مائدة صغيرة تهافتت على أحد المقاعد من التعب الذي أحست به بسبب تجوالها الطويل، وشرعت تتأرجح في رقة وخفة على كرسيها بعد أن أرسلت فوق رأسها مظلتها الحريرية الناعمة . عندئذ جلس فكتور على مقعده إلى جوارها وشرع يشرح لها سبب تصرف الخادمة الزنجية الهجومى، قال لها إنها لم تتلق التدريب الكافى وإنه لم يكن فى المنزل حتى يأخذ بيدها، وإنه لم يمض على مجيئه من الجزيرة سوى ساعات، ومن المتوقع أن يرجع غداً . لقد مكث طوال الشتاء فى الجزيرة ؛ فهو يعيش هناك، وقد أعد العدة لاستقبال ضيوف الصيف .

قال لمدام پونتليه إن المرء يحتاج إلى التسلية بين فترة وأخرى، وإنه كان يجد الذريعة بين الحين والآخر للذهاب إلى المدينة . وقال لها إنه ذهب إلى المدينة مساء أول أمس ! ولم يطلع أمه على ذلك . ثم بدأ يهمس وهو يقول لها إن لديه ذكريات كثيرة، ولا يستطيع أن يحكى كل شئ لها لأنها امرأة وقد لا تفهم هذه الأمور . وحكى لها عن الفتاة التى اختلست إليه النظرات

وابتسمت له من خلال مصراع النافذة ، وكانت غاية فى الجمال !
وبادلها الابتسام بابتسام وعرج إليها وكان له معها حوار . فى قرارة
نفسها قالت مدام پونتليه إنه لن يدع الفرصة تفلت من يده إلا إذا
كان ساذجاً . وجدت تسلية فى حديث الشاب ولم تبد رغبة فى
فراقه . لابد من أن درجة من الشوق والتسلية قد ظهرت فى
نظرات عينيها . ولذا أصبح الشاب أكثر جرأة فى الحكى . ولابد
من أن مدام پونتليه قد وجدت نفسها فى النهاية تستمع إلى قصة
تنبض بالحياة إلى أن ظهرت مدام لبرن فى الوقت المناسب .

كانت مدام لبرن لم تزل ترتدى ثوبها الأبيض كعادتها فى
فصل الصيف . تألفت عيناها بترحاب جم لدى رؤية مدام
پونتليه . وطفقت تسألها عن أحوالها : لماذا لا تريد مدام پونتليه
أن تدخل ؟ ألا تريد أن تشاركنا بعض الشراب ؟ ولماذا لا تأت
لزيارتنا ؟ وكيف حال السيد پونتليه والطفلين الجميلين ؟ هل رأت
مدام پونتليه شهر نوفمبر دافئاً على ذلك النحو من قبل ؟

عندئذ ترك الشاب مقعده ليجلس على أريكة خلف مقعد
أمه ، ومن موقعه الجديد استطاع أن يرى وجه إدنا كله لقد أخذ
شمسيتها الصغيرة من بين يديها عندما كان يتحدث معها ، وهو
الآن يرفعها ويدورها بين إصبعيه وهو مستلق على قفاه وعندما
راحت مدام لبرن تشكو من الملل الذى تعانى منه منذ عودتها إلى
المدينة ، وأنها لم تر من الناس العدد الذى كانت تراه فى

المصيف، وأنه حتى فكتور وجد ما يشغله منذ مجيئه من الجزيرة منذ يومين أو أكثر، راح الشاب يتلوى بجسده على أريكته وأخذ يغمز لإدنا بعينه كما تفعل امرأة لعوب . أحست إدنا أنها شريك في جريمة ما، مما جعلها تبدى له امتعاضًا وتحمل على قسّات وجهها نفورًا .

قال لها إن روبرت لم يرسل لها سوى رسالتين، ولم يقل فيهما الكثير . وعندما رجته الأم أن يحضرهما قال فكتور إن الرسالتين لا تستحقان عناء البحث عنهما وإحضارهما قال إنه يتذكر ما فيهما . ولكنهما لم يسمعا منه غير جلبة لم يفهما منها شيئًا عندما أراد أن يحدثهما عن مضمون الرسالتين بالفعل .

كتب روبرت رسالة وهو في فيراكروز وكتب الأخرى من مدينة مكسيكو . قال إنه قابل متتول الذي يساعده في التجارة . وقال إن الموقف المالى لم يتحسن إلى تلك اللحظة وإنه على ما كان عليه وهو في نيو أورليانز، ولكن احتمالات المستقبل تنبئ بالأفضل . كتب عن مدينة مكسيكو ووصف أهلها وعاداتهم وأحوال الحياة التي وجدها . وأرسل آيات الحب إلى أسرته، وأرفق برسالته شيكًا لأمه وطلب منها أن تسلم له على جميع أصدقائه ومعارفه . كان هذا هو مضمون الرسالتين . وعرفت أنه لو كان أرسل لها رسالة خاصة لأعطوها لها الآن . وعادت إليها حالة الحزن التي دفعتها إلى خارج بيتها، وتذكرت أنها كانت تبحث عن الأنسة ريز .

كانت مدام لبرن تعرف أين تسكن الآنسة ريز . أعطتها العنوان وأبدت أسفها لأنها لم توافق على البقاء حتى بقية المساء وتذهب لزيارة الآنسة ريز فى يوم آخر . كان النهار قد قارب على نهايته ، وكانت الشمس قد بدأت تهوى نحو المغيب . صاحبها فكتور إلى الباب وقد أرسل شمسيتهما فوق رأسها وهما فى طريقهما إلى السيارة رجاها أن تتذكر أنه أسر إليها هذا الأصيل سرًا من الأسرار لا ينبغي أن تقوله لأحد . ضحككت ومازحته ثم تذكرت بعد فوات الأوان أنه كان يجب أن تكون متحفظة ووقورة .

قالت مدام لبرن لابنها يا لها من امرأة جميلة حقًا مدام پونتليه ورد الشاب مسلمًا : إنها فاتنة ! لقد تحسنت على جو المدينة إنها تبدو مختلفة عما كانت عليه هناك .

- ٢١ -

زعم البعض أن السبب فى اختيار الآنسة ريز مسكنها فوق أسطح العمارات هو رغبتها فى أن تثبط همة الشحاذين والباعة الجائلين والزوار . كانت الحجرة الأمامية كثيرة النوافذ التى تعلوها القذارة ، بيد أنها كانت مفتوحة أغلب الوقت مما كان يسمح بدخول الهواء والضوء رغم دخول الدخان والسخام أيضًا . كانت إدنا تستطيع أن ترى النهر الهلالى الشكل وأشرعة السفن ومداخل البواخر الضخمة التى تروح وتجيء فى مياه الميسيسىبى . تزدهم الشقة بجهاز بيانو ضخم يقع فى حجرة

من حجراتها الثلاث . وفى ركن من الحجرة تضع موقدًا كبيرًا يعمل بالكبروسين تطبخ عليه وجباتها حين لا ترى فى نفسها رغبة للذهاب إلى المطعم المجاور . كانت تأكل فى تلك الحجرة وتحفظ بأمعتها فى صوان قديم نادر أصابه البلى وعلته القذارة من مائة عام من الاستعمال .

عندما طرقت إدنا باب شقة الأنسة ريز ودخلت وجدتها واقفة بجوار النافذة مشغولة بإصلاح حذاء قديم مصنوع من نسيج صوفى خشن . ضحكت الموسيقى الصغيرة عندما رأت إدنا . تغضن وجهها من الضحك واستجابت له جميع عضلات جسدها . كانت تقف هناك على مشهد من آخر أضواء النهار، لا تتصنع ولا تتكلف . لم تزل ترتدى هذا الحذاء الرث وتلك الباقة من أزهار البنفسج تضعها على جانب من رأسها . قالت لإدنا :
- تذكرت أن لك صديقة فى النهاية، لقد قلت فى نفسى : آه إنها لن تأتى أبدًا .

سألتها إدنا وعلى شفيتها ابتسامة :

- هل تريدنى فعلاً أزورك ؟

- لم أفكر كثيرًا فى الموضوع .

وجلست السيدتان على أريكة صغيرة متداعية تستند إلى الجدار واستمرت الأنسة تقول :

- إننى جد سعيدة بقدمك على أية حال . كنت سأصنع

لنفسى كوبًا من القهوة قبل أن تدخلى ، سوف أصنع لك
كوبًا معى . وكيف حال سيدتى الجميلة ؟ دائمًا جميلة
والله ! دائمًا فى صحة موفورة ! دائمًا مبسطة !

ثم أخذت يد إدنا بين أصابعها القوية النحيلة وعادت تقول :
- أحيانًا كنت أقول فى نفسى : نعم ، لن تأتى أبدًا لزيارتى ،
وإن وعدھا مثل وعود أولئك السيدات من الطبقة إياھا ،
لا تعنيه . هذا لأننى لا أصدق أنك تحبيننى يا مدام پونتليه .
قالت لها إدنا وهى تحدجھا بنظرة فاحصة :

- لا أعلم إن كنت أحبك أم لا .

كانت صراحة مدام پونتليه مصدر سعادة الآنسة ريز
التي عبرت عن سعادتها بالتوجه إلى الموقد وإحضار كوب
القهوة لضيقتها . صادفت القهوة وقطع الكيك هوى فى
نفس إدنا التي أحجمت عن تناول أى شىء عند مدام
لبرن ، وهى الآن تشعر بالجوع . وضعت الآنسة الصينية
على منضدة صغيرة بين يدى مدام پونتليه وجلست مرة
أخرى على الأريكة المتهالكة وعادت تقول وهى تضع
الكريم فى كوب إدنا وتعطيه لها :

- تلقيت رسالة من صديقك .

- صديقى ؟

- نعم ، صديقك روبرت . كتبها إلى من مكسيكو سيتى .

- قالت إدنا باندهاش وهى تقلب قهوتها ذاهلة العقل :
- كتبها لك ؟
- نعم ، ولم لا ؟ لا تتركى قهوتك تبرد ؟ اشربها . رغم أن الرسالة كان يجب أن يرسلها لك أنت ، ليس فيها غير مدام پونتلييه من البداية إلى النهاية .
- عندئذ قالت لها مدام پونتلييه بنبرة متوسلة :
- أرنى الرسالة .
- كلا ، الرسالة لا تخص غير كاتبها والشخص الذى أرسلها إليه .
- ألم تقولى إنها تخصنى من البداية إلى النهاية ؟
- لقد كتبها عنك وليس لك . هل رأيت مدام پونتلييه ؟
- كيف حالها الآن ؟ وكما تقول مدام پونتلييه ، أو كما قالت مدام پونتلييه ذات يوم ، إذا تصادف وزارتك مدام پونتلييه فاضربى لها امپروميتو لشوپان ^(٤) فهى قطعتى المفضلة - سمعتها هنا منذ يوم أو يومين . أود أن أعرف كيف تستجيب لها . وهكذا وهكذا ، وكأننا نلتقى أنا وأنت على الدوام !!
- أرنى الرسالة .
- أوه ، كلا .
- وهل كتبت له الرد ؟
- كلا .

- أرنى الرسالة .
- كلا، ثم كلا .
- إذن اعزفى الموسيقى كما قال لك .
- الوقت متأخر، متى تريدون العودة إلى بيتك ؟
- الوقت لا يهمنى . وسؤالك يبدو فظًا . اعزفى الموسيقى .
- ولكن لم تخبرينى شيئًا عنك، ماذا تفعلن الآن ؟
- أرسم، لقد أصبحت فنانة . تخيلى .
- آه، فنانة ! أنت لديك طموحات دون أساس حقيقى من موهبة يا مدام .
- لماذا بدون أساس، أولا تظنين أننى فنانة ؟!
- أنا لا أعرف شيئًا عن موهبتك حتى أحكم . لا أعلم شيئًا عن استعدادك فى الفن . الفن يحتاج إلى الكثير من المواهب، مواهب حقيقية أصيلة لا يكون قد اكتسبها بجهده الخاص فضلًا عن ذلك فإن النجاح يحتاج صبرًا وشجاعة روح .
- ماذا تعنى شجاعة روح ؟
- شجاعة حقيقية ! الروح الجريئة . الروح التى تجرؤ وتتحدى .
- أرنى الرسالة واعزفى الموسيقى . ألا ترين أننى مصرة .
- أليست هذه خصلة من خصال الفنانين ؟
- وأجابت الأنسة ريز من خلال ضحكاتها النحيلة :

- هذا الكلام ينفع عند العجوز التى تفتن بك .

كانت الرسالة فى درج المنضدة الصغيرة التى وضعت عليها
إدنا فنجان قهوتها . فتحت الآنسة الدرج وأخرجت الرسالة التى
كانت أعلى الأشياء جميعاً . وضعتها بين يدى إدنا ونهضت دون
تعليق لتجلس إلى البيانو . ضربت الآنسة قطعة البرومبتيو لتشوبان
على البيانو الذى كانت تجلس لديه على مقعد منخفض جعل
معالم جسدها تستقر على انحناءات مشوهة وزوايا مضطربة .
وشيثاً فشيثاً بدأت موسيقا تشوبان تعيد إدنا إلى سابق وعيها بعد
فترة من الذهول قضتها مع الرسالة . لم تعرف إدنا متى بدأت
الموسيقى ومتى انتهت . كانت مشغولة بقراءة رسالة روبرت على
أضواء خافتة من مصباح قديم . لقد انتقلت الآنسة من قطعة
تشوبان ثم عادت إليها بكل ما فيها من حلة وحنين .

ازدادت الظلمة عمقاً فى الحجرة الصغيرة . وازدادت
الموسيقى غرابة وروعة، وعنقاً وشدة، وحزنًا وحدة، ثم عادت
الموسيقى رقيقة متضرعة . وملأت الألحان الحجرة وفاضت على
الجدران واخترقت أستار الليل وصعدت إلى أسطح المنازل
وحطت على صفحة النهر الهلالي، وضاعت فى صمت الليل
والأثير الأعلى . كانت إدنا تتحب، بكت كما بكت ذات ليلة فى
جراند أيل عندما أبقتها أصوات غريبة سمعتها تأتى من داخلها .
نهضت مضطربة تنوى الرحيل . وقالت للآنسة وهى لم تتجاوز
عتبة الباب :

- تعالى فى أى وقت تشائين . خذى بالك من الدرج والمنبسطات غير المضاءة ، قد تتعثرى .

عادت الآنسة وأضاءت شمعة ، كانت رسالة روبرت على الأرض انحنى والتقطتها كانت متغضنة ندية بسبب قطرات الدمع التى سكبتها عينا إدنا . أصلحت الآنسة من شأنها وأعادتها إلى مظهرها ووضعها فى الدرج .

- ٢٢ -

عند عودته إلى المدينة ذات صباح عرج السيد پونتليه على بيت صديقه القديم وطبيب الأسرة الدكتور ماندليه . كان الدكتور طبيبًا متقاعدًا يعيش كما يقولون على مجده الغابر ، يستقى شهرته من حكمته أكثر من براعته فى الطب . كان يترك ممارسة الطب لمساعديه وتلامذته ، وكان الناس يسعون إليه للمشورة إلا قليل من العائلات التى ربطتهم به وشائج صداقة قديمة يذهب إليهم فى بيوتهم كلما احتاجوا إلى طبيب . وكانت عائلة پونتليه من تلك العائلات .

كان الطبيب يجلس فى نافذة مكتبته منكبًا على القراءة . منزله يقع على مبعده من الشارع وسط حديقة غناء أضفت على المكتبة جواً من الهدوء والسلام . ولدى دخول السيد پونتليه ألقى نظرة محتجة من فوق نظارته مستغربًا من هذا الزائر الذى يقتحم عليه خلوته فى تلك الساعة من الصباح . وعندما رأى السيد پونتليه عاجله بالابتسام والترحاب :

- آه، السيد پونتليه ! آمل ألا تكون مريضًا . تعال واجلس .
ما أخبارك ؟

كان رجلًا وقورًا مهيبًا ، ذا شعر كثيف أشيب وعينين زرقاوين صغيرتين أخذ السن كثيرًا من تألقهما دون أن ينال من حدتهما .
- لا ، لست مريضًا على الإطلاق يا دكتور . أنت تعلم أنني جئت من نسيج متين لا يلين ، نسيج يتميز به أفراد عائلة پونتليه ذوو الأصول الفرنسية . جئت أطلب مشورتك - ليس بالضبط مشورتك ولكن جئت أتحدث معك بشأن إدنا، لا أدري ما الذى تعاني منه .

قال الطبيب :

- مدام پونتليه ليست على ما يرام ؟ لماذا ؟ لقد رأيتها ، أعتقد منذ أسبوع ، تمشى فى شارع القنال ، كانت غاية فى الصحة أو هكذا بدت لى .

قال السيد پونتليه وهو يميل إلى الأمام وينقل عصاه بين يديه بعصبية :

- نعم ، نعم ، تبدو فى صحة جيدة ، ولكن تصرفاتها تغيرت ! أصبحت غريبة ، أصبحت شخصًا آخر . لا أستطيع أن أفهمها ! وقلت لنفسى ربما تستطيع مساعدتى .

- وكيف تغيرت تصرفاتها ؟

- رد السيد پونتليه وهو يلقي بظهره على مقعده :

- لا أدرى كيف أشرح لك ، ولكنها لم تعد تهتم بشئون بيتها .

- حسنًا ، حسنًا ، النساء لسن سواسية يا عزيزى پونتليه .
علينا أن ننظر إلى

- أعلم ذلك ، قلت لك إنى لا أستطيع أن أشرح لك .
موقفها كله ، تجاهى وتجاه الناس ، الناس جميعًا ، قد
تغير . أنت تعرف أننى عصبى بعض الشيء ، ولكنى
لا أحب العراك أو القسوة على النساء خاصة زوجتى ،
ولكن هى التى اضطرتنى إلى ذلك ، وقد ندمت على ذلك .
إنها تغضبنى بصورة بغیضة .

واستمر يقول :

- سكنت رأسها فكرة تتصل بحقوق النساء الأبدية - وأنت
تعرف - ونحن نتقابل على الإفطار فى الصباح .

رفع الشيخ الجليل حاجبيه الخشنيين ، ومط شفته
السفلية الغليظة ونقر على ذراعى كرسيه بأطراف أصابعه
وسأل :

- وماذا كنت تفعل معها يا سيد پونتليه ؟

- أفعّل !

تساءل الدكتور وهو يبتسم :

- هل التحقت مؤخرًا بجمعيات نسوية من المثقفات ،

أوبكائنات فوق أرضية، كائنات روحية يعنى ؟ زوجنى
كانت تحكى لى عن مثل هذه الأشياء .

قال السيد پونتلييه معترضًا :

- هذه هى المشكلة ، إنها لم تلتحق بهذه الجمعيات ، أضف
إلى ذلك أنها أوقفت حفلة الثلاثاء التى كنا نقيمها فى
البيت ، وقطعت الصلة بكل معارفها ، وراحت تتسكع فى
الشارع بمفردها ، تضيع وقتها فى الترموايات وتدخل البيت
عند حلول الظلام . قلت لك أصبحت غريبة ، وأنا لا أطيق
ذلك ، والقلق يعجزنى .

تساءل الطبيب بجدية بعد أن عرف أن مثل هذه
الحالات لا يعرف لها مخرجًا :

- لعله شيئًا وراثيًا . ألا تعرف شيئًا من هذا القبيل فى أسرتها ؟
- لا ، أبداً ! إنها تنحدر من سلالة من المشيخين فى
كتكى . أبوها رجل جليل يقولون إنه كان يصلى يوم الأحد
فى الكنيسة ويطلب من الله غفران خطاياها التى ارتكبها طوال
الأسبوع . وأعلم أيضًا أن لديه مزرعة من أجمل المزارع
تمرح عليها خيول السباق التى يغرم بها . وأنت تعرف
مارجريت أختها ، فتاة مشيخة حتى النخاع . وأصغر
أخواتها بنت مشاكسة جدًا ، وبالمناسبة سوف تتزوج فى
بحر أسبوعين من الآن .

قال الطيب متعجلاً وكأنما وضع يده على الحل الجذرى :
- أرسل زوجتك إلى الحفل ، فرصة لتبقى وسط أهلها فترة ،
هذا سوف يجعلها تتحسن كثيراً .

قال السيد پونتلييه وقد أغراه الطيب بمزيج من الإفضاءات :
- ذلك ما طلبت منها أن تفعله . ولكنها لا تريد أن تذهب
إلى حفل الزواج . قالت لى إن الزواج من أكثر المشاهد
مدعاة للرثاء على وجه البسيطة ! رأيت عبارة أجمل من هذه
العبارة تقولها امرأة لزوجها ؟!
سكت الطيب برهة ثم قال :

- پونتلييه ، اترك لزوجتك الفرصة كي تخلو بنفسها فترة من
الوقت ، لا تضايقها حتى لا تضايقك . المرأة يا صديقى
العزیز كائن رقيق وغريب فى الوقت نفسه ، وأنا أعرف أن
مدام پونتلييه بالذات حساسة جداً ، سيدة لها شخصية
متميزة . وهذا النوع من النساء يحتاج إلى أخصائى موهوب
فى الشئون النفسية حتى ينجح فى مهمته . أما حين يحاول
العاديون مثلك ومثلى التدخل فى مشكلاتهن الخاصة جداً
تكون النتيجة مريعة . أغلب النساء متقلبات المزاج
وهوائيات وغريبات الأطوار . ولا أظن إلا أن ذلك
ما تعاني منه زوجتك لسبب أو لآخر لسنا فى حاجة ماسة إلى
أن نفهمه أو نسبر غوره . ولكن الأمور سوف تمضى على

- خير ، لاسيما إذا تركتها وحدها . أرسلها إلى .
- قال السيد پونتليه معترضًا :
- أوه ، لا أستطيع ؛ ليس ثمة سبب واضح يدعو إلى ذلك .
- قال الطبيب :
- إذن سوف أزورها أنا ، سأزوركم ذات مساء بوصفى صديقًا .
- قال السيد پونتليه متوسلاً :
- اعمل معروفًا ! حدد اليوم الذى ستأتى فيه .
- ثم وهو ينهض مستأذناً :
- نقول مساء الأربعاء ؟ هل يروقك الأربعاء ؟
- ممتاز ، الأربعاء ممتاز . ربما تكون زوجتى فى حاجتى يوم الأربعاء ولكننى سوف أخبرك على كل حال وإلا انتظرنى الأربعاء مساء .
- وقبل أن ينصرف قال السيد پونتليه :
- سأذهب فى رحلة عمل قريبًا إلى نيويورك . لدى مشروع تجارى كبير هناك ، وأريد أن أبقى فى الميدان حتى أمارس نفوذى . إذا أردت مشاركتنا شاركناك يا دكتور .
- لا ، أشكرك يا صاحبى ، أنا أترك هذه الأمور للشباب أمثالك ، الذين لم تزل قوة الشباب تسرى فى دماهم .
- قال السيد پونتليه ويده لم تزل على مقبض الباب :

- كنت أريد أن أقول إننى قد أغيب فترة . هل تنصحنى بأن
أصطحب إدنا معى ؟

- بكل تأكيد، إذا رغبت هى فى ذلك ، إذا لم ترغب اتركها
وشأنها لا تغضبها على شىء . حالتها هذه سوف تمضى
بسلام، أؤكد لك . قد يستغرق الأمر شهرًا ، شهرين، ثلاثة
أو حتى أكثر ولكنها سوف تزول ، فقط عليك بالصبر .
قال السيد پونتليه وهو يهم بالخروج :
- حسنًا ، إلى اللقاء مساء الأربعاء .

عنَّ للطبيب أن يسأل السيد پونتليه أثناء المحاورة إذا ما كان
فى حياة زوجته رجلاً . ولكنه ضمن بنفسه أن يثير سخط صاحبه
الكرىولى . لم يعاود القراءة فى كتابه على الفور، ولكنه جلس
فترة يحرق فى أشجار الحديقة تحديق المتأمل .

- ٢٣ -

ذهب والد إدنا إلى المدينة ومكث فيها أيامًا لم تبدِ إدنا خلالها
حماسًا أثناء وجوده ولم يأنس منها الحنان الذى كانت تغدقه عليه
فى الماضى ، غير أنهما كانا يشتركان فى الميول والأهواء،
وعندما تكون وحدها فى صحبتها كانت حسنة الرفقة . كان مقدمه
ليدانا باضطراب محبب، بدا أنه شروع فى وجهة جديدة فى
عواطفها .

جاء إلى المدينة ليشتري هدية العروس لابنته چانيت وحُلة

جديدة له حتى يظهر بها فى الحفل فى تمام أناقة . أناط مهمة اختيار الهدية للسيد پونتليه الذى كان الجميع يذعنون لذوقه فى مثل هذه الأمور ، والذى كانت اقتراحاته فى شئون الأناقة واللبس - والتي تتخذ أحياناً طابع المشكلة - لا تقدّر بمال عند حماه . ولكن الشيخ الجليل كان خلال الأيام القليلة الماضية بين يدى إدنا لا يفارقها ، وكانت فى حضرته تجرب جملة من الأحاسيس البعيدة عن المألوفة . كان ضابطاً كبيراً فى الجيش برتبة عقيد ، ولم يزل يحتفظ مع اللقب بخيلاء العسكريين الذى لم يفارقه حتى بعد تركه الخدمة . كان شعره وشاربه أبيضين أشبه بالحرير فى النعومة ، يتحد لونهما مع لون وجهه البرونزى فيضيف قسوة على قسوة عينيه . كان طويلاً ضامر الجسم يرتدى معطفاً مبطناً مما يضيف على منكبیه وصدره عرضاً واتساعاً زائفين . كانت إدنا وأبوها يلتفتان إليهما الأنظار فى غدوهما ورواحهما . لدى وصوله أخذته إدنا إلى مرسومها لترسمه . ومن جانبه أخذ الأمر بكل الجدية اللازمة . فلم تكن موهبة إدنا فى الرسم أو مواهب بناته عموماً مصدر دهشة بالنسبة له ، فقد رسخ فى اعتقاده أنه أورثهن بذور التفوق ، وما عليهن غير أن يكلأن تلك المواهب بالرعاية والدراسة .

جلس أمام ريشتها صلباً لا تطرف له عين ، ولا يجفل له جفن ، تذكر عندما كان يقف أمام المدفع فى أيام خلت . أبدى

امتعاظه حين تحرش به الصبيان اللذان راحا يحدقا فى جدهما
بعيون ذاهلة، وهو ساكن أمام الفنانة فى مرسومها الذى يغمره
الضياء . وعندما أحس باقترابهما منه أوماً إليهما بالخروج بإشارة
من طرف قدمه ضناً بقسمات وجهه الثابتة عن أن تضطرب
ويذراعيه ومنكيهه عن أن يتحركا .

أرادت إدنا أن تروح عنه فدعت الآنسة ريز لتضرب له قطعة
على البيانو . وعندما لم تلبّ ريز الدعوة صحبته إلى السهرة
الموسيقية التى تقيمها عائلة راتجنول . رحبت مدام راتجنول
وزوجها به ترحاباً جمّاً وأنزلاه منزلة ضيف الشرف من الحفل .
ودعياه لتناول الغداء معهما الأحد التالى أو أى يوم يشاء . غمرته
المدام بدلالها وإقبالها عليه، وراحت تعابه بعينها تارة
وبالإيماءات تارة أخرى ويفيض من الثناء والإطراء تارة ثالثة ،
حتى ألقى فى روع الشيخ أن سنه قد نقصت ثلاثين عاماً على
الأقل . تعجبت إدنا دون أن تفهم شيئاً . فحياتها قد خلت من
الغنج والدلال .

لفت انتباهها رجل أو رجلان فى الحفل ، ولكنها لم تجد فى
نفسها رغبة فى استعراض دلالها الأنثوى لاستمالتها وإغوائها
أعجبت بشخصيتهما وداعبا هواها وخيالها، وانتهزت فرصة
سكوت الموسيقى برهة فأقبلت عليهما وبادلتهما أطراف
الحديث . كثيراً ما كانت نظرات الغرباء فى الشارع تتردد فى
ذاكرتها وأحياناً تسبب لها القلق .

لم يكن السيد پونتليه يهوى الذهاب إلى تلك الحفلات الموسيقية . كان يقول إنها بورجوازية ، وكان يجد تسليته في نادى المدينة . اعتذر لمدام راتجنول بأن الموسيقى التى تعزف فى حفلتها ثقيلة الوطأة على أذنيه ، وأنه ربما لم يتلق التدريب الكافى حتى يفهمها ورضيت للإطراء الذى انطوى عليه اعتذاره . ولكنها لم ترض عن ذهابه إلى النادى بمفرده ، وصارحت إدنا بذلك .

- من المؤسف أن يستقر السيد پونتليه فى بيته وقتاً أطول فى المساء . واسمحي لى يا صديقتى بأن أقول لك إنه لو يجلس معك وقتاً أطول لكنت أكثر انسجاماً مع نفسك .

وردت إدنا هى تحدجها بنظرة خالية من المعنى :

- أوه ، لا يا عزيزتى ! وماذا أجنى من مكثه فى البيت ؟ ليس

لدى أى منا ما يقوله للآخر .

لم يكن لديها ما تقوله لأبيها فى هذا الشأن ، بيد أنه لم يناصرها العداء . اكتشفت أنه موضع اهتمامها وبؤرة انتباهها ، رغم أنها لم تتوقع أن يستمر ذلك طويلاً . ولأول مرة فى حياتها انتابها إحساس بأنها مرتبطة به ارتباطاً لا سبيل إلى الفكاك منه . ظلت تخدمه طوال الوقت وتلبى طلباته كلها . كان يسعدها أن تفعل ذلك . لم تكن تسمح لخدام أو أى من طفليها أن يعينه على شىء طلبه وتستطيع أن تفعله بنفسها . لاحظ الزوج ذلك وظن أن ذلك من قبيل الارتباط البنوى العميق الذى لا شك فيه .

كان العقيد يشرب كثيرًا من شراب عصارة النخيل كل يوم مما كان ينتهى به إلى الجمود ونقصان العاطفة . كان خبيرًا فى مزج ألوان الشراب . وكان يستطيع أن يبتكر بعضًا منها ويطلق عليها أسماء غريبة جميلة، وكانت صناعتها تحتاج إلى الكثير من العناصر الأمر الذى أناط به إدنا لكى تدبره .

عندما زارهما الدكتور ماندليه وتناول معهما طعام الغداء يوم الأربعاء لم يستطع أن يلحظ على إدنا أى أثر لمرض أو كآبة مما حدثه به زوجها بالأمس . كانت رشيقة الحركة متألفة مفعمة بالعاطفة . حضرت هى وأبوها سباق الخيل ذلك اليوم ولم يتجاوز حديثهما عند جلوسهما إلى المائدة أحداث الحلبة . ولم يستطع الطبيب أن يجاريهما فى الحديث عن شئون سباق الخيل . لم يجتمع لديه غير ذكريات قليلة عن السباقات استقرت فى ذاكرته من « الماضى الجميل » أيام ازدهار سباقات لكومت الشهيرة . راح يجتر تلك الذكريات حتى لا تجبر على الانسحاب أو يتهم بالتخلف عن روح العصر، ولكنه أخفق فى خداع العقيد، ولم يكن قريبًا من التأثير عليه بتلك المعلومات الملفة عن أيام خالية كانت إدنا قد دعمت أباهما بالمال فى رهانه الأخير، وعاد هذا الدعم عليهما بالخير الوفير، بالإضافة إلى أنهما تعرفا على الكثير من الشخصيات الأسرة فى رأى العقيد . لحق بهما السيد جيمس هايكامب و مدام مورتي مور ميرمان اللذان كانا فى رفقة ألسيه

أرويين . وجعل الجميع من ساعات اللهو رصيدًا لا ينفد من الذكريات .

أما السيد بونتليه فلم يكن يجد ميلًا لحضور هذه السباقات ، بل لم يكن يشجع على حضورها بوصفها تسلية لا تفيد ، لا سيما عندما يتذكر ما آلت إليه مزرعة العشب فى كتيكى . حاول أن يعبر عن عدم رضاه بصفة عامة ، ولم ينجح إلا فى إثارة غيظ ومقاومة حماه الذى اشتبك معه فى نقاش خفيف كانت إدنا أثناءه تناصر رأى أبيها فى حين ظل الطبيب على الحياد .

راح الطبيب يراقب مضيفته باهتمام بالغ من تحت حاجبيه اللذين يغطيهما شعر كثيف ، ولاحظ تغيرًا حولها من المدام الخاملة التى يعرفها إلى كائن مفعم بالحماس للحياة . كان حديثها دافئًا مفعمًا بالنشاط ، ولم يكن فى نظراتها أو إيماءاتها كآبة أو حزنًا . تخيلها مهرًا جميلًا ينضج بالعافية يتمشى تحت شمس مشرقة .

كان الغداء رائعًا ، وكان الشراب باردًا زلالًا اندثر كل ما من شأنه أن يعكر الصفو تحت أبخرة الكتوس المتصاعدة . نشط السيد بونتليه وأصبح كثير التذكر . حكى بعض ذكرياته المسلية فى الريف ، وأيام شبابه فى أبرفيل عندما كان يصطاد الأبوسم مع أصحابه ، ويطحن أشجار الجوز ، ويطلق النار على طيور السنونو، ويجول فى الغابات والحقول فى فراغ عابث .

وشرع الكولونيل مدفوعًا بجو المرح الشائع ومناسبة الحال

يروى حكاية من حكاياته الحزينة التى يخترنها فى جراب ذكرياته عن أيام مريرة ماضية كان هو فيها البطل والحدث . ولم يكن الطبيب أكثر منه توفيقاً فى اختياره عندما قص عليهم قصة قديمة معروفة وتحدث كل يوم عن السيدة التى ابتليت فى حبها لزوجها وبيتها فراحت تبحث عن مصادر جديدة تشبع رغباتها الطارئة ، ولما لم تجد بغيتها عادت إلى عشنا القديم بعد أيام من الشقاء الذى ما بعده شقاء . قال إنها قصة من القصص التى عرفها ذات يوم من مهنته الطويلة كطبيب . ويبدو أن القصة لم تقع من إدنا موقع القبول أولفت الانتباه . وجاء دورها لتحكى قصتها عن السيدة التى هربت مع حبیبها فى قارب صغير ذات ليلة ولم تعد . تاها فى جزر الباراتاريا ، ولم يسمع عنهما أحد ، ولم يجد لهما أحد أثرا حتى يومنا هذا . كانت قصة من نسج خيالها . قالت إن مدام أنتوان هى التى حكته لهما . وكان ذلك من نسج خيالها أيضا . قد يكون ذلك ما حلمت به . ولكن كلماتها بدت صادقة عند الذين كانوا يصغون إليها . أحسوا بنسمات ليل الجنوب الساخنة تلسع وجوههم ، وسمعوا صوت القارب الصغير وهو يمخر المياه تحت أضواء القمر المتلألئة ، وخفقات أجنحة الطيور التى هربت من بين أعواد القصب فى البرك والأحواض وقد روعها صوت القارب القادم ، ورأوا وجهى العاشقين شاحبين يستند كل منهما على الآخر ، وقد أذهلتهما التيه والضياغ ، ينجران إلى مجهول لا عودة منه . أبدعت

إدنا فى الوصف بعد أن لعبت الشمبانيا الباردة برأسها تلك الليلة فانصاعت. لذكرياتها وأطلقت العنان لخيالها .

خارج البيت ، بعيدًا عن جو المدفأة المتقدة وضوء المصباح الخافت ، كان الليل يلسع الوجوه ببرودته ويشط الهمم بظلمته . أرسل الطبيب عباءته القديمة على صدره وأغذ الخيط إلى البيت عبر الظلام الثقيل . قال فى نفسه إنه أكثر دراية ببنى البشر من أى شخص آخر ؛ على علم بتلك الحياة الباطنية التى قلما تتبدى لكل ذى عينين . ندم على قبول دعوة السيد پونتليه ، فهو رجل طعن فى السن وفى حاجة إلى الدعة والطمأنينة . لم يكن يريد أسرار الآخرين تفرض عليه فرضًا . قال فى نفسه مدما :

أمل ألا يتعلق الأمر بأرويين ، أدعو الله ألا يكون الأمر متعلقًا بالسيد أرويين .

- ٢٤ -

كان لإدنا نقاش مع أبيها بدأ دافئًا رقيقًا ولم يلبث أن احتدم حول موضوع رفضها حضور حفل زواج أختها . لم يبد السيد پونتليه رغبة فى التدخل بينهما ، أو رغبة فى بسط نفوذه أو سلطانه . كان يتبع فى ذلك نصيحة الدكتور ماندليه الذى نصحه بأن يتركها تفعل ما تريد . أنحى الكولونيل باللائمة على ابنته ؛ لافتقارها إلى عاطفة النبوة ، وحب أختها ، واحترام الأب الخلق بأية امرأة . كانت حججه ثقيلة غير مقنعة . وقال إنه يشك فى أن تقبل جانيت منها أية أعذار ، وقد نسى أن إدنا لم يكن لديها أى من الأسباب التى

تدعوها إلى ذلك . وقال إنه يشك فى أن چانيت سوف تكلمها مرة أخرى ، وإنه متأكد من أن مارجريت لن تكلمها أبداً .

كانت إدنا سعيدة حين تخلصت من أبيها فى النهاية ، سافر بتياب الزفاف وهدايا العروس ومعطفه المبطن وإنجيله الذى لم يكن يمل القراءة فيه ومشروباته الحارة وأقسامه المملة . ذهب فى أثره السيد پونتليه ، وقال له إنه سوف يعرج إلى الحفل وهو فى طريقه إلى نيويورك ليسعى بشتى الطرق ، بالمال تارة وإظهار المودة تارة أخرى ، إلى أن يعوض العروس ولو قليلاً من آثار فعلة إدنا التى لا يفهمها . ولكن الكولونيل قال له :

- أجل ، إنك متساهل أكثر من اللازم ، متساهل جداً
يا ليونس ، أين سلطتك ؟ الإكراه هو ما تنصاع له إدنا وكل امرأة . إذلال المرأة والتقليل من شأنها هو الطريق الأوحـد
لأن تملك عليها أمرها . خذ نصيحتى .

ربما لم يكن الكولونيل يدرى أنه أوصل زوجته إلى قبرها بمثل هذا المسلك الذى ينصح به . وكان لدى السيد پونتليه ريب غامض فيما قاله له الكولونيل ، ولم يجد حاجة فى الإفصاح عنه فى تلك الساعة المتأخرة من النهار .

لم تكن إدنا راضية كل الرضى عن سفر زوجها وتركه المنزل مثلما كانت عند رحيل أبيها . وكلما اقترب اليوم الذى يتركها فيه إلى رحلة طويلة أصبحت أكثر ليئاً ورقة ، وتذكر عندئذ أوقات

كانت تحس فيها برعايته لها وارتباطه المتقد بها . وكانت هي تهتم بصحته وسعادته أيما اهتمام ! كانت تنطلق في الشقة تبحث عن ملابسه وتحضر له الملابس الداخلية الثقيلة ، مثلما كانت تفعل مدام راتجنول مع زوجها في ظروف كنتك . كانت تنتحب عندما يذهب ، وتدعوه حبيبها وصديقها العزيز ، وكانت توقن أنها سوف تشعر بالوحدة ليس بعد وقت طويل ، وتذهب وتلحق به في نيويورك .

ورغم كل شيء كانت تستسلم لفراقه وتشيع في حياتها طمأنينة عندما تجد نفسها وحيدة آخر الأمر . حتى الطفلان ذهبا إلى جدتهما . جاءت مدام بونتليه الكبيرة بنفسها وأخذتهما إلى أبرفيل مع خادمتهما الزنجية . ولم تجرؤ المدام العجوز على أن تقول لإدنا إن أخشى ما تخشاه أن يتعرض الطفلان للإهمال في غياب ليونس؛ إنها لم تجرؤ حتى على التفكير في ذلك . كانت مشتاقة إليهما وكفى . كانت تقول دائماً عندما كانت تلح في طلبهما إنها لا تريدهما أن يصبحا من « أطفال الرصيف » كانت تريدهما أن يألفا الريف وحياة الريف بترعه وغيطانه وأشجاره وحرته وانطلاقه، وهى أمور تعجب الصغار أيما إعجاب ! كانت تريدهما أن يدوقا طعم الحياة التى عاشها أبوهما وعرفها وعشقها عندما كان طفلاً صغيراً هو الآخر .

عندما وجدت إدنا نفسها وحدها فى النهاية ندت عنها تهيدة

صادقة تنم عن راحة أحست بها، وشعور غريب بيد أنه لذيد ملك عليها كيائها كله . راحت تجول فى حجرات البيت من حجرة إلى أخرى وكأنها تحاول اكتشافها لأول مرة فى حياتها . عادت تجلس على المقاعد والأرائك كأنها لم تجلس عليها من قبل أو تضطجع . ودارت أيضًا دورة حول المنزل تتقصى وتتأكد من أن النوافذ مغلقة والمصاريع موصدة . بدت لها الأزهار أشبه بالأصدقاء الجدد ، أقبلت عليها بألفة بادية ومحبة ، وجلست بينها فى حميمية طارئة أحست بممرات الحديقة رطبة تحت قدميها فأمرت الخادمة بأن تحضر لها خفها المطاطى . وهناك لبثت زمناً محنية تحفر الأرض حول النباتات أو تشذب الأوراق أو تلتقط أخرى ميتة . وخرج كلب الطفلين الصغير يسعى بين قدميها ويقف فى طريقها . أخذت توبخه تارة وتؤنبه تارة ثانية وتسخر منه وتداعبه تارة ثالثة . وجدت متعة فى استنشاق عبير الأزهار والأشجار، وفى رؤية الحديقة المتألقة تحت شمس الأصيل المرححة . قطفت إدنا جميع الأزهار المتألقة التى وجدتتها، وعادت بها إلى البيت، وفى إثرها الكلب الصغير .

حتى المطبخ اتخذ طابعاً مشوقاً جديداً على نحو لم تألفه إدنا من قبل . دلفت إليه لكى تصدر توجيهاتها للطاهية ، ولتقول لها إن الجزار سوف يحضر كمية أقل من اللحم ، وإنهم سوف يحتاجون إلى نصف كمية الخبز المعتادة، وكذلك من اللبن . والبقالة . أخبرت الطاهية بأنها هى نفسها سوف تكون مشغولة

جدًا فى غياب السيد پونتليه، ورجتها أن تأخذ بالها من كمية اللحوم المحفوظة .

فى تلك الليلة تناولت إدنا العشاء وحدها . غمرتها أضواء الشمعدانات وعدد قليل من الشموع التى استقرت وسط المائدة . وبعيدًا عن دائرة الضوء التى جلست إدنا فى وسطها بدت المائدة الضخمة وقورة غامضة . وقفت الطاهية بين يديها رهن إشارتها وهى مطمئنة على أنها أعدت وجبة شهية لسيدتها - قطعة من اللحم الطرى مشوية على هواها، وكأسًا من الخمرة القراح مع المارون - جلاسيه الذى تريده بالضبط . وزاد من رضاها ويهيجتها أنها تتناول هذا الطعام وهى ترتدى ثوبها الفضفاض .

تذكرت بشيء من الحنين ليونس والطفلين، تساءلت عما عساهم يعملون فى تلك اللحظة . مسحت بباطن يدها الرقيقة على ظهر الكلب الصغير وتحدثت معه فى ود بالغ عن إتيان وراؤول . اضطرب سعادة ودهشة بسبب هذه الملاحظات الحانية، وعبر عن سعادته وامتنانه بحركات ذيله السريعة ونباحه النحيف المتصل واحتياجه القوى .

جلست إدنا پونتليه فى المكتبة بعد أن فرغت من الغداء ومافتتت تقرأ من أشعار إمرسن حتى داعب الكرى عينها . اكتشفت أنها أهملت فى القراءة، وحزمت أمرها على أن تدرك ما فاتها وتقرأ بجدية الدارس ، وقد أصبح الوقت ملكها دون

غيرها تفعل به ما تريد . وبعد أن فرغت من حمامها الذى أنعش كل ذرة من ذراتها، دلفت إدنا إلى حجرة نومها . راحت تضم اللحاف المحشو بزغب البط إلى جسدها برقة حتى بدأ يحتاجها شعور بالاستسلام والاسترخاء لم تشعر به من قبل .

- ٢٥ -

عندما يطبق الظلام وتكاثف الغيوم تمسك إدنا عن العمل . كانت تحتاج إلى الشمس تدغدغ مشاعرها وتنعش حالتها النفسية المتداعية . لقد وصلت إلى مرحلة أحست عندها أنها لم تعد قادرة على أن تتلمس طريقها، أو تعمل، عندما تكون فى لياقتها النفسية، بالثقة القديمة . لم تكن تشغل بطموح أو تأبه بإنجاز، ولكنها كانت تجد المتعة فى العمل ذاته .

فى الأيام التى يتساقط فيها المطر أو تجتاحها الكآبة ، كانت إدنا تخرج من المنزل لتبحث عن صاحباتها اللاتى عرفتهن فى جرانند أيل، أو تقرر فى بيتها تحاول أن تدفع عن نفسها تلك الكآبة التى تلم بها وتعكر عليها صفاء عقلها . لم تكن تعاني من يأس أو قنوط، وإنما هو إحساس بأن الحياة على وشك الرحيل دون أن تنفى بما وعدت به . ومع ذلك كانت تجيء أيام تصغى فيها إلى صوت الروح يبشرها بعود جديدة سوف تنجز وآمال يحملها إليها شبابها الغض .

عرجت على مضمار السباق غير مرة وذات أصيل دعاها ألسيه

أرويين ومدام هايكامب إلى عربة أرويين . كانت مدام هايكامب سيدة شقراء فى الأربعين من عمرها خبيرة بشئون الحياة ، ولكنها لا تتكلف ولا تتصنع ، نحيفة الجسم طويلة القامة، معتدلة فى أناعتها، يطل الذكاء من عينيها الزرقاوين اللتين تحدقان فى كل ما تنظر إليه . كان لها ابنة تتخذها ذريعة لحضور مجتمعات الشباب، وكان ألسيه أرويين من هؤلاء الشباب . كان وجهها مألوفاً فى حلبات سباق الخيل وحفلات الأوبرا والنوادي الراقية كانت عيناه تنطلقان بابتسامة مستمرة، لا ينظر إلى أحد من الناس أو يتحدث إلى أحد من الناس بصوته المرح إلا ويبادله ابتسام بابتسام ومرح بمرح . كان هادئ الطبع لا يحتدم أو يحتد إلا فيما ندر . كان حسن الصورة باش الوجه لا يثقل كاهله بعميق تفكير أو خفى شعور ، وأما أناعته فكانت تقليدية لا تكلف فيها ولا تصنع .

عبر عن إعجابه الجرم بإدنا حين قابلها مع أبيها فى حلبات السباق . كان قد قابلها قبل ذلك فى مناسبات أخرى ، ولكنها بدت فى ذلك الوقت عصية على المفاتحة . اليوم يوم مختلف . ولكن أثار حفيظته أن طلبت مدام هايكامب منها أن تذهب معها إلى نادى الفروسية لمشاهدة سباق الخيل الأهم فى ذلك الموسم .

ربما كان هناك من الحاضرين من يفهم فى سباقات الخيول مثل إدنا ، ولكن لم يكن هناك بالتأكيد من يفهم أحسن منها فى

هذه الأمور . أخذت مقعدها بين مدام هايكامب والسيد أرويين
وهي واثقة بأنها المرجع فى هذا الأمر . سخرت من تظاهر أرويين
بالمعرفة وأسفت لجهل مدام هايكامب . لقد كان سباق الخيل
رفيقها وخليها منذ نعومة أظفارها . هواء الإسطبلات وعبق
العشب الأزرق فى مواقع تدريب الخيول تتعش فى ذاكرتها
وتتردد فى فتحتى أنفها . لم تدرك أنها كانت تتحدث مثل أبيها
بينما تسير أمامها الخيول المدربة متمهلة فى أناقة وخيلاء فى
استعراض جميل . تورطت فى رهانات كبيرة ولكن الحظ
حالفها . سرت حمى اللعبة فى دماها التى تدفقت إلى وجتها
وعينيها ووصل إلى رأسها فأطربها . اشربأت إليها الأعناق
وراحت الآذان تنصت إلى ما تقول ، على أمل الفوز بفكرة تعينهم
على الفوز . وسرت عدوى الإثارة إلى أرويين فجذبته
كالمغناطيس إلى إدا . وظلت مدام هايكامب ساكنة لا تبدى
حراكًا كالعادة تحديق دون أن تفهم شيئًا وترفع حاجبيها دون
هدف .

بقيت إدا حتى تناولت الغداء مع مدام هايكامب نزولاً على
رغبة السيدة . وبقي أرويين أيضًا بعد أن أمر الخادم بأن يأخذ
العربة إلى البيت .

كان الغداء باعثًا على الملل لولا جهود أرويين الحثيثة فى أن
يضيفى جواً من المرح على الأشياء . أبدت مدام هايكامب

استياءها لغياب ابتها عن السباق، وأرادت أن تعرفها خسارتها عندما فضلت قراءة دانتي على اللحاق بهم فى السباق . كانت الفتاة تمسك وردة حمراء فى يدها وترفعها إلى أنفها ولم تقل شيئاً ، ولكنها كانت تبدو عارفة غير آبهة . كان السيد هايكامب رجلاً بسيطاً ذا رأس عاطل من الشعر، لا يتحدث إلا إذا طلب منه الحديث . كان يلزم الصمت ولا يستجيب بسهولة لكل حديث . أما مدام هايكامب فقد كانت تغمر زوجها بآيات المجاملة والاحترام فى حضور الآخرين . توجهت إليه بجمل حديثها أثناء تناول الطعام . وبعد العشاء جلسا فى المكتبة واشتركا فى تلاوة صلوات المساء على مرأى من ضوء يتدلى من السقف ، بينما جلست إدنا والسيد أرويين والأنسة هايكامب فى حجرة الجلوس وراحوا يتبادلون أطراف الحديث .

ضربت الأنسة هايكامب بعض القطع الموسيقية على البيانو للموسيقار النرويجى جريج . ولكن عزفها كان يفتقد إلى الشاعرية التى كان يتميز بها الموسيقار المعروف . وعندما سمعتها إدنا ظنت أن حاستها الموسيقية لم يعد لها وجود . وعندما حان وقت ذهابها إلى البيت عرض عليها السيد هايكامب باقتضاب أن يصحبها إلى بيتها وهو يلقى بنظرة سريعة على شبشه ، تشى بعدم اكتراف واضح . كان أرويين هو الذى صحبها إلى البيت . كانت المسافة بعيدة استغرقت وقتاً طويلاً حتى وصلا إلى شارع إسبلاندى .

استأذن أرويين فى الدخول لثانية حتى يتمكن من إشعال سيجاره - كانت علبة الكبريت لديه فارغة . وعندما تمكن من ملئها لم يشعل سيجاره إلا بعد أن غادر إدنا، وبعد أن عبرت له عن رغبتها فى الذهاب إلى السباق معه مرة أخرى .

لم تكن إدنا تشكو من تعب أو إرهاق ، ولم تكن فى حاجة إلى نوم . أحست بالجوع يعرضها من جديد . كان العشاء فى منزل السيد هايكامب جيداً من ناحية النوع، بيد أنه لم يكن يفى بالغرض من ناحية الكم . فتحت الثلاجة وأخرجت شريحة من اللانشون وقطعة من الخبز الناشف . فتحت زجاجة بييرة وجدتها فى الثلاجة الصغيرة . استحوذ عليها إحساس بالقلق والإثارة . أخذت تغغم على نحو خال من التعبير يلحن جميل وهى تدفع بجمرات الخشب إلى الموقد وتقضم قطع البسكويت .

كانت تريد لشيء ما أن يحدث - شيء وكفى، أى شيء ، دون أن تعرف ما هو . أحست بندم يخز جنبها لأنها لم تسمح لأرويين بأن يمكث نصف ساعة يتحدث معها عن الخيول والسباقات . راحت تحصى النقود التى ربحتها . ولكنها لم يكن لديها ما تفعله ، ولذا عمدت إلى فراشها وأخذت تتقلب على السرير ساعات وقد استبد بها قلق قض مضجعها .

وعند منتصف الليل تذكرت أنها نسيت أن تكتب الرسالة التى تكتبها إلى زوجها بانتظام . وقررت أن تكتبها عندما ينبج الصبح

وتخبره عن الوقت الذى قضته فى نادى الفروسية . لبثت مستلقية على الفراش وقد غادر الكرى عينها تنظر فى سقف الحجرة وتخط بخيالها رسالة لزوجها لم تكن هى الرسالة التى كتبها له فى اليوم التالى . عندما أيقظتها الخادمة فى الصباح كانت إدنا تحلم بالسيد هايكامب وهى تضرب على البيانو فى مدخل أحد المتاجر فى شارع القنال، بينما كانت زوجته تقول لألسيه أرويين بينما يهمان فى الصعود إلى عربة من عربات الترمواى فى شارع إسبلاندى :

- يا للأسف ، إن موهبة عظيمة أهدرها السيد هايكامب بإهماله ! ولكنى مضطرة إلى الذهاب .

وعندما زار ألسيه أرويين إدنا بعد ذلك ببضعة أيام لم تكن مدام هايكامب معه . قال لإدنا إنهما سيذهبان إليها لاصطحابها . ولكن مدام هايكامب لم تكن تعلم برغبة أرويين فى اصطحابها، ولذا كانت خارج البيت ، وكانت ابنتها تستعد لمغادرة البيت أيضًا فى طريقها إلى حضور اجتماع جمعية الفن الشعبى ، وقالت لهما إنها آسفة لأنها لم تستطع أن تكون فى رفقتهم . لم يبد على أرويين اهتمامًا بالأمر وسأل إدنا إذا ما كانت تعرف أحدًا آخر يمكن أن يذهب معهما .

رأت أن الأمر لا يستحق عناء البحث عن أية من سيدات المجتمع اللائى تركتهن فى جرائد أيل . تذكرت مدام راتجنول

ولكنها تذكرت أيضًا أن مدام راتجنول لم تكن تغادر بيتها إلا لتمشى ساعة حول البيت مع زوجها بعد حلول الظلام . أما الأنسة ريز فلن تقابل عرض إدنا إلا بالسخرية . ربما لن تمنع مدام لبرن ولكن لأمر ما إدنا لا تريدها . ومن ثم ذهبت هي وأرويين وحدهما .

كانت إدنا سعيدة في صحبة أرويين ذلك المساء غاية السعادة . عادت إليها بهجتها وضحكاتها التي غابت عنها فترة من الزمن . بادلته أطراف الحديث كأنها تعرفه منذ زمن بعيد . كانت شخصيته سببًا في تلك الألفة السريعة التي وجدتتها لديه . كان خبيرًا في أحوال النساء ، يعرف كيف يدبر عندما يقبلن ويقبل عندما يدبرن .

بقي حتى جاء وقت العشاء فتناولاه معًا أمام المدفأة . تبادلوا الحديث والضحكات ، وقبل أن يهم بالذهاب أخبرها بأن الحياة كانت ستكون مختلفة لو أنه عرفها منذ سنوات . وفي صراحة ماكرة قال لها إنه كان في مبتدأ حياته شابًا شقيًا لا يأبه بنظام ، ولم يلبث أن رفع لها عن كم قميصه فأنحسر عن ندبة كانت في معصمه قال لها إنها بسبب طعنة أصابته من سيف في مبارزة في باريس عندما كان في التاسعة عشرة . وضعت يدها على أثر الجرح في معصمه الأبيض فانتابتها قشعريرة جعلت أصابعها تنقبض فضمت على يده بقوة دون وعي منها . أحس بضغط أظفارها على راحته . نهضت مسرعة واتجهت إلى رف الموقد وهي تقول :

- منظر الجروح أو الندوب يفزعنى ويسبب لى الغثيان، لم يكن من المناسب أن أنظر إليه .
- أرجو أن تصفحى عنى، لم أكن أعلم أنها تثير اشمئزازك .
- كان يقف قريباً منها، وكانت عيناه تنضحان بالجرأة مما أعادها إلى طبيعتها الأولى . رأى فى عينيها ما شجعه على أن يتناول يدها بين يديه ويبقى عليها برهة من الزمان قبل أن يقول لها تصبحين على خير بتردد واضح . سألها :
- هل ستذهبين إلى السباق مرة أخرى ؟
- قالت :
- لا ، يكفينى ما شاهدت منها . لا أريد أن أخسر كل النقود التى ربحتها، ولدى ما أعمله بعد أن يتحسن الجو بدلاً من ...
- عمل، عظيم، ألم تعدينى بأن أرى بعض لوحاتك ؟ أى صباح يمكننى أن أزور فيه مرسلك ؟ صباح الغد ؟
- لا !
- بعد الغد ؟
- لا، لا .
- آه، من فضلك لا ترفضى ! إننى أعرف فى هذه الأمور، وقد أقترح عليك شيئاً مفيداً .
- لا، تصبح على خير . لماذا لم تذهب بعد أن قلت

تصبحين على خير؟

ثم ارتفعت نبرة صوتها وهى تسحب يدها من بين يديه . ولكنها كانت تعرف أن كلماتها افترقت إلى الوقار والصدق، وعرفت أنه شعر بذلك .

- أنا لا أحب هذه الطريقة .

- أنا آسف . آسف إذا كنت قد سببت لك ضيقًا هل سببت لك إهانة أو ضيقًا؟ ماذا فعلت بالضبط؟

ولم يلبث أن عاجلها بانحناء ووضع قبلة رقيقة على يدها التى يمسك بها ولسان حاله يقول إنه لا يريد ليدها أن تغادر يده أبدًا قالت محتدمة :

- سيد أرويين، أنا مضطربة جدًا بسبب الإثارة التى شاهدتها فى السباق؟ ومتعبة جدًا . وقد أكون بطريقتى أوحيت لك بشيء ليس صحيحًا . أرجو أن تذهب الآن من فضلك .

كانت تتحدث فى نبرة رتيبة فاترة . تناول قبعته من فوق المنضدة ، ونهض وقد حول عينيه بعيدًا عنها ، وراح يراقب النار الآفلة فى المدفأة . لاذ بالصمت العميق برهة أو أكثر . وفى النهاية قال :

- إن طريقتك لم توح لى بشيء خطأ يا مدام پونتليه . مشاعرى هى التى ضللتنى . لم أستطع السيطرة على نفسى . كيف أكون قريبًا منك وأملك على نفسى أمرها؟! لا تظنى بى

الظنون ، لا تغضبى من فضلك . أرايت ؟ هأنذا أمضى بعد
أن سمعت أمرك . إذا أردت أن أذهب إلى الأبد فسأذهب
إلى الأبد ، وإذا أردت أن أعود عدت . أوه - ترغبين فى أن
أعود ، أليس كذلك ؟

ورماها بنظرة متوسلة أخرى لم تبد حياها أى رد فعل . كان
ألسيه أرويين يتقن التودد والخداع حتى لينطلى خداعه على
نفسه . ولم تكن إدنا تأبه لذلك . فعندما خرج وأصبحت بمفردها
ألقت نظرة أكية على ظاهر يدها لتتحقق من أن آثار القبلة عليها لم
تزل دافئة . أسندت رأسها على رف المستوقد وقاومت شعورًا
استحوذ عليها بأنها اقترفت خيانة فى غمرة جيشان عاطفى لم
تملك له ردًا ، أدركت جرم ما اقترفته دون أن تستيقظ من فتنه
وطغيانه . همست فى نفسها همسة غامضة لم تستطع أن تفهم منها
شيئًا : ماذا يقول عنى ؟

لم تكن تعنى زوجها ، كانت تفكر فى روبرت لبرن . بدا
زوجها فى تلك اللحظة شخصًا تزوجته دون أن يكون الحب سببًا
فى ذلك . أضاءت شمعة وصعدت إلى حجرتها . لم يكن ألسيه
أرويين شيئًا مذكورًا بالنسبة لها . ولكن حضوره وطريقته فى
التزلف والدفء الذى وجدته فى عينيه ومس شفثيه على يدها ، كل
ذلك كان له فعل المخدر على ذاتها المضطربة .

نامت نومًا متقطعًا تخللته أحلام تقدم ولا تلبث أن تدبر .

كتب ألسيه أرويين رسالة إلى إدنا تفيض صراحة واعتذارًا، ولكن الرسالة أصابتها بحيرة شديدة، ففي لحظة من الهدوء والتأمل قالت في نفسها إنه من السخف أن تأخذ مسلكه مأخذ الجد . شعرت أن الأمر كله يرجع إلى درجة وعيها بذاتها لا أكثر ولا أقل . فإذا تجاهلت رسالته لربما يعنى ذلك أنها أعطت أهمية لشيء لا يستحق . وإذا أجابته عليها فربما أوحى إليه بأنها استسلمت لتودده في لحظة من لحظات الضعف . الأمر كله لا يستحق، أن يقبل رجل يد امرأة لن يكون نهاية العالم . ولكن رسالته حرصتها آخر الأمر على أن تجيبه برسالة هادئة يختلط فيها الجد بالهزل ، وقالت له إنه يستطيع أن يعرج إلى مرسومها متى يشاء ومتى تسمح له ظروف عمله .

وأجاب على رسالتها بالحضور مباشرة إلى بيتها بكل ما لديه من سداجة محببة . ولم يمض يوم بعد ذلك دون أن تراه أو تجد ما يذكرها به . كان يجد الذرائع دائمًا حتى أصبح حضوره مدفوعًا بخضوع محجب وافتتان مضمحل . وطن نفسه على الإذعان لحالات غضبها ورضاها حتى اعتادت على وجوده وتوطدت بينهما درجة من الصداقة لم تك شيئًا في البداية ولكنها لم تلبث أن اشتدت . في بادئ الأمر كان يتحدث إليها بطريقة تثير دهشتها وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، ثم لم تلبث أن وجدت في طريقته متعة

وبهجة إذ كانت تخاطب جسدها الذى استيقظ من سباته هو الآخر .

كانت زياراتها للآنسة ريز أكثر الأشياء قدرة على تهدئة عواطفها وأحاسيسها المضطربة . كانت هذه الآنسة قادرة بما لها من شخصية خاصة على أن تخلص إدنا من عفريت الاضطراب الذى بدأ يسكنها فى الأيام الأخيرة . ذهبت إليها ذات مساء رغم أن الجو كان مضطرباً ينذر بسقوط الأمطار . صعدت إلى شقة العازقة وقد أصاب محبسها رذاذ من مطر خفيف . دخلت الشقة وهى ترتجف من البرد بينما كانت الآنسة تعين المستوقد على الاشتعال حتى يدفىء الحجرة ويساعدها على تسخين إناء الشيكولاتة بدت الحجرة لإدنا كثيفة وقذرة عندما دخلت . تمثال نصفى لبيتهوفن كاد التراب يحجب رأسه ينظر إلى إدنا فى تجهم وعبوس من فوق رف المستوقد . عندما رأتها الآنسة هتفت بها قائلة وهى تنهض من مكانها أمام المستوقد لاستقبالها :

- آه ! لقد أشرقت الشمس، الآن جاء الدفء والضوء ولا حاجة لاستخدام المستوقد .

أغلقت باب المستوقد فى عنف وأقبلت على إدنا تعينها على التخلص من معطفها المبتل وقالت لها :

- لقد أصابك البرد ؛ يبدو شكلك بائساً . حالاً سوف تنضج الشيكولاتة، ولكن هل تأخذين كأساً من البراندى ؟ لم أمس الزجاجة التى أحضرتها لى منذ أن أصبت بالبرد .

كانت الآنسة تلف حول حلقها قطعة من القماش
الناعم . كانت رقبته متصلة مما اضطرها إلى أن تمسك
برأسها بإحدى يديها . قالت إدنا وهي لم تزل تخلع
حذاءها وتزيل قفازها من فوق يديها المرتجفتين .
- سوف أتناول كأسًا من البراندى .

أفرغت إدنا كأسها فى حلقها كما يفعل الرجال ثم
تهاافتت على الأريكة المتداعية وقالت :
- أنسة ريز، سوف أنتقل من منزلى فى شارع إسبلاندى .
- آه !

لم تكن الآنسة مندهشة أو مهتمة بالأمر . لم تكن
تندهش من شىء أو تأبه بشىء . كانت تحاول إعادة
وردرات البنفسج التى تثبتها على شعرها . جذبتها إدنا إليها
وأخذت دبوسًا من رأسها وثبتت به ودرات البنفسج البالية
فى مكانها على رأس العازقة .
- ألسنت مندهشة ؟

- ربما، وأين ستذهبن ؟ إلى نيويورك ؟ أبرفيل ؟ إلى والدك
فى الميسيسيبي ؟ أين ؟
ولكن إدنا ضحكت وهى تقول :

- على بعد عدة خطوات من منزلى . فى منزل من أربع
حجرات قريب من هنا . إنه يبدو دافئًا ومريحًا وجذابًا للغاية

كلما مررت أمامه ؟ وهو إلى الآن ليس مؤجراً لقد مللت
العناية بهذا المنزل الكبير . إنه لا يروقنى ، لا يبدو بيتاً
بمعنى الكلمة فى نظرى إنه يتعبنى كثيراً ، ويضطررنى إلى
الإبقاء على عدد كبير من الخدم . لقد تعبت من التعامل
معهم .

- هذا ليس هو السبب الحقيقى يا حبيبتى . لا أجد مسوغاً
يجعلك تحكين مبررات كاذبة . أنا لا أعرف الأسباب
الحقيقية لتصرفك هذا ، ولكنى أعلم أنك لم تخبرينى
بالحقيقة .

ولم تعترض إدنا أو تحاول تسويغ ما تقول بيد أنها قالت :
- المنزل والمال الذى ينفق فيه ليس ملكى . أليس ذلك
سبباً كافياً ؟

قالت الأنسة وهى تهز منكيبها وترفع حاجبيها بخبث :

- المال مال زوجك و البيت بيت زوجك .

- آه ! لا فائدة من تضليلك . إذن دعينى أشرح لك : الأمر
مجرد نزوة ، ميل من ناحيتى لتغير حياتى . لدى بعض
النقود تأتىنى من ضيعة كانت تملكها أُمى يرسلها لى أبى
على أقساط . وكسبت مبلغاً لا بأس به من الرهان فى
السباقات ، وسوف أبدأ فى بيع لوحاتى . قال لى ليدبور إن
رسوماتى تزداد تحسناً مع الوقت ؛ يقول إنها تزداد فى

الإلتقان والتفرد . لا أستطيع أن أحكم بنفسى على نفسى ،
ولكننى أشعر أننى أتحسن من ناحية السرعة والثقة . أستطيع
أن أعيش فى البيت الصغير على القليل أو على لا شىء ، مع
خادمة واحدة . قالت لى العجوز سلتين التى كانت تزورنى
بين الوقت والآخر إنها مستعدة لأن تأتى لتعيش معى
وتخدمنى . أعلم أننى سوف أحب التجربة . الحرية
والاستقلال .

- وماذا يقول زوجك ؟

- لم أخبره إلى الآن . لم أفكر فى الموضوع إلا هذا
الصباح . طبعاً سوف يظن أننى جننت . وربما تظنين أنت
ذلك أيضاً .

وهزت الآنسة رأسها ببطء وقالت :

- لا أنهم حجتك إلى الآن .

ولم يكن ما تقوله إدنا مفهوماً تماماً حتى لها شخصياً ،
ولكن الأمور كانت وليدة لحظة من الصمت خلت فيها إلى
نفسها ، عرفت أن التوقف عن ولائها لزوجها معناه
الاستغناء عن كرمه وحده عليها . لم تكن تعرف ماذا
سيكون رد فعله عندما يعود . فليفهم ما يريد أن يفهم ،
وليعتنى التفسير الذى يريد ، ولكن مهما حدث فقد قررت
ألا تنتمى إلى أحد آخر غير ذاتها . قالت فى صوت مرتفع :

- سوف أدعو الناس إلى عشاء ضخم قبل أن أغادر المنزل
الكبير ! لابد من أن تأتي يا آنسة ريز .
سوف أعطيك كل ما تحبين من أنواع الطعام والشراب .
سوف نغنى ونضحك ونمرح .

ثم نددت منها تنهيدة بدت أنها قادمة من أعماق الصدر .
لو كانت الآنسة قد تلقت رسالة من روبرت خلال الفترة بين
زيارة إدنا الأولى لها والزيارة الثانية، لكانت سلمتها الرسالة دون
أن تنتظر منها استجداء . ولجلست أمام البيانو تضرب لها ما تريد
من القطع الموسيقية بينما تنهمك المدام الشابة فى القراءة .
كان الموقد الصغير يهدر وقد استعرت تحته النار، وكانت
الشكولاتة فى القدر تثر وتفرقع . تقدمت إدنا وفتحت باب
الموقد ، وإذا بالآنسة تنهض وتأخذ الرسالة من تحت تمثال بيتهوفن
النصفى وتعطيها إدنا التى أصيبت بالدهشة وامتلات عيناها
بالسعادة . وهتفت متعجبة :

- خطاب آخر ! بهذه السرعة ! أخبرينى يا آنسة : ريز هل
يعلم أننى أقرأ خطاباتة ؟

- أبداً وحياتك ! وإلا لغضب بشدة وتوقف عن الكتابة إلى ثانية
هل يكتب لك ؟ لا ، ولا سطرًا واحدًا . هل يبعث لك
برسالة ما ؟ لا ، ولا كلمة واحدة ، هذا لأنه يحبك يا مسكينة
ويحاول أن ينسلك ، طالما كان الأمل مفقودًا فى أن تسمعيه

أو تنتمى له .

- ولماذا تعطينى خطاباتك إذن ؟!

- ألم ترجينى لذلك ؟ وهل أرفض لك طلبًا ؟ أوه ! لا يمكنك خداعى .

وأقبلت الأنسة على البيانو الذى تعشقه وبدأت تعزف .
لم تبدأ إدنا فى قراءة الرسالة على الفور ، ظلت فترة تمسك
بها فى يدها ، بينما كانت الموسيقى تتسلل إلى مشاعرها
وتحكم السيطرة على كيائها كله . ومثلما ترسل الشمس
أشعتها إلى الأرض فينصرف الظلام ، بدأت الألحان تدفع
الأركان المظلمة فى روح إدنا وتغمرها بالضوء وكأنها تعدها
للفرح ، للسعادة الطاغية .

هتفت بالآنسة متعجبة بينما تركت الخطاب يسقط
على الأرض :

- أوه ! لماذا لم تخبرينى ؟! ثم وهى تمسك بيدى الأنسة
وترفعهما من فوق مفاتيح البيانو :

- ويحك ! إنك قاسية ! ماكرة ! لماذا لم تخبرينى بأنه سيأتى
قريبًا ؟

ليست هذه أخبار جديدة على أية حال .

إنى أعجب لعدم مجيئه حتى الآن .

سألت إدنا فى لهفة :

- ولكن متى ؟ متى ؟ كيف لا يقول متى يأتي ؟!
- قال إنه سيعود فى القريب العاجل . أنت تعرفين ذلك كما أعرف ؛ كل شىء فى الخطاب .
- ولكن لماذا ؟ لماذا يأتي ؟ أوه ، لو كان يعرف ...
- ثم التقطت الخطاب من على الأرض وقلبت صفحاته ظهورًا لبطن ، تبحث عن السبب الذى لم يقله .
- عندئذ قالت الأنسة ريز بعد أن استدارت بمقعدها ووضعت يديها النحيفتين بين ركبتيها وهى تمنع النظر فى إدنا التى كانت جالسة على الأرض وتمسك الخطاب بين يديها :
- لو كنت شابة وكان لى أن أحب رجلاً ، لأحببت الرجل ذا الأهداف الكبار والقدرة على تحقيقها ، رجلاً ترتفع قامته بين الرجال وهم يتطلعون إليه ويريدون أن يكونوا مثله . لو كنت شابة وكان لى أن أحب رجلاً لما أعرت اهتمامًا للرجل العادى ، ولما جعلته جديرًا بحبى وإخلاصى .
- الآن أنت التى تقولين الأكاذيب وتريدين أن تخدعيني يا آنسة ؟ أوريما لم تقعى فى الحب قبل الآن ولم تعرفى عنه شيئًا .
- واستمرت إدنا تقول وهى تمسك بركبتي الأنسة وتمنع النظر فى وجهها التى أدارته عنها قليلًا .
- هل تريدین أن تقولی لى إنك تعرفین لماذا تحب المرأة ؟

هل هى التى تختار ؟ هل تقول لنفسها : حسناً ! هاهو ذا رجل سياسة مشهور قد يصبح رئيس دولة فى يوم من الأيام وعلى أن أخطط للوقوع فى حبه . أو تقول : « سوف أقع فى حب هذا الموسيقار الكبير ؛ لأن شهرته على كل لسان ؟ » أو تقول : « رجل الأعمال الفلانى الذى يتحكم فى أسواق المال فى العالم هو الذى أريد أن أحبه ؟ » .
- أنت تسبئين فهمى عن قصد ياعزيزتى الملكة . هل تحبين روبرت .

قالت إدنا :

- نعم .

وجدت نفسها تعلن ذلك صراحة للمرة الأولى ، تألق وجهها بفرحة غامرة ظهرت فى الدم الأحمر الذى صعد إلى وجنتيها . سألتها صاحببتها :

- ولماذا تحبينه مع أنك لا يجب أن تفعلى ذلك ؟

وانتقلت إدنا لتجلس أمام الأنسة ريز التى تناولت وجه إدنا المخضب بين يديها . ثم قالت :

- لم ؟ قلت لى : لأن شعره بنى وينمو من عند صدغيه ؟ لأنه يفتح عينيه ويغلقهما ؟ ولأن أنفه كبير قليلاً ؟ لأن لديه شفتين وذقناً مربعاً ؟ ولديه أصابع لا يستطيع أن يعدلها من كثرة لعب اليبسبول بكل طاقته عندما كان شاباً ؟ لأن ...
قالت الأنسة وهى تفرق فى الضحك :

- باختصار لأنك تحببته وكفى . وماذا تفعلين عندما يأتى ؟
- أفعل ؟ لا شىء غير الشعور بالفرح والسعادة لإحساسى
أننى أعيش .

لقد غمرها هذا الإحساس منذ اللحظة، الإحساس، بأنها
تعيش لمجرد أخبار عودته القرية . انقشعت غيوم سمائها الكثيرة
التي كانت سبباً فى تعاستها وكآبتها منذ ساعات قلائل ، تألفت
روحها بفرحة طاغية وهى تمضى فى شوارع المدينة كمن يحتفل
بنصر جديد . توقفت لدى حلوانى اشترت منه علبة كبيرة من
الحلويات لطفلها فى أبرفيل . أدخلت بطاقة فى العلبة كتبت
عليها رسالة رقيقة تفيض بالقبلات الحارة .

وقبل العشاء كتبت إدنا خطاباً ساحراً وأرسلته إلى زوجها ،
تعبره بنيتها فى الانتقال إلى المنزل الصغير المجاور وذلك لفترة
صغيرة فقط ، وأنها ستقيم حفل عشاء قبل الشروع فى الانتقال ، وهى
تأسف لأنه لن يكون موجوداً ليشاركها هذه الرغبة ، ويساعدها فى
اختيار قائمة الطعام ويعينها على الترحيب بالضيوف . كان خطابها
يتألق بالمرح ويفعم بالبهجة .

- ٢٧ -

قال لها أروبين ذلك المساء :

- ماذا بك ؟ لم أرك بهذه السعادة من قبل !
كانت إدنا متعبة ومستلقية على أريكة أمام المدفأة . أجابته :

- ألم تسمع أن النشرة الجوية أخبرتنا بأننا سنشاهد الشمس قريباً جداً ؟

- وأذعن للسبب وهو يقول :

- حسناً ، هذا سبب معقول بما فيه الكفاية ، لن تعطيني شيئاً آخر إذا جلست طوال الليل أتوسل إليك .

جلس قريباً منها على مقعد منخفض ، وفى غمرة انشغالها بالحديث تسلمت يده إلى شعرها المنساب على جبينها . أبدت ارتياحاً للمسات أصابعه وأغلقت عينيها برقة صافية قالت له :

- سيأتى اليوم الذى ألملم فيه شتات نفسى فترة من الوقت وأفكر فى أمر نفسى ، أية امرأة أكون ، لأننى ، أكلّمك بصراحة ، لا أعرف من أنا . بموجب جميع دساتير العالم التى أعرفها ، أعد نفسى نموذجاً شريراً ، امرأة شيطانية بين النساء . ولكننى أحياناً لا أستطيع أن أقنع نفسى بذلك . يجب أن أوفر الوقت لكى أفكر فى الأمر .

قال لها وقد تسلمت أصابعه إلى وجتيها الدافئتين البضتين وذقنها المكتنزة :

- لا تفعلنى . وما الفائدة ؟ ولماذا تتعين نفسك بالتفكير فى هذا الأمر ما دمت أستطيع أن أقول لك أية امرأة أنت ؟
- لا تتعب نفسك ، سوف تقول لى إنك امرأة محبوبة فاتنة

بكل معنى الكلمة .

- لا ، لن أقول لك شيئاً من هذا القليل ، رغم أننى لن أكون كذاباً إذا قلته .

سألته وقد أرادت أن تحول دفة الحديث :

- هل تعرف الأنسة ريز ؟

- عازفة البيانو رأيتها ذات مرة ، وسمعت عن عزفها .

- أحياناً تقول أشياء على سبيل المزاح ولا تنتبه لها فى وقتها ثم تجد نفسك تفكر فيما قالت بعد ذلك .

- مثلاً ؟

- مثلاً قبيل مغادرتى بيتها اليوم وضعت يديها على عظمتى كفى وراحت تتحسسهما لثرى إذا ما كانت أجنحتى قوية أم لا ، وقالت لى : الطائر الذى يريد أن يحلق فوق سهل التقاليد والتحيز يجب أن تكون لديه أجنحة قوية . إنه لمشهد حزين أن نرى الضعفاء يسقطون وتنفد قواهم ويقعون على الأرض من جديد .

قال لها أرويين :

- أنا لا أفكر فى أى طيران غير عادى لم أفهم ما قالت لك جيداً لقد سمعت أن لديها خللاً فى عقلها .

أجابت :

- بالنسبة لى تبدو فى منتهى العقل .

- قالوا لى إن الناس لا يحبونها . لماذا فرضت أمرها الآن علينا وأنا أريد أن أتحدث عنك أنت ؟
هتفت إدنا وهى تمسك رأسها بين يديها :

- أوه ! تحدث عنى كما تشاء ، ولكن دعنى أفكر فى شيء آخر وأنت تتكلم .

- إنى أغار من أفكارك الليلة . إنها تجعلك أرق من المعتاد ، بيد أننى أحس أنها أفكار عاتمة ، وكأنها ليست هنا معى .

ولم تنبس بكلمة ولكنها نظرت إليه وحانت منها ابتسامة . كانت عيناه قريبتين من عينيها . مال ناحية الأريكة وقد امتدت يده وراء ظهرها ، بينما كانت اليد الأخرى مستقرة على شعرها . استمر ينظر كل منهما فى عين الآخر . وعندما أقبل عليها وقبلها تشبثت برأسه وأبقت شفثيه على شفثيها .

كانت القبة الأولى فى حياتها التى استجابت لها جميع خلجات جسدها . كانت بمنزلة الشعلة المتقدة التى اضطربت لها رغبتها .

- ٢٨ -

بكت إدنا قليلاً تلك الليلة بعد أن غادرها أرويين . انتابتها نوبة من العواطف المركبة اضطرب لها كيائها كله . استحوذ عليها شعور طاغ بأنها لا تقدر المسئولية ، زاد من وطأته تصرفها الغريب مع أرويين وتوبيخ زوجها الذى يطل عليها من كل ما تراه حولها ،

من جميع الأشياء التى كانت تمنحها وجودها الظاهرى ، وتوينخ روبرت الذى تشعر به من جراء ذلك الحب الذى بدأت تشعر به تجاهه طاغيًا مسيطرًا لا يتراجع . وفوق هذا وذاك ، كان هناك الوعى . شعرت كأن غشاوة انقشعت من فوق عينيها فبدأت تتأمل الحياة وتفهم معناها ، ذلك الوحش المصنوع من الجمال والقسوة . ولكن مشاعر الخجل وتأنيب الضمير لم تكن من بين المشاعر التى جربتها إدنا تلك الليلة . فيما عدا الألم الذى وخزها من إحساسها بأن القبله التى أجبت رغبتها فى الحياة من جديد لم تكن قبله الحب ، لم يكن الحب هو الذى أمسك كأس الحياة وقربه من شفيتها .

- ٢٩ -

ودون أن تنتظر أى رد من زوجها على رسالتها فيما يتعلق برغبته أو رأيه فى الموضوع مضت إدنا فى إنهاء ترتيبات الرحيل من البيت الكبير فى شارع إسبلاندى والانتقال إلى البيت الصغير الذى لم يكن يتعد كثيرًا . كانت تتوقد لهفه وقلقًا فى كل عمل تعمله وكل حركة تقوم بها فى اتجاه الغاية . لم تتوان لحظة أو تتروى برهة ، لم تسترح أو تتوقف بين التفكير والتنفيذ . ولم ينقص الصباح وقد انتهت من رفقة أرويين ساعة أو ساعتين حتى أسرع إدنا فى الانتهاء من إعداد مقرها الجديد والاستعداد للإقامة فيه . فى بيتها انتاب إدنا شعور بأنها دلفت أبواب معبد محرم فسمعت آلاف الأصوات المكتومة تطالبها بالرحيل .

أخذت إلى بيتها الجديد كل ما كانت تملك ، وكل ما ادخرته من عطاء زوجها وسخائه واشترت بمالها الخاص بعض الأشياء القليلة . وعندما زارها أرويين في المساء وجدها في صحبة خادمتها تعمل في همة ونشاط وقد انحسر كماها عن ذراعيها البيضاء . كان وجهها منطلقاً بالسعادة وروحها ممتلئة بالقوة . لم تبد أجمل من ذلك قبل الآن في ثوبها الأزرق القديم وقد وضعت على رأسها منديلاً أحمر من الحرير ربطته كيفما اتفق ليحول بين شعرها وبين الأتربة . عندما دخل أرويين كانت تقف على سلم نقال طويل ، تحاول نزع صورة من جدار . لقد وجد الباب الأمامي مفتوحاً فدخل دون أن يعتد بالرسميات والتقاليد قال لها :

- انزلى ، هل تريدان أن تقتلى نفسك ؟

ولكنها حيته بلامبالاة مصطنعة وتظاهرت بالاهتمام في عملها .

لم يتوقع أن يجدها فاترة الهمة كثيرة التائب لمن حولها كثيرة الدموع . ولكنه كان مستعداً لطارئ كهذا ، متأهباً لمواجهة أى موقف من المواقف الأنفة ، مثلما كان قد وطن نفسه على مواجهة أى موقف . قال لها مصرّاً وقد أمسك السلم وهو ينظر إليها في موقعها المرتفع .

- من فضلك انزلى .

- لا ، إلين تخاف من صعود السلم . وچو يعمل فى بيت

الحمام - أو هكذا تسميه إلين ؛ لأنه صغير جدًا ويبدو مثل بيت الحمام فعلاً - وأنا أقوم بهذا العمل .

خلع أرويين معطفه وأظهر استعداداه لأن يركب الخطر بدلاً منها . أحضرت له إلين واحدة من قبعاتها التي ترتديها لحماية شعرها من الأتربة ، وأغرقت إلين في الضحك عندما رأته يرتديها أمام المرأة بطريقة تبعث على الضحك . إدنا نفسها لم تستطع أن ترد ابتسامة استقرت على شفتيها . وجاء دوره للصعود على السلم ، يفك الصور والستائر من فوق الجدران ويزيل الزخارف كما طلبت منه إدنا . وعندما فرغ من عمله خلع قبعته واتجه صوب الحمام ليغسل يديه .

كانت إدنا جالسة على مقعدها المنخفض تنظف البساط بأطراف مصنوعة من الريش في كسل شديد عندما دخل أرويين مرة أخرى وسألها :

- وماذا عن العشاء ؟ المناسبة الكبيرة ، الحدث الحاسم ؟

- سيكون بعد الغد . لماذا تسميه الحدث الحاسم ؟ نعم ،

سيكون حفلًا بديعًا ؛ سأعرض أحسن ما عندي من كل

شيء - الكريستال والفضة والذهب والخزف الفرنسى

الجميل والموسيقى وسوف أجعل الجميع يسبحون فى

الشمبانيا . ليونس هو الذى سيدفع الحساب . إنى فى حيرة

من رد فعله عندما يرى الفواتير .

- ثم تقولين لى بعد ذلك لماذا أسميه الحدث الحاسم ؟
- ارتدى أرويين معطفه من جديد ووقف أمامها وسألها
- إذا ما كان قد أحسن ارتداء رابطة عنقه وأخبرته بأنها
- مناسبة . لم تكن إدنا تتجاوز ياقة قميصه .
- ومتى تذهبين إلى بيت الحمام ؟ مع الشكر لإلين .
- بعد الغد ، بعد حفل العشاء . سوف أنام هناك .
- إلين من فضلك ، هل تحضرى لى كوتًا من الماء ؟ الأتربة
- فى الستائر جعلت حلقى مثل رقاقة البطاطس المقلية .
- قالت إدنا وهى تنهض :
- سأضطر إلى أن أقول لك مع السلامة بعد أن تحضر لك
- إلين الماء . على أن أنتهى من هذه الفوضى ، ولدى مليون
- عمل ومليون شىء أفكر فيه .
- قال لها أرويين وهو يسعى لاحتجازها برهة بعد أن غادرت
- المخادمة الحجرة :
- ومتى أراك ؟
- فى حفل العشاء ، أنت مدعو بالطبع .
- ليس قبل ذلك .
- الليلة أو صباح الغد أو غدًا ظهرًا أو ليلاً
- أو حتى بعد الغد ، أو ظهر بعد الغد . ألا تعرفين ؟ سوف
- يمر الوقت بطيئًا لا أحتمله .

- وتبعها إلى الصالة حتى أول درجات السلم ، وهو يتطلع إليها بينما كانت تصعد الدرج وهي تنظر إليه بنصف وجهها .
- ولا ثانية قبل ذلك .

ولكنها ضحكت ونظرت إليه بعينين شجعتاه في الحال على التراجع عن الذهاب .

- ٣٠ -

رغم أن إدنا كانت تقول إن حفل العشاء سيكون حفلًا كبيرًا فإن الحفل كان في الواقع محدودًا للغاية ومقصورًا على فئة بعينها من الناس . اختارت ضيوفها بعناية فائقة . قدرت أن تتسع مقاعد مجلسها المستديرة المصنوعة من خشب الماهو غاني لاثني عشر ضيفًا . ولم تقدر أن مدام راتجنول كانت تعاني من تعب شديد ، ولم تكن تقدر أيضًا أن المدام لبرن سوف ترسل لها ألف اعتذار واعتذار عن عدم الحضور في آخر لحظة . وكانت النتيجة أن عدد الضيوف لم يزد على العشرة مما جعل الحفل أكثر دفئًا وحميمية . حضر السيد ميريمان وزوجته ، سيدة أنيقة الملبس رشيقة الجسم مرحة مفعمة بالنشاط ، في الثلاثين من عمرها . كان زوجها مرحًا أيضًا خفيف الظل لا يتمتع بذكاء كثير ، يغرق في الضحك عندما يسمع نكتة أو يشارك في دعاية مما زاد من شعبيته وحب الناس فيه . حضرت مدام هايكامب ، وكان ألسيه أروبين

بين الحاضرين بطبيعة الحال ، كانت الأنسة ريز قد لبثت الدعوة وأرسلت لها إدنا حزمة من نباتات البنفسج لتزين بها شعرها . أما السيد راتجنول فقد جاء وقدم اعتذار زوجته . حضر فكتور لبرن الذى كان وجوده فى المدينة مصادفة وكان حضوره رغبة منه فى التغيير ، لى دعوة إدنا فى لهفة وفرح . حضرت الأنسة ماييلنت التى تعدت سنوات المراهقة وتنظر إلى العالم من خلال نظارة سمكة واهتمام بالغ . كان الناس يعدونها مفكرة لما كانوا يرونه من ذكائها ورجاحة عقلها . كانت تكتب فى الصحف تحت اسم مستعار . حضرت الحفل فى صحبة رجل من الوجهاء يدعى جوفرنيل يعمل فى صحيفة يومية ، لا يميز شخصيته شىء غير أنه بدا مسالماً هادئ الطبع شديد الملاحظة . لم يكتمل عدد العشرة إلا بإدنا نفسها وما جاءت الساعة الثامنة والنصف حتى أخذ كل مقعده على المائدة : مدام راتجنول على يمين إدنا وألسيه أرويين على يسارها .

جلست مدام هايكامب بين أرويين وفكتور لبرن ، ثم جاءت مدام ميريمان والسيد جوفرنيل والأنسة ماييلنت والسيد ميريمان ، وجلست الأنسة ريز إلى جوار السيد راتجنول . كانت المائدة مرتبة حسنة المظهر رائعة الزينة عليها مسحة من فخامة ترجع إلى الغطاء الأصفر الخفيف المصنوع يدويًا من أشغال الحرير ، يتوسطها شمعدان نحاسى كبير تتلأأ أضواء شموعه فى خفة ورقة

تحت أغطية رقيقة من الحرير الأصفر وعلى مشهد من عدد كبير من الأزهار التي راحت توزع عيبرها الفواح على الحاضرين والحاضرات . كانت المائدة تزdan بالأواني الفضية والقطع الذهبية التي جلبتها إدنا خصيصاً لهذه المناسبة، وكذلك قطع الكريستال التي كانت تتلألأ فتستجيب لها قطع الذهب التي تحلى آذان النساء وأعناقهن ومعاصمهن . تخلصت إدنا من مقاعد السفرة القديمة واستبدلت بها مقاعد وثيرة فاخرة كانت تنتشر في أرجاء البيت الكبير وحجراته الفسيحة . ولصغر حجمها وضعت الآنسة ريز بعض الوسائد على مقعدها مثلما يفعل الأطفال عندما يضعون الوسائد على المقاعد حتى يصلوا إلى المائدة . ألقت الآنسة ماييلنت نظرة إعجاب على قطع الماس التي كانت تزين بها إدنا شعرها ، كانت الماسات تلمع على رأس إدنا وعلى مقربة من جبينها .

- أشياء جديدة يا إدنا ؟

قالت إدنا :

- جديدة تمامًا ، فى الواقع هى هدية من زوجى . وصلتنى اليوم من نيويورك . وأريد أن أعترف لكم أن هذا هو يوم ميلادى ، وأنى الآن فى التاسعة والعشرين . وأريدكم الآن أن تشربوا نخبى ، وأطلب منكم فى الوقت نفسه أن تبدءوا بهذا الشراب المختلط ، هل يمكنكم أن تقولوا مختلط ؟ ثم

وهي تنظر إلى الأنسة مايبلنت : « أبى الذى صنعه خصيصًا
بمناسبة زواج أختى چانيت » .

وأمام كل ضيف من الضيوف وضع كأس صغير بدا فى
لونه وتألّقه أشبه بجوهرة من العقيق الأحمر . تكلم أرويين :
- إذن أنت عملت حساب كل شىء ، ولكنى أرى أن الأوفق
أن نشرب نخب الكولونيل لأنه هو الذى ألف الشراب فى
عيد ميلاد أجمل سيدة فى العالم - الابنة التى أبدعها .

وكانت دعابة أرويين سببًا فى انفجار السيد ميريمان بالضحك
الذى سرت عدواه إلى باقى الحضور الذين لم يعودوا إلى هدوئهم
وصمتهم بعد ذلك واستأذنت الأنسة مايبلنت فى أن يظل كأسها
دون أن تشرب منه قاعة بالنظر إليه . قالت إن لونه يعجبها جدًا
ولا تضاهيه بأى لون آخر ، وإن الأضواء العقيقية التى يتلألأ بها من
النوع النادر . وقالت أيضًا إن الكولونيل فنان عبقرى وأكدت
ذلك .

ولكن السيد راتجنول كان يأخذ الأمور مأخذ الجد : الأطباق
والمائدة وما حوله من زخارف وحتى الناس . تحول إلى أرويين
وسأله إذا ما كان قريبًا لمحام شهير يدعى لاتنر . وقال له الشاب
إن لاتنر صديقه الحميم ، وهو الذى كتب اسم أرويين على واجهة
مكتبه وزين به لافتاته التى تزين شارع بيرديدو .

- إن « البلد يمتلئ بالفضوليين الذين يسألون عن عمل المرأة

وأردت أن أبدو ذا عمل محترم .

اتسعت عينا السيد راتجنول قليلا ثم مال ناحية الأنسة ريز وسألها عن حفلات الموسيقى السمفونية التى شاهدها، هل كانت على مستوى الإعداد لها ؟ وردت الأنسة ريز بالفرنسية على أسئلة السيد راتجنول مما عدته إدنا أمرا بعيدا عن حسن الأدب ولكنه ظريف . لم يكن عند الأنسة غير الانطباعات السيئة بشأن حفلات الموسيقى السمفونية، وبعض التعليقات التى تحط من قدر الموسيقيين فى نيو أورليانز وتسخر منهم فرادى ومجتمعين . لقد كان جل اهتمامها منصبيا، أو هكذا بدا، على الأطباق الشهية التى وضعت أمامها .

قال السيد ميريمان إن ملاحظة السيد أرويين عن الفضوليين من الناس تذكره بذلك الرجل الذى قابله بالأمس فى فندق القديس تشارلز - ولم يستطع السيد ميريمان أن يمضى فى روايته إلى نهايتها بسبب زوجته التى كانت ترى أن حكاياته تعوزها الحيوية أغلب الأحيان . قاطعته لتسأله عن اسم ذلك المؤلف الذى ابتاعت كتابه الأسبوع الفائت لكى ترسله إلى صديقة لها فى جنيف . كانت تتحدث مع السيد چوفنيل - حول الكتب تريد أن تقف على رأيه حول الأدب وموضوعاته هذه الأيام . أما زوجها فقد أخذ على عاتقه سرد قصته للأنسة مايبلنت التى تظاهرت بالإصغاء الشديد والإعجاب أيضا .

أما مدام هايكامب فقد تظاهرت بشيء من الاهتمام لحديث جاراها الذى يجلس على يسارها، فكتور لبرن، وهو ماض فى هزله لا يلوى على شيء . لم تهمله لحظة واحدة منذ أن جلست إلى جواره على المائدة، وحتى عندما استدار ناحية مدام مريمان التى كانت أكثر منها أناقة وحيوية، كانت تنتظر الفرصة السانحة لكى تعيده من جديد إلى عالمها . كان صوت آلة المندولين يغازل آذان الجالسين بين الحين والآخر، صوت رقيق لا يقطع الحديث ولا يتطلب انتباهًا خاصًا، يختلط مع صوت تطاير المياه من نافورة قريبة، كان صوتًا رتيبًا ناعمًا يخترق الجدران والنوافذ ليحط على رؤوس الأشهاد محملاً بعبق الياسمين القادم عبر النوافذ المفتوحة .

كانت إدنا جالسة يلمع فستانها الطيلسانى بلون الذهب ، ينتشر عن يمينها وشمالها فى ثنيات أنيقة وطيات رقيقة، يصفى وميضه على الضوء نورًا يضاف إلى نور المصابيح . يزدان أعلاه بشريط زينة شفاف يطوق منكبها كما يطوق السوار المعصم فى لون جلدها دون بريقه ودون مالا يحصى عددًا من بقع الألوان الأصلية التى تنتشر على الصفحة البيضاء للجسد النابض بالعافية . فى هيئتها شيء ما يخلب الأبواب، وفى مظهرها حين تميل برأسها إلى الخلف لتستند على مقعدها العالى وتنتشر ذراعيها سحر الأميرات، وجمال الملكات، وتسلط من ملكت أمر القلوب وسحرت العقول .

ولكنها وهى تجلس بين ضيوفها كانت تحس بوخز الهم
ينخس جنبها الأيسر، وبألم القنوط يقض المضجع ولا يبرحها إلا
لكى يعود إليها من جديد، كزائر لا ترغب فى رؤيته يلح على
زيارتها، زائر لا قبل لها بدفعه أو رده . زفير فاتر يخرج من
أعماقها محملاً بعلامات الحزن فتستجيب له الضلوع بالوجيب .
الحنين الشديد يأخذ بتلابيب روحها فتستحضر شبح الحبيب
الغائب، عندئذ يستولى عليها إحساس اللقاء المستحيل .

كانت اللحظات تمر كالأرانب المذعورة، بينما الحضور
سادرون فى لهوهم ومزاحهم لا يحول بينهم شئ . وكان السيد
راتجنول أول من يطلق النكات فتستجيب له الأفواه بالضحك
والقلوب بالمرح . وعندما جاءت الثامنة استأذن بالرحيل . كانت
مدام راتجنول فى انتظاره فى البيت . كان قلبها يمتلىء بخوف
غامض لا يخفف من وطأته غير حضور زوجها .

نهضت الأنسة ريز مع السيد راتجنول الذى أبدى استعداداه
لاصطحابها إلى سيارتها . لقد ملأت معدتها بالطعام؛ وشربت من
الخمير حتى تجاوزت ضلوعها وبدأت رأسها تميل . أخذت تودع
الحضور بالانحناءات المتتالية وهى تغادر المائدة . عاجلت إدنا بقبلة
على منكبها وهى تهمس فى أذنيها : «تصبحين على خير يا ملكتى،
مع السلامة» . وهى تنهض اختل توازنها، أو قل وهى تنزل من فوق
وسائدها . مد لها السيد راتجنول يده فى تودد وصحبها إلى الخارج .

كانت مدام هايكامب تنسج إكليلاً من الزهور الصفراء
والحمراء . وعندما فرغت من عملها وضعت برقة على خصلات
شعر فكتور السوداء . كان يضطجع على كرسية الوثير فى نشوة
واضحة ممسكاً بكأس من الشمبانيا فى محاذاة أحد المصابيح .
وكانما قد مسته عصا ساحر ، حوله إكليل الزهور حين وضع
على رأسه إلى صورة بديعة من صور الجمال الشرقى . تحول لون
وجتيه إلى لون العنب المسحوق . وتألفت عيناه اللتان فى لون
الغسق بيريقي خافت . هتف أرويين بالفرنسية :

- يا إلهى !

ولكن مدام هايكامب أرادت أن تضيف لمسة أخرى على
الصورة . تناولت من خلف مقعدها وشاحاً من الحرير الأبيض
كانت تضعه على منكبيها فى ساعات المساء الأولى . وضعت على
عائق الصبى فى طيات ساحرة حتى لم يظهر شيء من زيه المسائى
الأسود . أما هو فقد تظاهر بعدم الاهتمام إلا بابتسامة لاحت من
بين شفتيه دل عليها بريق خفيف من أسنانه وهو يواصل التحديق
بعينين تزددان ضيقاً فى الضوء من خلال كأس الشمبانيا الذى
يمسك به . هتفت الأنسة ماييلنت وهى ترمقه بالإعجاب وقد
تاهت فى حلمها العاطفى .

- الآن تستطيع أن ترسم بالألوان عوضاً عن الكلمات !

وهمس چوفرنيل من بين أسنانه :

ثمة صورة للرغبة مرسومة بدم أحمر على خلفية من ذهب .
مالت الخمر برأس فكتور فبدا جنوحه إلى الصمت أكثر من
جنوحه إلى المزاح . بدا أنه قد أسلم نفسه إلى حلم غامض ، وبدا
أنه يشاهد رؤوس بهيجة على حبات مسبحة الكهرمانية .

قالت مدام هايكامب متوسلة :

- ألا تريد أن تغنى لنا ؟

وقالت له مدام مريمان وهى تضحك :

- أنا أعتقد أنه مشلول .

ثم أقبلت على مقعد الصبي ، وتناولت من بين يديه
الكأس وقربت من شفثيه . طفق يرتشف الخمرة قطرة قطرة
ببطء شديد ، وما كاد يفرغ منه حتى أخذته من بين يديه
ووضعت على المائدة ومسحت شفثيه بمنديلها الصغير
الشفاف . عندئذ استدار بمقعده ناحية مدام هايكامب
وقال :

- أجل سأغنى لك .

أرسل يديه خلف أذنيه واتجه بعينه إلى سقف الحجرة
وبدا يهمهم قليلا ، وكأنما هو يجرب صوته مثل عازف
يجرب أوتار عوده . وبدأ صوته يرتفع بالغناء وعينه فى
اتجاه إدنا :

وضعت إدنا الكأس على المائدة بسرعة وعصبية فاصطدم

الكأس بالإبريق وكاد يحطمه . انسكبت الخمر على ساقى أرويين
وزهدت بعض قطرات منها إلى ثوب السيد هايكامب الأسود
الشفاف . أما فكتور فلم يدر بخلده أن يجامل إدنا أو قل إنه لم
يكن يدرك أن مضيفته كانت جادة فيما قالت ، فقد أغرب في
الضحك واستمر يقول :

- آه لو كنت تعرف ما تقول لى عيناك !

عندئذ هتفت إدنا وهى ترجع بمقعدها إلى الورااء وتهم
بالنهورض وتضع يديها على فمه :

- كفى ! كفى ! لا تكمل . . . !

أخذ فكتور يقبل باطن يديها البضتين اللتين تلتصقان
بشفتيه . وقال لها وهو يحدق فى وجهها بعينين
ملاطفيتين :

- فهمت ، فهمت يا مدام پونتليه ، لم أكن أعرف أنك تعنين
هذا حقًا .

أحست بمس شفتيه على يديها مثل لدغات الحبيب .
رفعت إكليل الزهور من فوق رأسه وقذفت به فى أرجاء
الحجرة وهى تقول :

- تعال يا فكتور ، لقد جلست بما فيه الكفاية ، رد لمدام
هايكامب وشاحها .

تناولت مدام هايكامب الوشاح من فوق جسد فكتور

بيديها ، وفهمت الأنسة ماييلنت والسيد چوفر نيل أن الوقت قد حان للذهاب ، واستغرب السيد ميري مان وزوجته كيف أن الوقت قد مر بسرعة فائقة . وقبل أن تغادر دعت مدام هايكامب لزيارة ابنتها التي تعرف أنها سوف تفتن به وبالحديث معه بالفرنسية . وأبدى فكتور استعداداه ونيته لزيارة الأنسة هايكامب فى أول فرصة سانحة .

كان عازفوا المندولين قد تسلموا قبل الحضور جميعاً . غرق الشارع الواسع الجميل فى صمت عميق . كانت الأصوات الصادرة من ضيوف إدنا المنصرفين أشبه بالأحان شاذة فى إيقاع الليل الهادئ .

- ٣١ -

لم يبق غير أرويين بعد أن غادر الجميع .

- حسناً .

- حسناً .

ردت إدنا بالكلمة نفسها ، ونهضت وهى تمد ذراعيها تريد أن تصدر إليه الإحساس بأنها تريد أن تأخذ راحتها وترخى عضلاتها بعد أن جلست كثيراً على المقعد . سألتها :

- وماذا بعد ؟

- لقد ذهب الخدم ، غادروا مع العازفين . صرفتهم قبل الجميع . لابد من أن تكون جميع أبواب المنزل مغلقة .

وعلى أن أذهب إلى برج الحمام لأتأكد من طعامه .
جال بعينه فى المكان وبدأ يطفى الأنوار وسألها :

- وماذا عن الطابق الأعلى ؟

- أظن أن الأمور هناك على مايرام ، فيما عدا نافذة أو اثنتين
لم تغلقا . الأفضل أن نلقى نظرة . خذ شمعة وألق نظرة .
أحضر معك الشال والقبعة ، ستجدهما فى أسفل السرير فى
الحجرة الوسطى .

صعد أرويين إلى الطابق الأعلى وهو يمسك بالشمعة
بينما استمرت إدنا فى إغلاق الأبواب والنوافذ . لم تحب
أن تغلق النوافذ على بقايا أدخنة المدفأة وأبخرة الخمر .
وجد أرويين شالها وقبعتها وأحضرهما وساعدها على
ارتدائهما .

وعندما تم لهما غلق الأبواب ، وإطفاء جميع الأنوار ،
غادرا إلى الباب الأمامى ، أغلقه أرويين وأخذ المفتاح ،
وحمله إلى إدنا ، وساعدها أيضًا على نزول السلم . سألها
فجأة :

- ألا تريدان بعضًا من أزهار الياسمين ؟

- لا . لا أريد أى شىء .

بدت مثبطة الهممة ، لا ترغب فى الحديث . تناولت يده التى
قدمها لها وهو يساعدها على رفع ذيل فستانها الطويل باليد

الأخرى نظرت أسفلها فوجدت ساقيه يسيران على مقربة من ساقها تنأى إلى مسمعيهما صوت بوق قطار مار على مبعده من البيت، وأصوات أجراس منتصف الليل التى تطلق صفيها المهود . لم يصادفا أحداً فى مشوارهما القصير .

كان برج الحمام يقع وراء باب موصد وروضة بين أحواض الزرع عرصة للإهمال الواضح ، وشرقة أمامية صغيرة على متنها نافذة طويلة وباباً أمامياً مفتوحاً . كان الباب يفتح مباشرة على الردهة، لم يكن ثمة مدخل جانبى . وفى الخلف فى الفناء ثمة حجرة للخدم كان ينام بها العجوز سلسنتين .

رفعت إدنا مصباحاً قليل الضوء من فوق المائدة . لقد نجحت فى أن تجعل الحجرة تبدو صالحة للسكن ومريحة . ثمة كتب على المائدة وأريكة تتوسط الحجرة . على الأرض حصيرة صغيرة، تغطيها سجادة أو اثنتين ؟ وعلى الحائط علقت صور بهيجة ولكن الحجرة مليئة بالزهور كان ذلك مفاجأة لها لقد اشتراها أرويين وأمر الخادم بأن يوزعها فى أنحاء الحجرة فى غيابها . كانت حجرة نومها على مقربة من تلك الحجرة ، وكانت حجرة السفرة والمطبخ بعد ممر قصير . تهافت إدنا على الأريكة وقد تمكن منها التعب الشديد . سألها :

- هل أنت متعبة ؟

- نعم، متعبة، وأشعر بالبرد الشديد، وبأثمة . أشعر كأنه

قذف بى فى مكان سحيق . وأن شيئًا ما فى داخلى يقطع
جسدى .

وضعت رأسها على المنضدة متكئة على ذراعها العارية .
- تريدين الراحة، وتريدين الهدوء . سوف أذهب : سوف
أذهب لكى ترتاحى .

و أجابت :

- نعم .

توقف إلى جوارها ومسح على شعرها بيده الناعمة
مسحات رقيقة استجاب لها جسدها كله بالاسترخاء . كان
يمكن أن يسلمها إلى النوم لو أنه استمر فى إرسال تلك
المسحات الرقيقة على شعرها . كان يمسح على شعرها
من بداية مؤخرة رقبتها منتهيًا بخصلات شعرها الجميل .
قال لها :

- أتمنى أن تشعرى بالتحسن مع الغد . لقد أجهدت نفسك
خلال الأيام المنصرمة فى أشياء كثيرة، وكان العشاء آخر
الجهود الجبارة، لم أكن أرى له داعيًا .

- نعم، كان ذلك غباء منى .

- لا، لقد كان العشاء هو سبب البهجة، ولكنى أعنى أنه هو
الذى سبب لك التعب والإرهاق .

وضلت يده الطريق إلى منكبيها، وكان فى وسعه أن

يشعر برد جسدها للمساته الحانية . اقترب من مقعده أكثر
وطبع قبلة على كتفها ارتعش لها جسدها كله . قالت فى
صوت مرهق :

- كنت أظن أنك ذاهب .

- أنا ذاهب فعلاً ، ولكن بعد أن أقول لك تصبحين على
خير .

قالت هامسة :

- تصبح على خير .

ولم يجب تحيتها ، ولكنه تمادى فى الملاطفة . لم يقل لها
تصبحين على خير إلا بعد أن أصبحت ريشة فى الهواء تتقاذفها
رياح حديثه المعسول .

- ٣٢ -

عندما علم السيد پونتليه بنية زوجته فى هجر بيت الزوجية
والانتقال إلى مكان آخر كتب لها فى الحال خطاباً يعرب لها فيه
عن رفضه واستنكاره لمسلكتها . كانت قد أبدت له الأسباب التى
لم يستطع أن يقبلها ويقر بها . قال لها إنه يأمل ألا تكون قد
تصرفت بدافع من نزوة أو اندفاع ، وتوسل إليها أن تحسب حساباً
قبل كل شئ لما سوف يقوله الناس . لم يقصد أن زوجته كانت
فى طريقها إلى عمل فضيحة ، هذا لم يخطر له على بال نظراً لما
لزوجته من سمعة طيبة ولما له هو من سمعة طيبة . كان كل
تفكيره فى وضعه المالى وسمعته فى السوق . فقد يشيع بين الناس

أنه وزوجته قد صادفا الفشل فى حياتهما الزوجية ، وأنهما كانا مجبرين طوال الفترة الماضية على العيش معاً . حتى الآن . وهذا من شأنه أن يلحق الضرر الكبير بتجارته ومستقبله .

ولكنه عندما تذكر إدنا وما عرفه من اندفاع فى طبعها فى الآونة الأخيرة، توقع أن تتصرف كما كانت تفعل بوحى من هذا الاندفاع الغريب . ولكنه فهم الموقف كما يفهمه رجل الأعمال الناجح، وتصدى له بما لديه من براعة رجل الأعمال الناجح وحكمته .

لقد أرسل مع رجل البريد نفسه الذى حمل خطابه إلى إدنا الذى يخبرها فيه بعدم رضاه عن ما فعلت، رسالة أخرى إلى مهندس معروف تحمل تعليماته الدقيقة والواضحة؛ يقول له فيها إنه يرغب فى إعادة بناء بيته، أو إجراء التغييرات التى طالما حلم بها ، ويقول له أيضاً إنه يريد أن يجرى تلك التغييرات فى غيابه . استأجر المهندس خبراء فى نقل الأمتعة وكل ما فى البيت من أثاث وسجاد وصور وكل ما يمكن حمله إلى مكان أمين بعيداً عن التعرض للكسر . وفى وقت قياسى كان منزل پونتليه جاهزاً أمام الحرفيين ليعملوا فيه معاولهم وأدواتهم . اتسعت تلك الحجرات للأشياء التى لا يجرى عليها التغيير والهدم ، والأشياء التى ينبغى الاحتفاظ بها مثل اللوحات الجصية وخشب الباركيه .

أضف إلى ذلك أن السيد پونتليه أعلن فى الجريدة اليومية أن السيد ومدام پونتليه كانا ينويان السفر لقضاء الصيف فى مكان

بعيد، وأن منزلهما الأنيق فى شارع إسبلاندى سوف يخضع لتعديلات وتجديدات كثيرة ، ولن يكون جاهزا للسكن حتى عودتهما . لقد حافظ السيد پونتليه على مظهر الأسرة !

أعجبت إدنا بخطته ولم ترد أن تحبطها بأى حال من الأحوال . وعندما استقرت الأمور على النحو الذى أراه السيد پونتليه كانت راضية كل الرضى بما فعل . أصبح البيت الجديد مبعث سرورها وغبطتها . رآته قريبًا من نفسها وروحها بعد أن خلعت عليه من تألقها سحرًا وفتنة كما يفيض نور الجواهر على الأركان . انتابها إحساس بأنها نزلت درجة من درجات السلم الاجتماعى ، رافقه إحساس بأن روحها ارتقت درجة من درجات الوعى واليقظة . مع كل خطوة تخطوها نحو التحرر من الواجبات المفروضة والالتزامات المملة تكسب خطوة نحو القوة الروحية وبناء الشخصية . لقد بدأت ترى بعينها هى ، وتفهم وتعى خفايا الحياة وأسرارها العميقة . لم تعد تقنع بالتعويل على رأى الآخرين بعد أن أصبحت لها من شخصيتها وروحها ما تعول عليه .

بعد أقل من أسبوع ذهبت إدنا لتقضى أيامًا مع طفليها فى أبرفيل . كانت المدينة ترفل فى جو الربيع وتستعد لدخول الصيف اللوشيك . استولت عليها سعادة غامرة عندما رأت طفليها . ذرفت دموعها على وجنتيها من فرط السعادة عندما أحست بأبائيهما الرقيقة، تتعلق برقبتهما، ويخدودهما الوردية تصافح وجنتيهما

المتألفتين بالعافية . حذقت فى وجهيهما بعينين نهمتين
لا يشبعهما النظر . كانت جعبة الطفلين مليئة بالحكايات
والقصص عن الخنازير والأبقار والبغال ! وعن ركوب
الطاحونة والصيد فى البحيرة مع عمهما جاسبر، وعن التقاط
ثمار الجوز مع أطفال ليدى الزنجية وسحب قطع الخشب إلى
عربتهما، وأن جمع قطع الخشب الصغيرة لنار التدفئة الحقيقية
التي توقدها العمة سوزى العجوز أفضل ألف مرة من سحب الكتل
الخشبية إلى نار المائدة فى شارع إسبلاندى !

ذهبت معهما لترى بنفسها الخنازير والأبقار، لتتفرج على
الزئوج وهم يضربون عيدان القصب ويطرحونها أرضاً، ويهرسون
أشجار الجوز، ويصطادون الأسماك من البحيرة . عاشت معهما
أسبوعاً بكامله، أعطتهم من نفسها الكثير، ملأت روحها
بوجودهما الغض . استمعا إليها مندهشين عندما حكّت لهما أن
المنزل فى شارع إسبلاندى يزدحم بالناس والعمال الذين يعملون
فيه بمناشيرهم ومطارقهم ويملؤونه بالجلبة والفوضى . كانا
يريدان أن يعرفا أين يقع سريرهما الآن، وما حدث لحصانهما
الهزاز، وأين ينام جو الآن، وأين ذهبت إلين، والطباخة ؟ وقبل
كل شيء كانا يريدان رؤية المنزل الصغير الذى تسكن فيه أمهما
الآن . هل يتسع للبعهما ؟ هل ثمة أطفال فى البيت المجاور ؟ أما
راؤول، وبشئ من التشاؤم، فقد كان يشعر أن البيت المجاور
يتملى فقط بالبنات . ولكن أين سينامون بعد هدم البيت ؟ وأين

سينام أبوهما ؟ أخبرتهما بأن العفاريت سوف ترجع كل شيء إلى أصله .

كانت السيدة العجوز سعيدة لزيارة إدنا . غمرتها بكل صنوف الحفاوة والتكريم . وكانت سعيدة بأن عرفت أن بيت شارع إسبلاندى يخضع للهدم والتجديد الأمر الذى وفر لها الذريعة لأن تبقى الطفلين لديها أطول مدة ممكنة .

حزنت إدنا حزناً شديداً عندما اضطرت لتترك طفلها ، حملت معها أصدااء صوتهما يتردد بين جنبئها ، ولمسات وجئتئها تحس بها ناعمة رقيقة على يديها وصدرها . فى طريق العودة لم يكن الطفلان يغادران خيالها مثل لحن جميل يتردد صداه فى الذاكرة . ولكن صدى اللحن لم يعد يتردد فى روحها . عندما طالعت عيناها بيوت المدينة ومبانيها الشاهقة أصبحت وحدها من جديد .

- ٣٣ -

كانت إدنا أحياناً تذهب إلى الأنسة ريز ولا تجدها فى البيت ؛ تكون قد ذهبت لشأن من شؤونها ، أو لتعطى دروساً فى البيانو ، أو لتشتري حاجاتها المنزلية المتواضعة . وكانت الأنسة تضع المفتاح فى مكان سرى فى مدخل الشقة ، تعرفه إدنا وتأخذه لتفتح به الباب وتدخل وتنتظرها حتى تعود .

طرقت باب شقة ريز ذات أصيل ولم يجبها أحد . فتحت كما كانت تفعل فى الماضى فلم تجد الأنسة كما توقعت . كانت تنشد الراحة لدى صديقئها بعد يوم كامل من العناء ، هى الملاذ بعد أن

يكون الهم قد استولى عليها، وهى الملجأ حين تريد أن تتحدث عن روبرت وتعرف أخباره .

لقد أكنت منذ الصباح على إتمام صورة زيتية بدأت ترسمها منذ فترة كانت تنوى أن تكمل العمل دون أن يكون أمامها النموذج الذى ترسمه ، ولكن أكثر من طرق على الباب قطع خلوتها وحال بينها وبين الرسم ، البعض جاء لشأن من الشئون ، والبعض الآخر جاء لرؤيتها .

زارتها مدام راتجنول متجنبة الشوارع المزدهمة بالناس كما قالت . اشتكت من أن إدنا أهملتها فى الآونة الأخيرة، إلى جانب أنها جاءت مدفوعة برغبة شديدة فى رؤية البيت والطريقة التى تدار بها الأمور الجديدة . كانت تريد أيضًا أن تسمع منها كل شيء عن حفل العشاء المنصرم؛ لقد غادر السيد راتجنول قبل الجميع . ماذا حدث بعد أن غادر؟ أعجبها العنب والشمبانيا اللذين أرسلتهما إليها إدنا . إنها لا تأكل كثيرًا ولكن تلك الأشياء أنعشت شهيتها وأعادت الانسجام إلى معدتها . ترى أين موقع السيد بونتلييه من هذا المنزل الصغير؟ وأين سينام الطفلان؟ وبعد ذلك أعطت إدنا وعدًا بأنها سوف تزورها كلما أمكن لها ذلك ، قالت لها إدنا مؤكدة :

- فى أى وقت، فى أى وقت تشائين : من الليل أو النهار
يا عزيزتى .

وقبل أن تغادر قالت مدام راتجنول :

- بعض الأحيان أراك أمامي مثل طفلة يا إدنا . تتصرفين دون أن تفكرى جيدًا فيما أنت مقدمة عليه . وهذا هو السبب في أنني أريد أن أقول إنك لا يجب أن تعضبي إذا نصحتك أن تأخذي حذرك وأنت تعيشين هنا بمفردك . لماذا لا تجعلى أحد الناس يأتى ليمكث معك ؟ ولتكن الأنسة ريز مثلاً .

- لا ، إنها لا ترغب في ذلك ، وأنا لا أحب أن تكون إلى جوارى طوال الوقت .

- السبب في أنني أقول لك ذلك هو - وأنت تعرفين - أن العالم ملئ بالشر ، إن البعض يقول : إن السيد أرويين يزورك . طبعًا لم يكن ذلك لديهم لو أن السيد أرويين لا يتمتع بهذه السمعة السيئة . إن السيد راتجنول كان يقول لى : إن مجرد اهتمامه بامرأة يكفى لتدمير سمعتها نهائيًا . قالت إدنا بسرعة وهى تحدج الصورة بنظرة سريعة :

- وهل يفاخر بمغامراته مع النساء ؟

- لا ، لا أعتقد ذلك ، الرجل لطيف كما يقولون ولكن شخصيته معروفة جيدًا لدى الرجال أمثاله . قد لا أكون قادرة على العودة لزيارتك مرة أخرى يا إدنا ، لقد كان اليوم متعبًا بالنسبة لى .

صاحت بها إدنا :

- انتبهى للدرج !

قالت لها مدام راتجنول متوسلة :

- لا تهملينى تمامًا، لا تفكرى كثيرًا فيما قلته لك عن السيد أرويين أو أننى طلبت منك أن تأتى بأحد للجلوس معك حتى لا تكونى بمفردك .

قالت إدنا وهى تضحك :

- لا ، طبعًا ، يمكنك أن تقولى ما تريدين وفى أى وقت .
وبعد أن تعانقا غادرت مدام راتجنول . لم يكن أمامها مسافة طويلة لتمشيها . وقفت إدنا فى الشرفة تراقب مدام راتجنول وهى تتهاذى فى الشارع .

وفى المساء زارتها مدام هايكامب ومدام ميريمان فى وقت واحد . وكانت إدنا تشعر أنهما كان ينبغي عليهما أن يتخليا عن الشكليات الفارغة . جاءا لدعوتهما أيضًا لكى تلعب معهما (الكوتشينة) فى أحد الأمسيات فى منزل مدام ميريمان . طلبا منها أن تأتى مبكرًا، وقت تناول العشاء وإلا فسوف يضطر السيد ميريمان أو السيد أرويين إلى اصطحابها إلى بيتها . قبلت إدنا بشيء من التردد، كانت أحيانًا تحس بالزهق من مدام هايكامب ومدام ميريمان .

وفى آخر المساء لجأت إلى الآنسة ريز وجلست وحدها هناك

تتظرها . انتابها راحة طارئة أحست بها تغزو جسدها كله وهى فى تلك الحجرة المتواضعة الرثة . جلست إدنا عند النافذة التى تشرف على أسطح البيوت تطالع منها النهر القريب . كان إطار النافذة الخشبي يمتلئ بأصص الزهر ، جلست هناك وراحت تلتقط بعضًا من أوراق الزهر الجافة . كان الجو دافئًا ، وكان النسيم القادم من النهر يصفح الوجوه فى سحر ورقة . خلعت قبعتها ووضعتها على البيانو وطفقت تقطف أوراق الورد من الأصيص وتحفر حول النباتات بدبوس كان معها . ظنت أن الآنسة قادمة عندما سمعت من يقترب من الباب . كانت فتاة زنجية شابة دخلت ومعها حزمة صغيرة من الملابس المغسولة وضعتها فى الحجرة المجاورة وذهبت إلى حال سبيلها .

جلست إدنا على مقعد البيانو وتناولت نوتة موسيقية كانت مفتوحة على مقربة من يدها . مرت نصف ساعة لم تسمع خلالها إلا أصوات حركة الغادين والرائحين فى الصالة الكبيرة . حين بدأ اهتمامها يزيد باللحن سمعت طرْفًا خفيفًا على الباب تشاغلت فيما بينها وبين نفسها ترى ماذا يفعل هؤلاء الناس حين كانوا يجدون باب شقة الآنسة مغلقًا ؟ قالت وهى تحول وجهها ناحية الباب :

- ادخل .

وكان القادم هذه المرة روبرت لبرن . حاولت الوقوف ولكنها لم تكن لتفعل ذلك دون أن تفضحها الدهشة التى استولت عليها

لدى رؤيته، لذا آثرت العودة إلى مقعدها واكتفت بسؤال مشوب بالدهشة :

- روبرت نفسه !

تقدم إليها وصافحها بحرارة دون أن يعرف ماذا يقول وماذا يفعل .

- مدام پونتلييه ! يا لها من صدقة ! أه ! لقد تغيرت !

أليست الآنسة ريز هنا ؟ لم أتوقع قط أن أجدك هنا .

سألته إدنا في صوت متهدج وهي تمسح وجهها بمتدليلها ولم تعد تشعر بالراحة وهي تجلس على مقعدها أمام البيانو فطلب منها أن تجلس على مقعد بجوار النافذة وفعلت إدنا ما طلبه منها دون أن تعي ماذا تفعل بينما جلس هو على مقعد البيانو .

- متى رجعت ؟

أجاب وهو يضع يديه على مفاتيح البيانو مصدرًا صوتًا قويًا متنافر النغمات :

- عدت أول أمس .

رددت عبارته أكثر من مرة بصوت عال وعلى نحو غير مفهوم :

- أول أمس ! أول أمس !

كانت تظن أنها ستكون أول من يسعى لرؤيته بعد

وصوله إلى المدينة، ولكن ها هما ذان يستظلان بسماء
واحدة منذ أمس الأول ولم يفكر فى رؤيتها، ولولا أنهما
تقابلا بالمصادفة لما تقابلا . لم تكن الأنسة على صواب
إذن عندما قالت المسكين الولهان، إنه يحبك .

قالت مكررة :

- أول أمس ! إذن لو لم تكن قابلتنى هنا اليوم لما حاولت
زيارتى ومقابلتى ؟

- كلا ، كان لابد من أن آتى لزيارتك . ولكن كان لدى
الكثير من الأمور .

ثم أردف وهو يعدل من شأن نوتة الأنسة الموسيقية
بتوتر واضح :

- لقد بدأت العمل فى الحال مع الشركة القديمة . رغم كل
شئ ثمة فرصة متوفرة لى ؛ لأن العمل هنا أفضل من العمل
هناك، ولعللى أرى العمل هنا مريحًا ومريحًا فى يوم من
الأيام . لا أرتاح للمكسيكيين على أية حال .

إذن لقد عاد لأنه لم يرتح مع المكسيكيين ؛ ولأن الريح لم
يختلف عن الريح هنا ، أو لآى سبب آخر غير أنه يريد رؤيتها وأن
يكون قريبًا منها . تذكرت حين جلست على الأرض تغلب فى
خطابه الذى لم تجد فيه سببًا لذهابه دون أن يحيطها علمًا بنيته .
لم تتبه إلى أنها يجب أن تنظر فى وجهه لترى كيف تغير،
كان وجوده يكفيها ، ولكنها اختلست مع ذلك نظرة إلى وجهه .

هل تغير فى تلك الأشهر الخمسة التى غابها . شعره الذى يشبه شعرها ، يجرى على صدغيه مثلما كان فى الماضى . لم تصبح بشرته أكثر سمرة مما كنت عليه عندما كان فى جراند أيل . عندما نظر إليها وجدت فى عينيه تلك الرقة السابقة التى أضافت إليها دفئًا ولطفًا لم تعدهما فيه من قبل ، والنظرة نفسها التى كانت فى السابق تصل إلى المناطق النائمة فى روحها لتوقظها .

كانت عودة روبرت هاجسها فى الفترة الماضية . مر بذاكرتها لقاءهما الأول فى بيتها . لم يرح خيالها منذ ذلك الحين ، تحلم فى يقظتها بأنه يعبر عن حبه لها أو يتقرب إليها على نحو صريح لا التواء فيه . والآن لا ترى غير الحقيقة ماثلة أمامها حيث يجلسان لا يفصل بينهما أكثر من عشرة أقدام ، تجلس هى بجوار النافذة تسحق بيديها أوراق الزهر اليابسة ثم تقربها إلى أنفها لتشمها ، بينما يجلس هو على مقعد البيانو يدور به نصف دائرة ويقول :

- تعجبت كثيرا لغياب السيد پونتليه وانتقالك إلى بيت جديد . قالت لى أمى ذلك أمس . اعتقدت أنك ذهبت معه إلى نيويورك أو إلى أيرفيل مع الطفلين ، قلت : إن ذلك أفضل من أن تهتمى هنا بالغسل والطبخ بنفسك ، وسمعت أنك تريد السفر أيضًا . إذن لن نراك فى جراند أيل فى الصيف المقبل على ما يبدو . هل ترين الآنسة ريز باستمرار ؟ إنها تتكلم عنك كثيرًا فى خطاباتنا القليلة التى أرسلتها لى .

- هل تتذكر أنك وعدتني بأن تكتب لى عندما سافرت ؟
- اجتاحت وجهه حمرة طاغية وقال :
- لم أكن أظن أن رسائلى كانت ستثير اهتمامك ألبتة .
- هذا مجرد عذر لا أكثر .
- تناولت إدنا قبعته التى كانت تضعها على البيانو وضعتها على رأسها وثبتت دبوسها على خصلة شعرها الكثيفة بنية مبيّنة .
- سألها روبرت :
- ألا تنوين انتظار الأنسة ريز حتى تأتى ؟
- لا . . لقد تعلمت أنها عندما تتأخر كل هذا الوقت فإنها لا تأتى مبكرًا .
- ارتدت قفازيها وتناول روبرت قبعته سأله إدنا :
- ألا تريد أن تنتظرها ؟
- ألم تقولى إنها لن تأتى الآن ؟
- ثم أردف وكأنه أحس بشيء من الجفاف فى إجابته :
- وحتى لا أخسر متعة المشى معك إلى بيتك الجديد .
- أغلقت إدنا باب شقة الأنسة وأعادت المفتاح إلى مخبئه الأول .
- مضيا معًا يشقان طريقهما عبر شوارع موحلة وأرصفتها يغطيها الباعة الجائلون بما يعرضونه من بضاعة رخيصة .

- قطعا بعضًا من المسافة فى حافلة وعندما ترجلا مرة أخرى
مرا بقصر السيد پونتليه الذى أصابه الهدم . لم يكن روبرت
يعرف البيت أصلا فراح ينظر إليه باهتمام بالغ وهو يقول :
- لم نتعرف فى هذا البيت .
 - وأنا سعيدة أنك لم ترنى فيه .
 - لماذا ؟

- لم تجبه . ومضيا فى طريقهما حتى تجاوزا البيت
الكبير . بدا لها أن أحلامها مشرقة على التحقيق آخر الأمر
عندما تبعها حتى دخلت بيتها الصغير .
- يجب أن تجلس وتتناول معى العشاء يا روبرت . أنت
ترى أننى أعيش وحدى ، وقد مرت الشهور دون أن أراك .
لدى الكثير من الأمور التى أريد أن أسألك عنها .
- خلعت قفازيها وقبعتها . وقف برهة متردداً ، يقدم
الأعذار ، عن أمه التى تنتظره ، وميعاد مرتبط به . أشعلت
عود ثقاب وأضاءت المصباح القائم على المائدة كى
يخفف من الظلام المتعاطم . وعندما طالع وجهها الذى
كشف عنه نور المصباح أحس بشقاء يكسو عينيها ،
غادرته قسماته الجميلة التى تضيئه سحراً وفتنة . عندئذ
ألقي بقبعته إلى جواره وجلس وهو يردف قائلاً :
- أنت تعرفين أننى لا أعصى لك أمراً !

عاد وجهها ينطلق بالفرح ، وندت عنها ضحكة مدوية
وهي تقترب منه لتضع يدها على عاتقه وتقول :
- هذه أول مرة تبدو فيها مثل روبرت الذى عرفته . سوف
أخبر سلسيتين .

وأسرعت لتخبر سلسيتين لكى تعد له مكانًا زيادة على
المائدة . ثم أرسلتها لكى تحضر بعض الأطعمة الشهية التى
لا تطلبها عادة لنفسها ، ونصحتها بالعناية الشديدة فى تقطير
القهوة وصنع الأوملت .

وعندما عادت كان روبرت يقلب فى صفحات المجلات التى
وضعت فى متناول يده ، ويطالع الرسومات والأشياء الموضوعة
على المائدة فى فوضى عظيمة . تناول صورة فوتوغرافية وراح
ينظر إليها وهو يقول وقد ملكته الدهشة :

ألسيه أرويين ! وماذا تفعل صورته هنا بحق الجحيم ؟
قالت إدنا :

- حاولت أن أرسم صورة له ذات يوم ، وكان يظن أن
الصورة الفوتوغرافية يمكن أن تساعدنى على ذلك . كان
ذلك فى المنزل القديم . كنت أظن أننى تركتها هناك . لا بد
من أننى أخذتها ضمن أدوات الرسم التى جئت بها إلى هنا .
- أعتقد أنك سوف تردينها إليه إذا كنت قد فرغت من الرسم
الذى تتحدثين عنه .

- أوه ، لدى الكثير من مثل هذه الصور . لم أفكر مطلقًا فى إعادتها إلى أصحابها . إنها لا تعنى أى شىء .

كان روبرت لم يزل يحدق فى الصورة ثم قال :

- وهل وجهه يستحق أن يرسم ؟ أليس هو صديق السيد پونتليه ؟ ولكنك لم تقولى إنك كنت تعرفينه .

- لم يكن صديقًا لعائلة السيد پونتليه ، إنه صديقى أنا .

كنت أعرفه منذ فترة طويلة ، وفى الأيام الأخيرة زادت معرفتى به . ولكنى أفضل أن أتحدث عنك أنت ، وأسألك عما كنت تفعل وتأكل وتشرب وترى وتحس به هناك فى المكسيك .

ترك روبرت الصورة وقال :

- كنت أرى أمواج البحر والشاطئ الأبيض فى جراندى أيل ، وشارع تشنير الهادئ الذى يحوطه العشب ، وقلعة جراندى تير القديمة . كنت أعمل مثل الآلة ، وأشعر بما تشعر به الروح النائمة .

لم يكن هناك شىء يشد الانتباه .

أسندت رأسها على يدها لكى تدفع عن عينيها أشعة الضوء القادمة من المصباح . سألتها :

- وماذا كنت ترين وتفعلين ؟ وبم كنت تشعرين خلال كل هذه الأيام ؟

- كنت أرى الأمواج والشاطئ الأبيض فى جراند أيل، كنت أرى الشارع الهادئ الجميل فى تشنير كامينادا، وكنت أرى قلعة جراند تير المشمسة. كنت أعمل مثل الآلة دون وعى أو إحساس، كنت أحس وكأننى روحاً ضائعة. لم يكن لدى ما يثير الاهتمام.

قال وهو يغلق عينيه ويسند رأسه على ظهر مقعده :

- أنت قاسية حقًا يا سيدتى.

ثم لفهما الصمت حتى أعلنت الخادمة العجوز
سلسيتين عن حضور العشاء.

- ٣٤ -

كانت حجرة الطعام صغيرة جدًا تكاد تملؤها مائدة إدنا المصنوعة من خشب الماهوجنى. لم يكن يفصل المائدة الصغيرة عن المطبخ والموقد وصوان السفرة غير خطوة أو خطوتين، على مقربة من الباب الجانبي الذى يفتح على فناء ضيقٍ فرشت أرضيته من طوب صغير الحجم.

وعندما أعلن عن حضور العشاء كانت إدنا ودودة حين دعتة للطعام بكل حفاوة وتكريم. توقفوا عن لوم كل الآخر لغيابه وعدم اكترائه. حكى روبرت أحداثاً وقعت له فى رحلته إلى المكسيك، وتحدثت إدنا عما حدث لها أثناء غيابه وكانت تعرف أنها تروق له. كان العشاء عادياً ما خلا الطعام الذى بعثت الخادمة لشرائه

من خارج البيت . كانت سلسنتين تقف متأهبة للقيام بما يطلب منها فى الحال ، وكانت تتحدث مع روبرت الذى كانت تعرفه منذ صباه .

خرج روبرت ليشتري علبة من لفائف التبغ من كشك قريب من البيت ، وعندما عاد كانت سلسنتين قد فرغت من إعداد القهوة فى الردهة . قال لإدنا :

- ربما لم يكن يجب أن أرجع . عندما تملين منى أخبرينى حتى أذهب لحال سيلى .

- أنا لا أمل منك أبداً . لابد من أنك نسيت الساعات والساعات التى كنا نقضيها فى جراند أيل التى توطدت فيها معرفتنا وكنا لا نفترق .

كان كيس التبغ الذى وضعه على المائدة يلفت الأنظار لما به من تطريز جميل . تزينه خيوط حريرية ، أيقنت إدنا أن امرأة هى التى صنعت له بيديها . قال لها وهو يحاول ألا ينظر إليها متظاهراً بأنه مشغول بإعداد سيجارة :

- لم أنس شيئاً من أحاديثنا فى جراند أيل .
قالت إدنا وهى تتناول كيس التبغ بينما كانت عينيها تفحص التطريز بعناية مفرطة :

- فى الماضى كنت تضع التبغ فى كيس من المطاط .
- نعم ، ولكن الكيس المطاطى ضاع .

- ومن أين اشتريت هذا الكيس ؟ من المكسيك ؟
- أجب وهو يحك عود الثقاب ويشعل سيجارته :
- أهدته لى فتاة من فيرا كروز، إنهم كرماء جدًا هناك .
- وأعتقد أنهم فائنات الجمال، هؤلاء المكسيكيات
- يعيونهن السوداء وأوشحتهن الحريرية .
- بعضهن جميلات فعلا، ولكن من بينهن من لا تطاق .
- مثل أى نساء فى أى مكان فى العالم .
- وبالنسبة للفتاة التى أهدتك العلبة ؟ لابد من أن معرفتكما
- كانت وثيقة جدًا .
- كانت فتاة عادية جدًا . لم تكن بالأهمية التى تظنين .
- ولكن معرفتى بها كانت كافية لأن تهدينى هذه العلبة .
- وهل زررتها فى منزلها ؟ وهل كانت زيارة لا تنسى ؟ يجب أن
- تخبرنى عن كل من قابلتهم وعرفتهم هناك، والانطباعات
- التى تركوها فى نفسك .
- من الناس من لا يترك فيك أثرا أكثر مما يتركه القارب أثناء
- مروره على مياه النهر .
- وهل كانت من هذا النوع ؟
- قال وهو يدس العلبة فى جيبه كأنما يريد أن يختم
- الموضوع حتى لا ينتهى إلى سخف :
- أكون قد جانببت الصواب إذا قلت إنها كانت من هذا النوع .

جاء أرويين برسالة من مدام ميريمان تقول فيها إنها قد
أجلت حفل الكوتشينة لأن أحد أبنائها يمر بوعكة صحية .

قال روبرت ولم يكن أرويين قد رآه بعد :

- وكيف حالك أنت يا أرويين ؟

- أوه ! لبرن . سمعت أمس أنك عدت . كيف كان الناس

يعاملونك فى المكسيك ؟

- معاملة جيدة .

- ولكنك عدت بسرعة غير متوقعة . على كل حال البنات

هناك فائنات . كنت فى فيرا كروز منذ عامين ولم أكن أريد

أن أعود أبدًا .

سألت إدنا :

- وهل كنّ يزيّن لك الشباشب وعلب التبغ وأربطة القبعات

وأشياء من هذا القبيل ؟

- أوه ! لى أنا ! لا ! لم أكن أتدخل فى شئونهن إلى هذا

الحد . لقد كان تأثيرهن على أكثر من تأثيرى عليهن .

- إذن أنت لم تكن محظوظًا مثل روبرت .

- دائمًا أنا أقل حظًا من روبرت . هل حكى لك أشياء

أخرى أكثر سرية ؟

قال روبرت وهو ينهض ويهم بمصافحة إدنا :

- لقد أطلت أكثر من اللازم ، من فضلك بلغنى سلامى للسيد

بونتليه عندما تكتبين له . ثم صافح أرويين وغادر المكان .
قال أرويين فى إثره :

- شخص ظريف هذا المدعو ليرن . لم أسمعك تتحدثين
عنه .

قالت إدنا :

- عرفته الصيف الماضى فى جراندايل . هاهى ذى صورتك ،
ألا تريدها ؟

- وفيم أريدها ؟ ألقى بها فى أى مكان .
ألقت بها على المائدة وقالت :

لن أذهب إلى منزل مدام ميريمان ، إذا رأيته أخبرها بذلك .
ولكن ربما على أن أكتب لها رسالة بذلك . وأظن أنه على أن
أكتب لها الآن ، وأعرب لها عن أسفى لمرض ابنها وأخبرها بالأمر
تعول على كثيرًا .

قال أرويين مدعنا :

- هذه فكرة ممتازة ، أنا لا ألومك على ذلك ، إنه الحظ
السيئ !

فتحت إدنا نوتة كانت معها وتناولت قلمًا وبدأت
تكتب رسالة إلى مدام ميريمان . أشعل أرويين سيجارة
وأخذ يقرأ جريدة المساء التى كان يضعها فى جيبه . سأله
إدنا عن تاريخ اليوم وأخبرها به .

- إذا سمحت خذ هذه الرسالة معك عندما تخرج لتضعها
في صندوق البريد ؟
- طبعًا ، بالتأكيد .
- قرأ أرويين بعض الأخبار في الجريدة ثم وضعها جانبًا
وسألها فجأة بينما كانت مشغولة بترتيب بعض الأشياء على
المائدة :
- وماذا تنوين فعله الآن ؟ هل تنوين الخروج والتنزه ؟ الليلة
جميلة للتنزه .
- لا ، لا أريد أن أفعل أى شىء غير أن أرتاح وأسترخى .
اذهب الآن للتنزه واتركنى .
- سأذهب إذا كان يجب أن أذهب ، أما التنزه فلن يتحقق .
أنت تعرفين أننى أعيش عندما تكونين بجوارى فحسب .
نهض فجأة وودعها مغادرًا .
- هل هذا ما تقوله لكل امرأة تقابلها ؟
قال لها وقد افتعل ابتسامة على شفثيه :
- لقد قلت ذلك لسيدات كثيرات ، ولكنى لم أشعر قبل الآن
أننى أعنى ما أقول .
- لم تشرق عيناها بضوء السعادة هذه المرة ، لم تعلها
غير ابتسامة حالمة . قال لها وهو يطبع قبلة على يدها
ويهم بالذهاب :

- تصبحين على خير . أنا أحبك . اهتمى بنومك .

أصبحت وحدها ذاهلة فى حلمها وشيئا فشيئا عادت تستعيد كل لحظة من لحظات الزمن التى قضتها مع روبرت بعد دخوله شقة الأنسة ريز . استعادت كل كلمة نطق بها، وكل التفاتة حانت من عينيه إلى عينيها . كم بدت تلك اللحظات قليلة لقلبها الذى أنهكه الشوق . عكر صفو الحلم فاتنة مكسيكية رأتها ماثلة أمامها، أحست بألم الغيرة ينخس جنبها الأيسر . تساءلت متى يعود ؟ لم يقل متى يعود . لقد كانت معه منذ قليل، سمعت صوته وشعرت بمس يديه . ولكن لأمر ما أحست أنه كان أقرب إليها وهو هناك، فى المكسيك .

- ٣٥ -

أقبل الصبح بالشمس المشرقة والأمل . لا شيء يحول بين إدنا والسعادة المرجوة . كانت مستلقية على سريرها مستيقظة تتألق عيناها بحلم الأمس . « إنه يحبك، المسكين ! » . لو استطاعت أن تصدق ما قالته لها الأنسة ريز لما همها ما يحدث بعد ذلك . كم كانت سخيفة حمقاء حين أسلمت نفسها بالأمس لليأس والقنوط . لقد كان تقديرها للأسباب التى جعلت روبرت متحفظا فى حديثه معها بعيدا عن الواقع . لم يكن تحفظه هذا عصيا على التذليل . فإذا كان يحبها حقاً فلن يحول بينها وبينه شيء . يجب أن يعرف أنها تحبه . أشرقت الشمس عن صباح

جميل وهي تراه الآن خارجًا إلى عمله . إنها ترى الآن أية ملابس يرتدى ، وكيف يمشى فى شارع وينعطف منه إلى آخر ، وكيف يجلس على مكتبه ، وكيف يتحدث مع الزائرين ، تراه ذاهبًا الآن لتناول الغداء ، أو منتظرًا على ناصية أحد الشوارع حتى تجيء . سوف يرجع إليها فى الأصيل أو مع حلول المساء ، وسوف يجلس ويلف سيجارته ويتحدث قليلًا ، وسوف يذهب كما فعل فى الليلة المنصرمة . ولكن يا لها من سعادة غامرة تلك التى تحس بها فى وجوده ! لن تندم على شيء ، ولن تسعى إلى أن تفسد عليه تحفظه إذا كان ذلك خياره .

وضعت إدنا الروب على جسدها وتناولت إفطارها . أحضرت لها الخادمة رسالة فرحت بها جدًا . من ابنها راؤول مكتوبة بخط يده المتعثر ، يعبر لها فيها عن حبه وشوقه ويطلب منها أن ترسل له بعض الحلوى ، ويخبرها بأنهم وجدوا هذا الصباح عشرة خنازير صغيرة تضطجع فى صف طويل بجوار الخنزيرة البيضاء الأم التى تملكها ليدى .

كما جاءتها رسالة من زوجها يقول فيها إنه يأمل أن يأتى فى أول مارس القادم ، إنه سوف يصطحبها فى رحلة إلى الخارج كان قد وعدها بها منذ زمن بعيد ، ويشعر الآن أنه مستعد لها من الناحية المادية . يستطيع الآن أن يسافر كما يفعل سائر الناس دون التفكير فى المال ، وهذا بفضل مضارياته الأخيرة فى وولستريت .

واندهشت عندما تلقت رسالة من أرويين، كتبها كما يقول في منتصف الليل من النادى . إنه يقول لها صباح الخير ويتمنى أن تكون قد نامت جيدًا، ويجدد فيها أشواقه وحبه الذى يقول إنها بادلتة إياه بشكل أو بآخر .

كانت هذه الرسائل مصدر سعادة لها . ردت على رسالة طفليها برسالة مليئة بالفرحة والوعد بشراء الحلوى، وهنأتها على العثور على الخنازير الصغيرة . وردت على رسالة زوجها بشيء من الغموض الودود، لم تجزم بأنها سوف تتخلف عنه فى رحلته الموعودة؛ لأن حياتها ببساطة قد افتقرت إلى أى واقع ملموس، وأنها قد تركت نفسها لتصاريف القدر، وتنتظر الآن ما يسفر عنه دون اكتراث يذكر . لم تجب على رسالة أرويين . وضعتها تحت غطاء موقد الخادمة سلسيتين .

لبثت إدنا فى مرسمها تعمل ساعات طوال بفرحة غامرة ونفس راضية . لم تر أحدًا سوى تاجر لوحات أراد أن يعرف حقيقة سفرها إلى باريس للدراسة قالت له إنها قد تذهب فعلاً ، وطلب منها أن ترسل له بعض الدراسات الباريسية فى الرسم لكى يوزعها فى عطلة التجارة فى ديسمبر .

لم يأت روبرت ذلك اليوم . خاب الأمل وأحبط الرجاء ولم يأت فى اليوم التالى، ولا اليوم الذى تلاه . تستيقظ كل صباح على أمل رؤياه، وتنام كل ليلة محبطة باليأس والقنوط . فكرت

فى أن تبحت عنه بنفسها . ولكنها لم تطع قلبها ، ولم تضع نفسها فى طريق قد يمر به . لم تذهب إلى الآنسة ريز ، ولم تمر بيت مدام لبرن كما كانت تفعل عندما كان هو فى المكسيك .

وعندما ألح عليها أرويين ذات ليلة فى أن تذهب معه للتزهر فى عربة من عرباته ، خرجت معه إلى البحيرة ، على طريق شل . كان جواده يمثلان بالحيوية والنشاط حتى إنه كان قادرًا بالكاد على كبح جماحهما . أعجب إدنا ركضهما وسرعهما التى كانا يقطعان بها الطريق ، وأسكرتها وقع حوافر الجوادين وهى تضرب الطريق المرصوفة . لم يتوقفا فى أى مكان لتناول طعامًا أو شرابًا . ولم يكن أرويين مفتقرًا للأدب والذوق . لم يتأولا طعامًا أو شرابًا إلا عندما عادا إلى حجرة طعام إدنا الصغيرة فى أول المساء . كان الوقت متأخرًا عندما انصرف . لم تعد رغبة أرويين فى مقابلتها أو القرب منها مجرد نزوة عابرة لديه . لقد آنس لديها رغبة حسية كامنة كعبير الزهر الفواح . نامت تلك الليلة دون أن يستبد بها قنوط ، واستيقظت ذلك الصباح دون أن يحدوها أمل .

- ٣٦ -

ثمة حديقة صغيرة على أطراف المدينة تنتشر بها المقاعد والمناضد الصغيرة التى تظللها بعض أشجار البرتقال القصيرة هناك كان ينام قط مسن طوال النهار على حجر كبير لا يتأثر بأشعة الشمس العاتية . وهناك كانت تنام سيدة من الملونين جل ساعات

فراغها على مقعدها فى كشك بنافذة مفتوحة على الدوام حتى يأتى من ينقر على منضدة من المناضد المتشرة فى الحديقة . كانت تباع اللبن الساخن والجبن والقشدة والخبز والزبد . وكانت تشتهر بقهوتها الممتازة والدجاج المشوى الذى يأخذ لون الذهب بعد شيه . لم يكن المكان بتلك الفخامة التى تجذب أبناء الطبقة الممتازة ، ولم يكن يهدوئه الشديد يروق للباحثين عن المتعة والتسلية . اكتشفت إدنا هذا المكان بالمصادفة ذات يوم عندما كان باب الحديقة مفتوحاً على مصراعيه . رأت منضدة خضراء صغيرة من بعيد لفحتها أشعة الشمس المتسللة من بين أوراق الشجر التى تظللها . وعندما دخلت وجدت السيدة نائمة والقط العجوز يتناوب فى كسل واضح ، وكوباً من اللبن على المنضدة ذكرها باللبن الذى كانت تشربه فى أبرفيل .

اعتادت أن تتوقف هناك أثناء تجوالها تفحص كتاباً تأخذه معها ، وتجلس ساعة أو ساعتين تحت الأشجار عندما تجد المكان مهجوراً تعشت هناك مرة أو مرتين وحدها بعد أن تكون قد أعطت تعليماتها لسلسنتين بأن لا تعمل حسابها فى العشاء . لم تتصور لحظة أن تقابل فى هذا المكان من تعرفهم .

ورغم ذلك لم تملكها الدهشة عندما كانت تتناول عشاءها المتواضع ذات مساء ، وتنظر فى كتاب مفتوح بين يديها ، وتمسح على ظهر القط العجوز الذى عقد صداقة معها ، لم تملكها

الدهشة تمامًا عندما رأت القادم عبر الباب الكبير وكان روبرت .
قالت له وهى تضع القط بعيدًا عنها على مقعد مجاور .

- قدرى أن أراك دائمًا بالمصادفة .

كان هو مندهشًا ومرتبكًا لمقابلتها على ذلك النحو

المفاجئ ، سألها :

- وهل تأتين هنا كثيرًا ؟

- تقريبًا أعيش هنا .

- تعودت أن أتناول هنا كوبًا من قهوة كاتشى الرائعة ، هذه

أول مرة أتى فيها إلى هنا منذ عودتى .

- سأطلب منها أن تحضر لك طبقًا وتقاسمنى العشاء . إنه

يكفى لاثنتين دائمًا بل لثلاثة .

بيت إدنا النية فى أن تتظاهر بعدم الاكتراث لقدمه .

عقدت العزم على أن تخلع على مشاعرها ثوب التحفظ

الذى قابلها به فى المرة الماضية . استعانت بالعزم الذى

شيدته فى نفسها بتؤدة ومران العقل . اجتزت حالة من

حالات القنوط التى كانت تتابها حين اليأس . ولكنها لم

تصمد عندما رآته أمامها ، ضاع العزم وخارت القوى حين

جلس إلى جوارها فى الحديقة الصغيرة ، وكأنما دفعت به

فى طريقها أقدار السماء . أغلقت الكتاب الذى كان

مفتوحًا على المنضدة وسألته :

- لماذا تحاول الابتعاد عني يا روبرت ؟

قال روبرت بنبرة جادة مشوبة بالدفء :

- ولماذا تأخذني الأمور بحساسية زائدة يا مدام پونتليه ؟ لماذا تضطريني لاختلاق الأعذار الحمقاء ؟ أعتقد أنه لا داعي لأن أقول لك إنني مشغول جدًا ، أو إنني كنت مريضًا ، أو إنني ذهبت لزيارتك ولم أجدك في البيت . أرجو أن تقبلي أيًا من هذه الأعذار الآن .

قالت :

- أنت أناني للغاية ، بل الأنانية مجسدة . ثمة شيء لم تقله ، لا أعرف ما هو ، ولكن ثمة دافع أناني هو الذي دفع بك إلى هذا التصرف معي ، لقد أعفيت نفسك من المسؤولية ولم تهتم لحظة بما أفكر ، وكيف أتحمل عدم اكتراثك وإهمالك المتعمد . قد تقول إن هذه مكاشفة لا تليق بامرأة ، ولكنني تعودت على أن أفصح عما في نفسي . لا يهمني أن تستغرب هذا المسلك .

- لا ، أنا لا أعتقد إلا في أنك قاسية كما قلت لك بالأمس . ربما لا تقصدين هذه القسوة ، ولكن من الواضح أنك تضطرينني إلى إفشاءات قد لا تؤدي إلى شيء يذكر ، وكأنك تريدني أن أكشف عن جرح لأنني أسعد بروياك ، دون نية أو قدرة على أن أعالجه .

- إننى أفسد عليك عشاءك يا روبرت . لا تهتم بما أقول .
إنك لم تأكل شيئاً ألبتة .

- لقد جئت فى الواقع من أجل كوب من القهوة .
كانت ملامح وجهه الرقيقة تضطرب بالانفعال
والإثارة . قالت له على سبيل الملاحظة :

- أليس هذا مكاناً جميلاً حقاً؟ إننى سعيدة لأن الناس لم
يكشفوه . إنه هادئ جداً، وجميل جداً . ألم تلاحظ أنك
لم تسمع صوتاً واحداً؟ أحسن شئ أنه بعيد عن الطريق
العام؟ ويضطر المرء للمشى مسافة لا بأس بها بعد أن
يتوقف بالسيارة . أنا لا يهمنى المشى . بالعكس ، أحزن
دائماً لهؤلاء النسوة اللاتي لا يردن المشى ، إنهن يفقدن
الكثير من مناظر الحياة البهيجة ، على العموم نحن النساء
خبرتنا بالحياة قليلة .

- قهوة كاتشى ساخنة دائماً ، لا أعلم كيف تتحمل ذلك
فى هذا المكان المكشوف ! القهوة تبرد فى يد سلسيتين حين
تأتى بها من المطبخ إلى حجرة السفرة . أربعة قطع من
السكر ! كيف تشربه بكل هذه الكمية من السكر؟ خذ بعض
النعناع عليه، مذاقه جميل . ثم إنه توجد ميزة أنك تستطيع
أن تدخن مع القهوة هنا . والآن ألا تريد أن تدخن؟
قال وهو لم يزل يضع السيجارة على المنضدة :

- بعد فترة .

قالت وهي تضحك :

- ومن الذى أعطاك هذه السيجارة ؟

- اشتريتها ، سوف لا أهتم بكلامك ، لقد اشتريت علبة
بأكملها .

عقدت العزم على ألا تكون هجومية مرة أخرى حتى
لا تسبب له الضيق .

انعقدت الصداقة بينه وبين القط الذى تسلق إلى حجره وهو
يهم بتدخين سيجارته . راح يمسح على فروته الناعمة وتحدث
عنها قليلاً . ألقى نظرة على الكتاب الذى بين يدي إدنا ، كان قد
قرأه وأخبرها بالنهاية لكى يوفر عليها عناء تكملة قراءته .

اصطحبها مرة أخرى إلى منزلها الجديد الذى وصلا إليه قبيل
الغسق . لم تطلب منه أن يبقى هذه المرة الأمر الذى كان ممثلاً له
إذ وفر عليه مؤونة البحث عن عذر مقبول لم يكن لديه النية فى
البحث عنه . ساعدها على إضاءة المصباح ، ثم دلفت إلى
حجرتها لكى تخلع قبعتها وتغسل وجهها ويديها .

وعندما رجعت لم يكن يتأمل الصور أو يتصفح المجلات كما
فعل فى المرة الماضية . كان يجلس فى العتمة الجزئية يسند رأسه
على مقعده وكأنما كان يستسلم لحلم جميل . تلكأت إدنا قليلاً
بجوار المنضدة تتظاهر بأنها ترتب ما عليها من كتب ، ثم عبرت

الحجرة إلى حيث يجلس . أقبلت عليه حتى أصبحت قريباً من أذنيه وهتفت :

- روبرت ! هل أنت نائم ؟

أجاب وهو يتطلع إليها :

- لا .

أقبلت عليه وعاجلته بقبلة رقيقة ناعمة اضطرب لها جسده كله وعندما همت بالانصراف تبعها وأخذها بين يديه وضمها إلى صدره ضمة قوية . أحاطت وجهه بيدها وجذبت خده إلى خدها مما زاد من شوقه وضعفه فراح يبحث عن شفيتها مرة أخرى ثم جذبها إلى الأريكة وأخذ يديها بين يديه وهو يقول :

الآن عرفت ما كنت أحارب من أجله منذ الصيف الماضى فى جراندايل ، ما الذى دفع بى إلى الهرب ، وما الذى دفع بى إلى العودة من جديد ؟!

سألته وقد انطلق وجهها بسعادة طاغية :

- ولماذا تحارب من أجل ذلك طوال تلك المدة ؟

- لماذا ؟ لأنك لست خالية ، لأنك زوجة لليونس پونتلييه .

ولكنى لم أملك إلا أن أحبك حتى ولو كنت زوجته عشر مرات ، ولكننى ذهبت بعيداً عنك حتى لا تسمعين منى هذا الكلام .

وضعت يدها الخالية على منكبيه ثم تحولت لتمسح بها

على خديه فى رقة ونعومة . قبلها مرة أخرى كان وجهها
دافئاً مخضباً بحمرة الورد .

- كنت فى المكسيك أفكر فىك طوال الوقت ويعصف بى
الشوق إليك .
قالت مقاطعة :

ولكنك لم تكتب لى رسالة واحدة .
- لأمر ما أحسست أنك تشاركتنى مشاعرى مما أفقدنى
الإحساس بكل شىء إلا أن أشعر بوجودك قريبة منى .
نسيت كل شىء ما خلا الحلم بأن تكونى زوجتى فى يوم من
الأيام .

- زوجتك !
- كل شىء يهون فى سبيلك .
- أنسيت أننى زوجة ليونس بونتلييه ؟ !
- نعم ، لقد فقدت صوابى ، وكنت أحلم بالمستحيل وأتذكر
رجالاً منحوا الحرية لزوجاتهم ، لقد سمعت عن أمور كهذه
- نعم وأنا سمعت عن مثل هذه الأشياء .
- رجعت وأنا محمل بالنوايا المجنونة الغامضة ، وعندما
وصلت إلى هنا . . .

قالت ولم تزل تلاطف خديه :
- وعندما وصلت إلى هنا لم تقترب منى ؟

- أدركت أنه من الجبن والخسة أن أفكر فى أمر كهذا، حتى وإن كانت هذه رغبتك .

أخذت وجهه بين يديها وراحت تحديق فى صفحته وكأنما لم تكن تنوى أن تغلق عينيها مرة أخرى ألبة طبعـت قبلة متمهلة على جبينه وأخرى على عينيه وثالثة على وجنتيه وأخيرة على شفـتيه .

- لقد كنت صبيًا أحمق فعلاً حين أضعت وقتك فى التفكير فى الأمور المستحيلة كأن يخلـى السيد پونتليـه سبيلـى إلى الأبد ! أنا لم أعد من ممتلكات السيد پونتليـه حتى يعتقنى أو لا يعتقنى . إننى أضـع نفسى فى المكان الذى أريد . حتى لو فرضنا أنه قال لك : روبرت لقد تركتها لك ، خذها وانصرف ! إننى سوف أضحك على كليكما .

سألها وقد تحول وجهه إلى اللون الأبيض من كثرة الدهشة :

- ماذا تقصدين ؟

سمعت طرقاً على الباب أقبلت سلسـتين العجوز لتقول إن خادمة مدام راتجنول جات لتخبر إدنا بأن مدام راتجنول قد ألم بها مرض مفاجئ وترجو مدام پونتليـه أن تذهب إليها فى الحال . قالت إدنا :

- نعم، نعم، لقد وعدتها . أخبريها بأن تنتظرنى . سوف

أذهب معها .

قال روبرت :

- سنخرج سوياً .

قالت :

- لا ، سأذهب مع الخادمة .

ودلفت إلى حجرتها لكي تضع قبعتها على رأسها
وعندما رجعت جلست مرة ثانية على الأريكة إلى جواره .
لم يضطرب هذه المرة ولم يثر . أحاطت عنقه يديها
وقالت :

- إلى اللقاء يا عزيزى روبرت . قل لى إلى اللقاء .

وقبلها بحرارة غير معهودة وجذبها نحوه بقوة وهى
تهمس فى أذنيه :

- أحبك ، أحبك أنت فقط ، لا أحب أحداً غيرك . إنك أنت
الذى أيقظنى الصيف الماضى من حلم أحقق عشته طوال
حياتى . أوه ! لقد سببت لى الشقاء بعدم اكترائك . أوه !
لقد عانيت ، عانيت الكثير ! والآن سوف أحبك إلى الأبد
مادمت معى يا حبيبى روبرت . سوف يكون كل منا كل
شئ بالنسبة للآخر . لن يهمنى شئ آخر فى هذا الكون .
سأذهب إلى صديقتى ، وسوف تنتظرنى ؟ مهما تأخرت
سوف تنتظرنى يا روبرت ؟

قال متوسلاً :

- لا تذهبي يا إدنا ! أوه ! إدنا، ابقى معي . لماذا تذهبين ؟
ابقى معي .
- سوف أعود في أقرب وقت . وسوف أجذك في
انتظاري .

دفنت وجهها في صدره وودعته مرة أخرى . صوتها الخالب،
وجبه العظيم لها قد أثاراً حواسه كلها، حرماه من كل رغبة غير
الرغبة في الإمساك بها والاحتفاظ بها .

- ٣٧ -

مرت إدنا بالصيدلية القريبة ورأت السيد راتجنول يمزج الدواء
بنفسه بعناية شديدة، يخلط سائلاً أحمر في كأس صغير . أظهر
فرحة لدى قدومها وأبدى لها امتنانه . حضورها سوف يكون عزاء
لزوجته وأى عزاء ! لم تستطع أخت مدام راتجنول الحضور من
المزرعة هذه المرة مثلما كانت تفعل دائماً في مثل تلك الأوقات
العصية . فاستولى القنوط على آديل حتى وعدت مدام پونتلييه
بالحضور . كانت الممرضة في صحبتها في الليل طوال الأسبوع
المنصرم ؛ لأنها تعيش على مسافة بعيدة منهما . وكان الدكتور
ماندليه يأتي ويذهب طوال المساء . كانوا يبحثون عنه في كل
لحظة .

انطلقت إدنا تعدو على درج منزل يبدأ أوله وراء المتجر ويؤدي

إلى الشقق فى الطابق الثانى . كان الأطفال نائمون جميعًا فى حجرة خلفية . كانت مدام راتجنول فى حجرة الاستقبال الأمامية حيث انتهى بها المطاف بعد نوبة المرض المفاجئة . تهاقت على الأريكة فى ثوبها الفضفاض تمسك بقوة بمنديل فى يدها المرتعشة . كان وجهها متجعّدًا شاحبًا، أما عيناها الزرقاوان فقد كانت تشع منهما نظرات شرسة بعيدة عن المألوف . أرسلت شعرها الجميل خلف ظهرها فى ضفائر لم يحكم طيها، يقع بجوارها على وسادة الأريكة ملتقًا فى جديلة واحدة طويلة أشبه بثعبان ذهبى . كانت الممرضة نصف الزنجية تقف بجوارها فى مريلتها البيضاء تحثها على الانتقال إلى حجرتها . قالت لإدنا فجأة :

- لا فائدة، لا فائدة . يجب أن نتخلص من ماندليه ؛ لقد طعن فى السن وأصبح لا يأبه بشيء . قال إنه سوف يأتى فى السابعة والنصف، ولا بد من أن الساعة الثامنة الآن . كم الساعة الآن ياچوزفين ؟

كانت الممرضة ذات طبيعة مرحة لا تأخذ الأمور مأخذ الجد الزائد ولا سيما تلك المواقف التى تعرفها جيدًا . ألحت على المدام أن تتجمل بالشجاعة والصبر ولكن المدام عضت على شفتيها وعندئذ رأت إدنا حبات العرق على جبهتها تتجمع مثل حبات المسبحة . وما هى إلى لحظات حتى أرسلت تنهيدة عميقة ومسحت وجهها

بمنديل راحت تعصره بيدها . كانت متعبة غاية التعب
أعطتها الممرضة منديلاً آخر جديداً معطرًا بماء الورد .
صاحت فجأة :

- هذا كثير جدًا ! مانديله يستحق القتل ! أين الفونس ؟ هل
يتركوننى هكذا ؟ ! كلهم يهملوننى ؟ !
قالت الممرضة فى تهكم حذر :
- صحيح يهملونك !

أليست الممرضة بجوارها ؟ ألم تترك مدام پونتليه حفرًا
جميلًا لكى تبقى بجوارها ؟ وها هو ذا السيد راتجنول قادم قد
تجاوز الصالة . وها هى ذى جوزفين تجزم بأنها سمعت عربية
الدكتور مانديله قادمة وهى الآن أمام الباب .
وافقت آديل على أن تعود إلى حجرتها كانت تجلس على حافة
الأريكة المنخفضة بجوار السرير لم يعرها الدكتور مانديله انتباهًا
عندما حضر . لقد اعتاد على ثوراتها فى مثل تلك الأوقات، ورغم
ذلك لم يكن يخالجه الشك فى ولائها له .

كان مبتهجًا لدى رؤية إدنا، وطلب منها أن تأتى معه إلى
الصالون لكى يتحدث معها . ولكن مدام راتجنول رفضت رفضًا
قاطعًا أن تغادرها إدنا لحظة واحدة . قالت إنها تخفف عنها
متاعبها . بدأت إدنا تشعر بقلق مفاجئ . استولى عليها خوف
طارئ لم تعرف له كنهها . لقد مرت بنوبات من المرض فى
الماضى لا تكاد تتذكر أغلبها الآن . تتذكر الآن نوبة من الألم

المبرح أَلمت بها، تذكرت رائحة الكلوروفورم الثقيلة، والغيبوبة التي تميّت الإحساس، ويقفزة بعدها وجدت حياة جديدة وهبتها كل كيائها .

بدأت تمنى لو لم تكن قد جاءت إلى الوجود؟ لم تر لوجودها ضرورة . لابد من أنها قد اختلقت ذريعة للبقاء بعيدًا ، قد تكون اختلقت ذريعة الآن للذهاب . ولكن إدنا لم تذهب . رأت مشهد العذاب بالحزن الداخلى، بالتوقد، بالثورة المضمرة ضد طرائق الطبيعة .

كانت لم تزل ذاهلة صامته من فرط التأثر العاطفى عندما أقبلت على صديقتها لتقبلها وتقول لها تصبحين على خير فى نعمة ورفق . ضغطت آديل على خدها وهمست لها فى صوت مرهق :

فكرى فى أولادك يا إدنا . فكرى فى أطفالك يا ابنتى !
تذكريهما دائماً .

- ٣٨ -

كانت إدنا مضطربة حين خرجت من منزل مدام راتجنول . أقبلت عربية الطبيب لاستقباله أمام المدخل الكبير . لم تبد إدنا رغبة فى ركوب عربية الطبيب ، أخبرته بأنها ترغب فى المشى ، لم تكن تخشى الطريق، وكانت نيتها خالصة فى الوصول إلى بيتها بمفردها . أمر الدكتور ماندليه سائق العربى بالتوجه بدونه حتى

يتقابلا عند منزل مدام پونتليه عاقدًا العزم على المشى معها فى طريقها إلى بيتها .

كان الأفق مرصعًا بالنجوم التى تلمع بين المباني الشاهقة على جانبى الشارع الضيق . دأبت وجهيهما نسيمات باردة امتزجت بأنفاس الريح والليل . كان الطيب يمشى متثاقلاً عاقدًا يديه خلف ظهره يطؤ الأرض بخطوات محسوبة ، وكانت إدنا تمشى شاردة الذهن على نحو ذكرها بليلة من ليالى جراند أيل حين كانت تمشى تسبقها أفكارها مثل ظلها وهى تسعى للحاق بها دون جدوى . قال لها الطيب :

- كان يجب ألا تذهبي إلى هناك يا مدام پونتليه ، هذا ليس مكانك . إن آديل تصبح غاية فى السخف فى تلك الأوقات . وثمة عدد كاف من السيدات اللاتى لم يؤذين حساسيتك سوف تجدهن حول سريرها . لقد كنت أشعر بك ، لم يكن ينبغى معيئك .

- حسنًا ، على أية حال لا أظن أن ما حدث يهمنى كثيرًا .

- متى يأتى ليونس ؟

- قريبًا جدًا . سيأتى فى مارس .

- وهل انتويت الذهاب إلى الخارج كما يقولون ؟

- ربما . . . لا ، لن أذهب . لن أضطر إلى عمل شيء

لا أريد أن أفعله . لا أريد أن أذهب إلى الخارج . أريد فقط

أن يتركبنى وشأنى . لا حق لأحد، فيما عدا الطفلين ،
ريما ، وحتى عندئذ ، يبدو لى ، أو لا يبدو لى . . .
توقفت عن الكلام فجأة لأنها أحست أن الكلمات
لا تتسق مع ما فى ذهنها من أفكار . قال الطبيب وهو يرسل
تنهيدة عميقة ويسعى لفهم ما تقصد :

- المشكلة هى أن الشباب قد استسلم للأوهام . يبدو أن ذلك
من شروط الطبيعة ، طعم لضمان الأمهات اللاتى يحفظن
النسل . أما الطبيعة فلا تهتم بالعواقب الأخلاقية ، لا تهتم
بالشروط المتعسفة التى نخلقها والتى نشعر أننا مضطرون
إلى الحفاظ عليها بأى ثمن .

- نعم . تبدو الأيام الماضية أشبه بالأحلام، لو يستمر المرء
فى النوم والأحلام، ولكننا نستيقظ لنجد . . . أوه !
حسنًا ! ربما من الأفضل أن نستيقظ رغم كل شيء، حتى لو
عانينا أفضل من أن نبقى نهبًا للأوهام طوال العمر .
قال الطبيب وهو يهم بالإمساك بيدها :

- يبدو لى يا طفلى العزيزة أنك تمرين بمشكلة . لن أسألك
ما هى هذه المشكلة ، أقول لك فقط : إذا أحسست بأنك
تريدى أن تحكى لى شيئًا ، ربما أستطيع مساعدتك حقًا .
أعرف أنني سوف أفهم مشكلتك، وأقول لك أيضًا إن
القليلين هم الذين فى مقدورهم ذلك ، القليلين يا عزيزتى .

- عمومًا أنا لا أشعر برغبة فى أن أحكى مشاكلى لأحد .
ولا تظن أننى غير ممتنة لك أو أننى لا أقدر لك تعاطفك
معى . أمر أحيانًا بنوبات من القنوط والمعاناة النفسية
يضطرب لها كيانى كله . ولكنى لا أريد غير الحل الذى أريده
لنفسى . وهذا يتطلب الكثير بطبيعة الحال ، عندما يكون
عليك أن تدوس على حيوات الآخرين ، وقلوب الآخرين ،
وأهواء الآخرين- ولكن لا يهم- لم أزل غير راغبة فى أن
أدوس على حيوات الآخرين الصغيرة . أوه ! لا أعرف
ما أقول يا دكتور . دكتور ، تصبح على خير يا دكتور .
لا تلومنى على أى شئ .

- نعم ، سوف ألومك إذا لم تأت لأراك فى أقرب فرصة .
سوف نتحدث فى أشياء لم تتخيلى أننا يمكن أن نتحدث فيها
من قبل . سوف تفيدنا نحن الاثنين . لا أريدك تلومين
نفسك مهما حصل . تصبحين على خير يا عزيزتى .

دلفت إلى مدخل البيت وبدلاً من أن تدخل جلست على
إحدى درجات المدخل المؤدى إلى الشرفة كان الليل هادئاً
وناعماً . بدأت تتخفف من عواطفها الجياشة التى انتابتها فى
الساعات المنصرمة كما تتخفف من ثوب قديم لم تعد تطيقه .
عادت بخيالها إلى الساعة التى سبقت استدعاء أديل لها ، وبدأت
حواسها تتعش من جديد برؤية روبرت والتفكير فى كلماته ،

وضغط ذراعيه، والإحساس بشفتيه على شفتيها . لن تعدل بهذه السعادة سعادة أخرى على الأرض . عندما كانت تتذكر أنه هنا على مقربة منها ، فى انتظارها ، كانت تصبح ثملة بتوقع مجيئه . كان الوقت متأخرًا لابد من أنه قد نام . سوف توقفه بقبلة . تمت لو كان نائمًا حتى توقفه بملاطفاتها .

ولكن صوت آديل كان لم يزل يتردد فى أذنيها وهى تهمس فيهما : « فكرى فى طفليك يا إدنا، فكرى فيهما » . لقد كانت آديل تعنى ما تقول ؛ هذا الحكم سيق إلى وعيها مثل جرح الموت، ولكن ليس الليلة . غدًا سيكون الوقت متاحًا للتفكير فى كل شىء .

لم يكن روبرت فى انتظارها فى الردهة الضيقة . لم يكن موجودًا على مقربة منها . كان المنزل خاليًا . ولكنه كان قد كتب لها ورقة على عجل وضعها على المصباح يقول فيها : « أحبك . الوداع- لأننى أحبك » .

كادت إدنا تقع على الأرض حين قرأت الورقة . رجعت وجلست على الأريكة، ثم مدت رجلها دون أن تنبس بكلمة أو صوت . لم تنم . لم تذهب إلى الفراش . أحدث المصباح فرقة وانطفأ . كانت لم تزل مستيقظة حتى الصباح عندما أغلقت سلسيتين باب المطبخ وجاءت لكى توقد النار .

- ٣٩ -

كان فكتور يصلح أحد جوانب المائدة بمطرقة ومسامير

وقصاصات من خشب . جلست ماركويتا قريبة منه على مقعد مادة قديمها بينما تشاهده وهو يعمل بهمة ونشاط ، وتناوله المسامير بين الحين والآخر من صندوق الأدوات الذى بجوارها . كانت أشعة الشمس تنال من رأسيهما مما دفع بالفتاة لتغطية رأسها بوسادة رقيقة مربعة صنعتها من مريلتها . لبثا ساعة أو أكثر يتبادلان أطراف الحديث فى كل شئ . لم تمل من سماع فكتور وهو يصف حفل العشاء الذى أقامته مدام پونتليه . راح يسرف فى الوصف ، ويضيف من عنده من تهاويل لم تحدث حتى خيل لها أن الوليمة كانت لأحد الملوك أو الأمراء . قال : إن الزهور كانت فى أحواض ضخمة أشبه بأحواض الغسيل ، وإن الخمر كانت تصب صبا فى كتوس ضخمة من الذهب ، وإن مشهد مدام پونتليه وهى مقبلة على ضيوفها لا يضاهيه مشهد فينوس نفسها عند خروجها من البحر متألفة سحرًا وجمالاً والذهب يلمع فى معصميهما ، والماس يزين جيدها بينما تحيط بها الأخريات وكأنهن حوريات جئن من جنة عدن لا يقارن بشئ فى الفتنة والجمال .

ظنت الفتاة فى البداية أن فكتور قد وقع فى غرام مدام پونتليه . ومن جانبه أمعن فكتور فى تأكيد ظنونها بإجاباته المضللة . لاذت بالصمت فترة ثم همت بالبكاء وهددت بتركه يهيم وحده مع نسائه وحورياته . قالت : إنها عندما كانت فى تشنير كانت محل إعجاب الرجال جميعًا ، وما دامت الموضة

هذه الأيام هي أن تهرب النساء مع الرجال المتزوجين فلماذا لا تهرب هي أيضًا إلى نيو أورليانز مع زوج سلينا .

واستشاط فكتور غضبًا وقال إن زوج سلينا جبان رعديد ، وغبي وخنزير ، ولكي يثبت لها ذلك قال إنه ينوى أن يطحن رأسه بهذه المطرقة عندما يراه . وأثلج ذلك صدر ماركويتا فجففت دموعها وتطلق وجهها بالابتسام .

لم يزالا يتحدثان عن حفل العشاء وإغراءات الحياة في المدينة وإذ بمدام بونتلييه تظهر للعيان ، تمشى متناقلة أمام المدخل وتهتم بدخول البيت . وقف الشابان مندهشين أمام المشهد وقد ظنا في البداية أنهما أمام شبح من تلك الأشباح التي تظهر في أول النهار . كانت هي بشحمها ولحمها، يبدو عليها التعب ووعثاء السفر قالت :

- لقد مشيت كل هذه المسافة من الميناء . سمعت الطرق وعرفت أنك أنت ، قلت إنك ربما تصلح ألواح المعديات الخشبية . جميل ، لقد كانت قدماي تزلان في الصيف الماضي على هذه الألواح الخشبية التي لم تثبت جيدًا . كم يبدو كل شيء كثيبًا ومهجورًا !

فهم فكتور أنها جاءت في قارب بودليت ، وأنها جاءت بمفردها ولم يكن لها أي غرض سوى أن تشد قسطًا من الراحة .

- كما ترين ليس ثمة مكان جاهز الآن ، فى وسعك أن
ترتاحى فى حجرتى ؛ إنها المكان الوحيد .
ردت بنبرة مطمئنة :
- أى مكان يفى بالغرض .
استمر يقول :

- وإذا تحملت طريقة فيلوميل فى الطبخ ، رغم أنى أحاول
أن أستدعى أمها إذا كنت سوف تتاولين عشاءك معنا .
ثم وهو يتحول إلى ماركويتا :
- أو تظنين أنها سوف تعود ؟

رأت ماركويتا أن فيلوميل قد يكون فى مقدورها أن
تأتى لأيام قليلة إذا أخذت من النقود ما يكفى .
عندما ظهرت مدام پونتلييه ظنت الفتاة فى البداية أن ثمة
موعدًا بينها وبين فكتور . ولكن الدهشة كانت بادية على وجه
فكتور حقًا ، وظهر لها عدم اكتراث مدام پونتلييه ، فلم تلبث أن
تبخرت ظنونها وعادت إلى رشدها . راحت تتأمل بكل اهتمام
تلك المرأة التى أعدت لضيوفها أفخم حفل عشاء فى أمريكا ،
والتي كان الرجال فى نيو أورليانز يركعون تحت قدميها .
قالت إدنا مستفسرة :

- متى تتناولون العشاء ؟ أنا جائعة حقًا ؟ ولكن لا تأتون بأى
شئء زيادة .

قال فكتور وهو يجمع أدواته بسرعة :
سنجهزه على الفور، يمكنك الانتظار فى حجرتى حتى
نجهزه . ماركويتا سوف تريك كل شىء .
قالت إدنا :

- أشكرك، ولكن تعرف أن لى رغبة شديدة فى أن أعود
إلى البحر والعموم فى مياه المحيط مرة أخرى قبل العشاء ؟
قالا فى صوت واحد وشىء من الدهشة :

- ولكن الماء بارد جدًا ، لا تفعلنى ذلك ، أرجوك .
- حسنًا ، سأذهب وأجرب ، سوف أضع أصابعى أولاً
وأرى . ألا ترون أن حرارة شمس اليوم تكفى لتسخين أعماق
المحيط ؟ هل يمكن أن آخذ من هنا منشفة أو منشفتين ؟ من
الأفضل أن أذهب الآن حتى أعود فى الوقت المناسب .
سوف يكون الماء أكثر برودة فى الأصل .

أسرعت ماركويتا إلى حجرة فكتور وعادت بالمنشفتين
وأعطتهما لإدنا . وهى تهتم بالخروج . قالت :

- أحب أن أكل سمكًا على العشاء . ولكن لا تعدوا
أى شىء زيادة إذا لم يكن لديكم .

وجه فكتور تعليماته إلى الفتاة :
أسرعى إلى أم فيلوميل وأحضريها معك . سوف أذهب إلى
المطبخ وأرى ما يمكن أن أفعل .

يا إلهى ! النساء لا يرين اهتمامًا لاعتبارات كثيرة . كان ينبغي أن تخبرنى .

مضت إدنا إلى الشاطئ بخطوات متساقطة . لم تكن تعى شيئًا أو تسمع صوتًا . لم تكن تحس بغير حرارة الشمس التى تلسع بوهجها الأنوف والظهور . لم تفكر فى شيء أو تتذكر شيئًا من هواجس الليالى الماضية . نفذ مخزون ذكرياتها من كثرة تفكير الليلة المنصرمة التى قضتها مستيقظة على الأريكة تفكر فى روبرت .

ظلت تقول لنفسها المرة تلو المرة : « اليوم أروبين ، وغداً شخص آخر وما الفرق بين هذا وذاك بالنسبة لليونس پونتليه لا يهمنى ، ولكن راؤول وإتيان ! » .

إنها تفهم الآن بوضوح ما كانت تعنيه منذ زمن بعيد حين قالت : لأدليل راتجنول إنها قد تستطيع التخلّى عن الجوهر ، ولكنها لن تضحى بنفسها من أجل أطفالها .

لقد استولى عليها قنوط شديد وهى تسعى نحو الشاطئ يظلها الليل والسكون . فقدت الرغبة فى كل ما يتعلق بهذا العالم . مر روبرت بذاكرتها مرورًا عابرًا ، قالت فى نفسها إن الزمن كفىل بنسيانه هو أيضًا . قفز أمام عينيها طفلاها مثل عدوين غلباها على أمرها وأجبراها على العودة إلى عبودية الروح إلى الأبد ، ولكنها عرفت كيف تتخلص منهما . أصبح ذهنها خاليًا لدى اقترابها من الشاطئ .

كانت مياه المحيط تمتد على مساحات شاسعة أمام عينيها،
تلمع بما لا يحصى عددًا من الألوان التي أرسلتها الشمس . ناداها
البحر بصوت رقيق مثل عاشق ظل دهورًا في انتظار الحبيب .
سمعت همسه وتصفيقه، وشعرت بدمدمته. وهيامه وهو يدعو
روحها إلى التجوال في مهاوى الوحدة والعزلة . لم تسمع نامة
على الأرض أو ترى نسمة في السماء ما خلا طائر يضرب الهواء
بجناح مكسور ما لبث أن هوى على صفحة المحيط .

وجدت إدنا بذلة السباحة لم تزل معلقة على حبل الغسيل وقد
نصل لونها . خلعت ملابسها وتركتها في حجرة صغيرة على
الشاطئ . تأملت نفسها وهي تقف عارية بجوار البحر بعد أن
تخفت من ملابسها الكثيرة . استقبل جسدها العاري وهج
الشمس ولفحات النسيم، واستجابت روحها لنداء الأمواج . كان
المشهد غريبًا ومهولاً ، ولكنه كان سببًا في لذة لم تختبرها من
قبل ! أحست أنها أشبه بمولود جديد يستقبل الطبيعة أول مرة .
فتحت عينيها على عالم جديد لم تعرفه من قبل . كانت الأمواج
الصغيرة برغوتها القليلة تغازل قدميها البيضاء ثم لا تلبث أن
تنحسر عنهما في كر وفر بعد أن تتموج تحت كاحليها بحركات
أشبه بحركات الحيات . تركت المياه ومشت خارج الشاطئ .
كان الماء باردًا حقًا ولكنها ما لبثت أن عادت من جديد . كان
الماء عميقًا ولكنها رفعت جسدها الأبيض واستسلمت لموجة

قوية دفعتها إلى الأمام أكثر مما كانت تتوقع . شعرت بمس الماء
لذيذاً يعانق جسدها فى حب لم تألفه .

لم تتوقف عن التقدم فى المياه . تذكرت الليلة التى سبحت
فيها بعيداً عن الشاطئ، وتذكرت الخوف الشديد الذى استولى
عليها حينئذ من أن تفقد القدرة على العودة . توقفت عن النظر
خلفها وواصلت التقدم . تذكرت المروج الزرقاء التى كان عليها
أن تجتازها وهى طفلة صغيرة وهى تعتقد أنها بلا بداية ولا نهاية .
بدت يداها وساقاها لا يقويان على حملها ، تذكرت ليونس
والطفلين ، كانا جزءاً من حياتها، ولكن هل امتلكاها روحاً
وجسداً ؟ كم ستضحك الآنسة ريز، وربما قالت ساحرة : «إذا
عرفت ! وتسمين نفسك فنانة ! يا لها من ادعاءات فارغة
يا سيدتى ! الفنان يجب أن يمتلك الروح والشجاعة اللتين يتحدى
بهما ويقتحم .»

لقد استنفذ التعب والإعياء قوتها كلها .

« الوداع - لأننى أحبك » . لم يكن يعرف ، لم يكن يفهم ،
لن يفهم أبداً . ربما فهم الدكتور ماندليه إذا زارته مرة أخرى كما
يقول ، ولكن السيف قد سبق العذل، لقد اتسعت المسافة بينها
وبين الشاطئ، لم تعد تراه، لقد خارت قواها .

نظرت فى الفراغ والبعد، تملكها الرعب القديم لحظات
لا تذكر، ولم يلبث أن ذهب . سمعت إدنا صوت أبيها وصوت
أختها مارجريت . سمعت نباح كلب هرم قد شد وثاقه إلى شجرة

جميز قديمة . سمعت صوت ضابط فرسان يستحث رجاله وهو ينظر من شرفة أحست بطنين النحل يملأ أذنيها ، ورائحة أزهار القرنفل تنتشر فى الهواء وتملأ الجو .

هوامش

(١) سليلو المستوطنين الفرنسيين والإسبان الذين كانوا يقطنون منطقة نيو أورليانز . منذ بداية القرن الثامن عشر طور الكريوليون ثقافة مدنية شديدة التعقيد .

(٢) عربة خفيفة وحيدة المقعد يجرها عادة جواد احد . (المترجم) .
(٣) أكاديا مستعمرة فرنسية قديمة ١٦٠٤ - ١٧١٣ فى الساحل لشمالي الشرقى من أمريكا الشمالية ، تشمل ما يسمى الآن نوفا سكوتيا ، وبيرونسك الجديدة ، وجزيرة الأمير إدوارد وأجزاء من كيبيك . (المترجم) .

(٤) فردريك فرانسوا شوبان مؤلف موسيقا وعازف مشهور على البيانو من أصل بولندى . ولد فى إحدى قرى وارسو عام ١٨١٠ ودرس فى وارسو واستقر فى باريس وتجول فى إنجلترا وإسكتلندا ، ولم يعد إلى بولندا أثناء احتلال الروس لها . لم يتزوج ولكنه كان صديقاً لجورج صاند وعاش معها حتى عام ١٨٤٧ ومات فى باريس عام ١٨٤٨ . (المترجم) .

صدر من آفاق عالمية

١ - تنبؤات

شعر : ييفر / زجراجن
ترجمة : د. يسرى خميس
يوليو ٢٠٠١

٢ - اعتراف منتصف الليل

رواية : جورج ديهامل
تعريب : د. شكرى عياد
أغسطس ٢٠٠١

٣ - الزيتون والسندبانة

نصوص شعرية مترجمة ودراسة عن الشاعر :
عادل قرشولى
د. عبد الغفار مكاوى
سبتمبر ٢٠٠١

٤ - بلبل واحد لا يصنع ربيعا
مختارات من القصّة العالمية
ترجمة د. حمادة إبراهيم
أكتوبر ٢٠٠١

٥ - شرك القدر

مسرحية : أنطونيو بوريو بيبخو
ترجمة : د. طلعت شاهين
نوفمبر ٢٠٠١

٦ - الأرض الخراب وقصائد أخرى

شعر : ت . س . إليوت

ترجمة : د. لويس عوض

تقديم : د. ماهر شفيق فريد

ديسمبر ٢٠٠١

٧ - في البحث عن فاليري

تأليف : ليچ مايكلز

ترجمة : مى رفعت سلطان

يناير ٢٠٠٢

٨ - زديج أو القضاء (قصة شرقية)

تأليف : فولتير

ترجمة : د. طه حسين

تقديم : نبيل فرج

فبراير ٢٠٠٢

٩ - قصائد امرأة سوداء بدينة

شعر : جريس نيكولز

ترجمة : نانسى سمير

مارس ٢٠٠٢

١٠ - عاشق من مونت كارلو (مختارات قصصية)

تعريب وتقديم : عبد القادر حميدة

إبريل ٢٠٠٢

١١ - الحب والأسى (مسرحية صينية)

تأليف : (باى فنجكس)

ترجمة وتقديم : سمير عبد ربه

مايو ٢٠٠٢

- ١٢ - ذلك العالم المدهش
(حوارات مع كتاب عالمين)
ترجمة وتقديم : حسين عيد
يوليو ٢٠٠٢
- ١٣ - شعر السبعينيات في إسبانيا (دراسة ومختارات مترجمة)
د. حامد أبو أحمد
يوليو ٢٠٠٢
- ١٤ - المسرح الهندي (التراث والتواصل والتغير)
تأليف : د. نيميتشاندا جين
ترجمة : د. مصطفى يوسف منصور
مراجعة : أ.د. منى أبو سنة
أغسطس ٢٠٠٢
- ١٥ - مختارات من روائع المسرح العالمى
ترجمة وتقديم د. نعيم عطية
- ١٦ - الأغنية الأخيرة
مختارات من الشعر الصينى
تأليف : تشانج شيانج - هو
ترجمة : زكريا محمد
- ١٧ - أفضل صديقاتى
ترجمة : مفرح كريم
- ١٨ - الطاغية
ترجمة د. جمال عبد الناصر

أفاق عالمية

« .. كشف غياب الحبيب عن
الأبعاد الغافية في ذاتها الكبيرة المنطوية
على جوهر حافل بالوعود ، شاءت
الظروف أن تطمسه ، وتقمعه ، وتخفيه
خلف تقاليد وأعراف دأبت على تحويل
المرأة إلى شيء للاقتناء ، وجسد
للمتعة ، ورخم للإنجاب ، وظل
للرجل ... رواية مكتوبة بإدرا
للموجات الشعورية التي تتاب أنثى
تخرج من ظلام الغفلة إلى نور الوعي
بإمكاناتها الفكرية والعاطفية
والفنية ... » .

Bibliotheca Alexandrina



0678719

